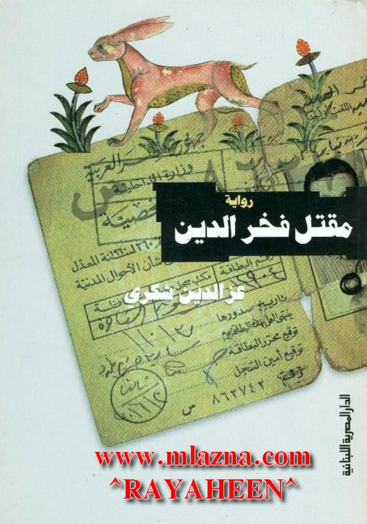

رواية
مقتل فخر الدين
عزالدين شكري
الدار المصرية اللبنانية

مقتل فخر الدين

عندما خطا فخر الدين خطوته الأولى في شارع العهد الجديد، أدرك أن الجو الغريب قد أحكم سيطرته... لا أحد في الشارع... أغلقت كل البيوت عيونها وقلوبها واستسلمت لنومها الطويل... صمتت بين السرايات لحظة، ثم انهال الصوت دامياً متفجراً من كل نافذة ومدخل وسطح... سقط فخر الدين سقطة واحدة على رصيف الشارع، في دمه الأحمر القاني... أفسح الهواء صدراً لإشارة الصمت، فصمتت الرشاشات الآلية... يُطل وجه أحد الجنود من باب بيت مقابل.. عبر الشارع مسرعاً شاهراً بندقيته باتجاه الجسد الممدد على الرصيف.. اقترب في حذر ومال عليه.. دفعه بقدمه، فقلبه على ظهره... دفعه بركلتين متلاحقتين حتى يتأكد من موته.. رفع رأسه إلى من فوق السطح، وأشار بإبهامه إلى أعلى.

الغلاف: أحمد اللباد

الدار المصرية اللبنانية

6 222006 319205

مقتل فخرالدين

رواية

عز الدين شكري

الدار المصرية اللبنانية

شكرى ، عز الدين.
مقتل فخر الدين : رواية /عز الدين شكرى .ـ ط3.ـ
القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2009.
248 ص ؛ 21 سم .
تدمك : 8 ـ 462 ـ 427 ـ 977
1 ـ القصص العربية
أ ـ العنوان 813

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com
رقم الإيداع : 2433 / 2009

الطبعة الثالثة والطبعة الثانية للدار المصرية اللبنانية
جمادى الأولى 1430هـ ـ مايو 2009م

«اليوم أكملت الرسالة فانشروني، إن أردتم، في
القبائل توبة، أو ذكريات، أو شراعا
اليوم أكملت الرسالة فيكم
فلتطفئوا لهبي، إذا شئتم، عن الدنيا
وإن شئتم فزيدوه اندلاعا
أنا لي ، كما شاءت خطاي
حملت روحي فوق أيديكم فراشات، وجسمي
نرجسا فيكم
وموتاي اندفاعا».

محمود درويش

الـــوداع

«ضد من؟!..
ومتى القلب – في الخفقان –
اطمأن؟!».

أمل دنقل

- 1 -

العجلات الكبيرة الصلبة تهرس الأسفلت النَّدِيَّ في سيرها الحثيث. يهتز كوبري قصر النيل من وطأة حمولته ، تمر قافلة السيارات أمام الأوبرا وفوق كوبري الجلاء . لا سيارات أخرى في هذا الصباح . يملأ طابور السيارات شارع التحرير . ثمة مطب فجائي مغطى بالماء المتبقي من مطر الليل . تهتز العربة بعنف عند المطب فيترنح الجنود أنصاف النائمين ويفيقوا . يُحكم جندي قبضته على السور الحديدي الملتف حول مقاعد العربة . ينظر الضابط الجالس على يمين السائق إليه بحنق ويتمتم بسباب خارج . يتحسس نجمته الوحيدة على كتفه ومسدسه الأسود الرابض عند يمين حزامه . يمد ساقه إلى الأمام . في كابينة القيادة متسع لقدميك . هدّأت السيارة البيجو البيضاء التي تقود الطابور من سرعتها ، وتوقفت فتوقفت سيارات نقل الجنود خلفها تباعا . دقائق من الانتظار. تمتم جندي نوبي بلحن خافت فأخرسه الجندي المجاور بشخيره المفاجئ. استأنفت السيارات مسيرتها . عند ميدان الدقي انحرفت السيارة البيجو البيضاء يسارًا ومن خلفها سيارتا نقلٍ للجنود ، بينما استكمل الطابور سيره في شارع التحرير . في صمت الخامسة صباحا ، كانت قطرات الندى تنحدر رويدا رويدا من أعلى كابينة القيادة على صاج السيارة الزيتي اللون . شغل الضابط مَسَّاحَاتِ الزجاج ثم أوقفها . شد الجنود قبضاتهم على العصي المطاطية المعلقة في أحزمتهم . عند شارع الزيات توقفت العربة الأولى . هبط الجنود متتابعين وساروا أمام الجامعة . توقفوا في صفين.

دخلت السيارة الأخرى إلى شارع الزيات وقابلت السيارات القادمة من شارع التحرير وتوقفت سيارات نصف نقل زرقاء تحمل فرقا صغيرة من الجنود تتسلل في الشوارع الجانبية لبين السرايات وتصل حتى شارع السودان .
أجهزة الإرسال لا تكف عن الشوشرة في أيدي الضباط المسرعين عبر الشوارع أمام جنودهم . وقفت البيجو البيضاء أمام قبة الجامعة حيث تولت أعمال القيادة والسيطرة بالتعاون مع السيارة الجيب المجهزة بنظام التحكم الآلي . طارت الإشارات في الأثير الصباحي تحمل أوامر بسيطة وموجزة . السيارات التي أفرغت حمولتها تنسحب إلى الجامعة .
باب الجامعة الأخضر العتيق يئز وهو ينفتح لسيارات نقل الجنود . تدخل السيارات تباعا وتصطف أمام كلية التجارة . في الجامعة متسع للسيارات.
الأحذية العسكرية الثقيلة تدب على الأسفلت المبلل ، تتطاير بضع قطرات من الماء والطين على ملابس الجنود الذين يصطفون في طوابيرهم نزولا من السيارات . الجنود المزودون بالدروع والعصي يقفون صامتين في طابور مربع . تتقدم فرق الكاراتيه من شارعي الزيات ونصار لتلتقي حول شارع العهد الجديد وتحيط به . صفوف الجنود المزودين بالدروع تتقدم لتكمل سد المنافذ الخارجية لبين السرايات وتنشئ الاستحكامات السريعة من حواجز المرور ودروع الجنود وأجسامهم . تتقدم فرق القناصة القادمة من شارع السودان لتحتل أسطح البيوت العالية في شارع الطويجي الفاصل بين الدقي وبين السرايات . تتسلل في حرص فصائل منهم في شارع العهد الجديد ، على سلالم المنازل القديمة . كل البيوت أغلقت شبابيكها. تتعثر أقدام الجنود في صفائح القمامة في ظلمة السلم. تفر القطط المذعورة في فزع مكتوم الصوت . طفل صغير يعلو صراخه في

الدور الأرضي ثم يسمع صوت كركبة في المنزل ويصمت الطفل فجأة . كعوب البنادق مغروسة في أكتاف الرجال المتمترسة على الأسطح . يُحدث الدجاجُ خشخشة في عششه تهدأ شيئا فشيئا . يكمل الجنود سيطرتهم على الأسطح العالية ، يحكمون نصب مدافعهم الآلية وتصويبها . تُجْري قيادة القناصة اختبارا صامتا للتنسيق وإحكام اصطياد الهدف من مركزها في أعلى عمارات شارع الطوبجي . يستكمل الجنود سد مداخل الشوارع الرئيسية والجانبية . يتجمع الضباط في حلقات على المحاور الرئيسية . البيجو البيضاء - أسفل قبة الجامعة - تُجري اختبارا لقياس الاستعداد والتنسيق بين الفصائل الأرضية والقناصة. كل شيء جاهز ، وبين السرايات تحت السيطرة تماما.

- 2 -

أخرج فخرالدين رأسه من تحت البطانية . فتح عينيه ثم أطبقهما ثانية . بقايا الضوء الذي تسلل داخل جفنيه يوخز مقلتيه . فرك جبينه بيده ثم أسند ظهره للسرير . ما الذي أيقظه مبكرا هذا الصباح ؟! لا يدري. شيء غريب في جو الغرفة لا يدري ما هو . نزل مُبطئًا من على السرير إلى الأرض تتحسس قدماه فردتي الشبشب . خارجا من غرفة النوم إلى الصالة الصغيرة . أدرك فخرالدين أن هناك أمرا غريبا يسبح في هواء الشقة كلها . صمتٌ غريب يطبق على المكان والزمان ويمتد ليشمل الكون كله . صمت جاثم بصدره على الهواء وعلى الأشياء. فتح الحنفية فلم تجئ المياه . بحث عن الماء في المطبخ . تفتحت حواسه والماء يجلو بقايا الحلم من ثنايا النوم في وجهه . الصمت الغريب يُكسب الهواء مرارة . النافذة الوحيدة في الصالة

مفتوحة على ضوء بلا شمس . «ما الذي أيقظني مبكرا هذا الصباح؟» بقايا العشاء لا تزال على المائدة الصاج المربعة . هذا الصمت مبالغ فيه .

لا صوت يأتي من الخارج ، حتى نقرات المطر الليلي توقفت ، حتى بحيرة الماء التي تكونت على السطح الخشبي توقفت عن تسريب قطراتها في المطبخ . وقف فخرالدين في الصالة يحدق في النافذة المرتفعة ، لا شيء يبدو منها سوى سماء بيضاء مفعمة بسحاب رمادي داكن وقمة المنزل المجاور . نظر فخرالدين إلى قمة المنزل المجاور وأمعن النظر . «من الذي ضغط على نومي حتى خنق لحظته العابرة فأوقفها وأخرجني من الحلم إلى النوم إلى اليقظة؟». نظر فخرالدين طويلا إلى قمة المنزل المجاور ثم ارتسم على ملامحه هدوء وسلام . استدار إلى غرفة النوم .

فتح باب الدولاب الخشبي القديم . مد يده إلى جلبابه الأبيض وسرواله الأبيض . بحث عن جوربه الأبيض والتقطه . أكمل فخرالدين ارتداء ملابسه . حذاء كاوتشوك أبيض ، أبيض شاهق ، عاد فخرالدين إلى الصالة ، وجال بنظره على الأشياء مودعا : المنضدة ، الكرسيين الخشبيين ، ساعة الحائط القديمة ، المقعد العريض ذي القاعدة الساقطة قليلا ، طرف السرير البادي من الباب الموارب ، صورته وهو صبي يرعى الغنم ، النافذة وقمة المنزل المجاور . فتح الباب ، وخرج .

- 3 -

عندما خطا فخرالدين خطوته الأولى في شارع العهد الجديد أدرك أن الجو الغريب قد أحكم سيطرته تماما . الجو الذي انسل إلى داخل شقته وضغط على نومه فأيقظه ، موجود هنا ، يكاد يُلمس باليد ، حجرا ينحت في الهواء . صَمتٌ مرعب يشل الشارع . السادسة والنصف صباحا في بين السرايات وعم عبده ليس واقفا ، والنسوة المتزاحمات حول قدرة الفول بملاءاتهن السوداء والأطفال الزاعقين مادي الأيدي بالأطباق البلاستيك غير موجودين ، إبراهيم الصايغ لا يفرد جرائده على النصبة الخشبية ، نافذة عم سليمان في الدور الأرضي مغلقة ، بنات مدرسة بين السرايات القديمة لا يحملن الكتب والحقائب القماش ولا خرجن من الأبواب مندفعات ليلتقين في الشارع ، الصبية الصغار لا يتقاذفون الطوب ، عم سيد الحلاق لا يفتح الراديو ، ودعاء الصباح لا يأتي من إذاعة الشرق الأوسط . لا أحد في الشارع . النوافذ مغلقة . أبواب البيوت مغلقة. المحلات الصغيرة والأكشاك مغلقة . الماء راكد في وسط الشارع ، لا يتحرك . أغلقت كل البيوت عيونها وقلوبها واستسلمت لنومها الطويل . الصمت يذبح الهواء في هذا الصباح الشتائي الداكن . وجود مريب غير مرئي ينبه الحواس ويفتح إشارات الحذر . فخرالدين يسير متمهلا في الشارع حتى نهايته . ينحرف يمينا في شارع السكري . الوجود الخفي كثيف ومنظم . عشرات العيون الخبيثة ترقبه وتسلمه بعضها لبعض . مر فخرالدين من جانب مصنع الكوكاكولا متجها إلى شارع السودان . ما زال الصمت شاملا ، والوجود الخفي مسيطرا ،

وفخرالدين سائرا . حفيف خفيف يأتي من بعيد . تزداد خطوته وعيا . يشعر بالمسافة بين موضع قدمه وموضع الخطوة القادمة.. يخطوها . أسلمت كل البيوت أبوابها وعيونها للصمت المسيطر ونامت، وفخرالدين يسير وحده في الشارع المقفر . لا صوت يأتي سوى خطوته وارتعاشة الجفن فوق المقلتين . توقف فخرالدين فجأة . انحبست أنفاسه لحظة وانتظر ، لم يستدر . أطلق نفسه وخطا . صار فخرالدين خلف مصنع الكوكاكولا في تمام السابعة إلا الربع من صباح الأول من شهر أكتوبر . صمتت بين السرايات لحظة ثم انهال الصوت داميا متفجرا من كل نافذة ومدخل وسطح ، متتاليًا سريعًا متدفقًا متصلًا نافذًا وقاتلًا . سقط فخرالدين سقطة واحدة على رصيف الشارع في دمه الأحمر القاني المنساب ساخنا على ردائه الأبيض . اتصل صوت الطلقات متتاليًا لدقيقتين كاملتين . أفسح الهواء صدرا لإشارة الصمت فصمتت الرشاشات الآلية. صمت شامل . أطل وجه أحد الجنود من باب بيت مقابل . عبر الشارع مسرعا شاهرا بندقيته باتجاه الجسد الممدد على الرصيف . اقترب في حذر ومال عليه . دفعه بقدمه فقلبه على ظهره . بان وجه القتيل . دفعه بركلتين متلاحقتين حتى تأكد موته . رفع رأسه إلى مَن فوق الأسطح وأشار بإبهامه إلى أعلى .

مقدمة المحقق

«ليت الفتى حجر..
ياليتني حجر...».

محمود درويش

- 1 -

لماذا تم تكليفي أنا بالتحقيق ؟ لا أدري . ربما صدفة وربما هي تصاريف القدر التي لا نعرف حكمتها إلا متأخرين . ربما لاشتهاري بالسرعة والكفاءة وهما عاملان كانا مطلوبين لهذه القضية . ربما وربما . الاحتمالات كثيرة، ولكن النتيجة بالنسبة لي واحدة ، وهي أن حياتي بعد ذلك لم تعد تلك التي عشتها قبل أن أشرع في التحقيق في حادث اختفاء فخرالدين . وأن هذا التحقيق ، بما تضمنه من مقابلات قمت بها وأحاديث اشتركت فيها ووقائع شهدتها ووثائق اطلعت عليها وحقائق تكتشف لي ، قد ألقي بنور غير عادي فيما تبقى من حياتي وغيَّر من مجراها وأكسبها شكلا ما كنت أظن أبدا أنها قد تتخذه في يوم من الأيام . وليس هنا مقام سرد قصة حياتي ولا كيف تغيرت ، ولكني لم أستطع أن أمنع نفسي من الإشارة لذلك (ولا أدري ما أهمية ذلك الآن) . حادث عادي . شاب في السابعة والعشرين اختفى من محل إقامته في أول أكتوبر . إبلاغ أقسام الشرطة وعمل نشرة في الصحف. تحقيق سريع مع أهله ومعارفه ثم إغلاق الملف وحفظ القضية. حادث عادي يتكرر كل يوم . ولكن شيئاً غير عادي بالمرة قد حدث وغيَّر من كل ذلك . ولكن لأحاول أن أكون مرتبًا .

أنا عمر فارس وكيل نيابة بمكتب النائب العام . من مواليد القاهرة، عَزَب وحيد منذ وفاة والدي . أقطن في شقة متوسطة المساحة في شارع القصر العيني. ليس لي اهتمامات محددة خارج نطاق عملي سوى ركوب الخيل في نادي الفروسية من حين لآخر . خبير تحقيقات من الدرجة الأولى ومتخصص في القضايا المستحيلة . تم اختياري للعمل في مكتب النائب

العام بعد أن ذاع أمري عقب سلسلة من التحقيقات كنت قد قمت بها في قضايا لشركات توظيف الأموال ، ومنذ ذلك الوقت وأنا أعمل بالمكتب. أقصد حتى بدأت التحقيق في حادث اختفاء فخرالدين .

في أول نوفمبر ، منذ خمس سنوات بالضبط ، استدعاني محمود بك مدير المكتب وألقى إليَّ بملفٍ أبيض اللون وطلب مني دراسته . وبعد أن أمضيت نهاري في تصفح محتويات الملف عدت إليه أسأله عن المطلوب مني بالضبط . والذي فهمته منه آنذاك أن النائب العام قد تلقى بلاغات متعددة للتحقيق في هذا الحادث وأنه مهتم جدا باستجلاء الحقيقة فيه . والذي فهمته ولم يقله مدير المكتب، أن الطلب الأساسي هو سرعة الانتهاء من القضية .

- كم من الوقت ؟

- ليس أكثر من أسبوع .

الملف صغير . صورة من البطاقة الشخصية للشخص المختفي فخرالدين عيسى هاشم ، بيانات أساسية عن محل إقامته ، دراسته ، مهنته ، عائلته ، أصدقائه.. إلخ . بالإضافة إلى عدة خطابات غُفل من التوقيع موجهة للنائب العام تطلب منه التحقيق في اختفائه وتزعم أنه قُتل، وأقوال مائعة لجيرانه . لا شيء غير ذلك .

الحادث : محام موقوف عن ممارسة المهنة بقرار من نقابة المحامين ، يقطن شقة مكونة من غرفة وصالة فوق سطح منزل في حي بين السرايات بمحافظة الجيزة ، متغيب عن منزله منذ أول أكتوبر ، ولا أحد يعرف عنه شيئًا . وما أهمية كل ذلك؟ لم أفهم وقتئذ .

* * *

في اليوم الأول بدأت التحقيق مع الجيران . صاحبة المنزل الذي يسكن فيه فخرالدين أكدت لي أنها لا تعرف شيئًا ولم تر شيئًا ، وأن آخر مرة رأت فيها فخرالدين كانت مساء 30 سبتمبر ؛ حيث عاد للمنزل في حوالي العاشرة وصعد لغرفته (هكذا تسمي شقته) ثم نزل وعاد مرة أخرى.

– وسمعت صوت السلم الخشبي وهو يئز .

– هل كان بمفرده ؟

– لا لا لا . المرحوم لم يكن من هذا النوع أبدا يا أستاذ .

– المرحوم ؟

ارتجت نظرتها وقالت : ألم يقولوا إنه مات ؟

بقية الجيران لم يروا شيئًا ولم يسمعوا شيئًا وكلهم – على غير العادة – يردون في إيجاز واقتضاب . كلهم رأوه عائدا في العاشرة مساء ، ثم لا شيء بعد ذلك . صاحب محل الكفتة آخر من تحدث معه ليلتها :

– أخذ رغيف كفتة ومشى .

– ....؟

– لا لم يقل شيئًا .

صاحب المقهى الواقع على ناصية شارع نصار حيث كان فخرالدين يجلس كل ليلة مع أصدقائه في الشهور الأخيرة ، رآه مغادرا في العاشرة إلا الربع . بائع الفول ، بائع الصحف ، الحلاق صاحب التليفون الوحيد في الشارع ، البقال، كل الناس في بين السرايات رأته مساء ولم يره أحد بعد ذلك . بدا لي ذلك أمرا غريبا .

في اليوم التالي ، سافرت إلى قريته بريف الدلتا . عمه (وزوج خالته) لا يعرف عنه شيئًا منذ خمسة عشر عاما . مقتضب وغير راغب في الحديث

عنه لكن مضطر بحكم سلطتي والعمدة . والده توفي قبل ولادته وأمه توفيت وهو في الرابعة من عمره حيث كفله عمه . بقية أهله الأبعدين غير راغبين في الحديث عنه ولم يروه منذ غادر القرية وهو صغير .

- لم يكن له أصدقاء هنا ؟

- لا ... لا أحد .

ولا أحد يتذكره إلا بعد تفكير طويل وإمعان .

- ألم يظهر هنا خلال الشهر الماضي ؟

- وما الذي يدفعه للمجئ إلى هنا ؟ لا أحد له هنا .

* * *

في مكتب المحاماه الشهير الذي كان يعمل فيه قبل إيقافه ، نفى الجميع أن يكون فخرالدين قد ظهر أو اتصل خلال الشهور الماضية، وبالتحديد منذ فضيحة إيقافه من النقابة وما أعقبها من فصله من العمل بالمكتب . لم يتصل بعدها بهم أبدا ولم يتصل به أحد .

* * *

شيرين حسن صديقته السابقة أو حبيبته ، غير مقيمة بمصر منذ زواجها ؛ ومن ثم لم أر مبررًا لتعكير صفو حياتها الزوجية بقصص قديمة، وخاصة أنه من المستبعد أن يكون فخرالدين قد اتصل بها .

* * *

في اليوم الرابع ، ظللت أراجع البيانات المتوافرة لدي في الملف من أقوال في المحضر الرسمي ، وتلك التي وافتني بها مباحث أمن الدولة وأمن الموانئ والمطارات . لا يوجد مفتاح لفهم اختفاء هذا الشخص، ولا يوجد سبب للاعتقاد بوجود شبهة جنائية وراء هذا الاختفاء. ربما سافر إلى أي

مكان داخل مصر . ربما غيّر محل سكنه لأي سبب كان ، أو ربما أي شيء آخر في الدنيا . وما أهمية هذا الشخص أساسًا؟

لكني مع ذلك قررت -إخلاصا مني لشهرتي- أن أتم عملي بالكفاءة اللازمة. وفي ملف مباحث أمن الدولة وجدت إشارة إلى مجموعة أصدقائه القدامى بالجامعة وكذلك بالمدرسة الثانوية . وتطلب ذلك مني السفر مرة أخرى إلى الدلتا - إلى المنصورة هذه المرة- لمقابلة شخص يدعى ناصر الخضري ويعمل مهندسا بمشروع كهرباء طلخا والمفترض أنه كان صديق فخرالدين الحميم . ولكنني لم أعثر لهذا الشخص على أثر فآثرت العودة والتخلي عن طريق قد يعقّد الموضوع أكثر.

وفي اليوم السادس (يوم الجمعة ، إجازتي الضائعة) قابلت مجموعة أشخاص ممن كانوا على علاقة بفخرالدين في الجامعة، وكلهم ردوا -باقتضاب- بأنهم لم يروه ولم يسمعوا عنه منذ فترة طويلة.

* * *

وبعد مرور ستة أيام ، بدا لي الأمر مضيعة للوقت أكثر من اللازم. شاب غير مستقر ، وعلاقته منقطعة تقريبا بكل من حوله ، اختفى من محل إقامته. وما الذي يدعو للظن بوجود شبهة جنائية ؟ عدة خطابات غفل من التوقيع تدعي أنه قُتل في بين السرايات خلف مصنع الكوكاكولا في فجر الأول من أكتوبر . الخطابات مكتوبة بخطوط يد مختلفة ومرسلة من عدة أماكن من بينها مكتب بريد الجامعة في بين السرايات نفسها. مجرد خطابات بلا توقيع يستطيع أي مراهق عابث أن يرسل العشرات منها، بل يمكن أن يكون فخرالدين نفسه هو مُرسلها ، وهو أمر غير مستبعد بالنظر لشخصيته الغريبة .

بدا لي وقتها أن احتمال القتل هذا مستبعد بالمرة ، فلو كان قد قتل فعلا فأين كان أهل الحي ؟ ألم يسمع أحد طلقات الرصاص المزعومة ؟ وأين مرسلو الخطابات أنفسهم ؟ وما الذي يمنعهم من الظهور ؟ ثم أين ذهبت الجثة ؟ هل ابتلعها النيل أم طارت ؟ وأين آثار الجريمة ؟ لقد فحصت بنفسي الشارع الذي تزعم الخطابات وقوع القتل فيه ولم أعثر على أي أثر لدماء أو حتى لثقوب في الحوائط . كما أن قتل شخص وحيد وبلا أهمية بدا لي عملا مفتقرا للدافع . فلم أر له أي أعداء أو أي شخص يمكن أن يستفيد من موته سواه هو نفسه ، والذي لابد أن يكون قد ارتاح من حياة مضنية من الشقاء والفشل مثلما أوحت لي الأقوال التي جمعتها .

ومن ثم قررت أن أغلق الباب أمام احتمال وجود دافع جنائي وراء اختفاء هذا المواطن ، وقررت كذلك إغلاق الموضوع برمته وحفظ القضية. ومهرت القرار بإمضائي الموقر . وعندما سلمت الملف - في صباح اليوم السابع - للسيد مدير المكتب كان سعيدا جدا وابتسم لي مؤكدا أنه كان على ثقة من ذكائي وحسن تقديري . وكانت تلك هي أول مرة أرى فيها ابتسامة السيد مدير المكتب .

- 2 -

ثم ماذا ؟ ما الذي حدث إذن وجعلني أعيد الخوض في هذا الموضوع وبهذه الطريقة ؟

الذي حدث ببساطة هو أن فخر الدين قد زارني في الحلم . وأنا أعلم جيدا أن ذلك يبدو سخيفا ، وأن القارئ لابد أنه قد أعاد رأسه للوراء وتقلصت عضلات وجهه امتعاضا من هذه السذاجة. ولكن هذه هي الحقيقة !

الذي حدث أن فخرالدين قد زارني في الحلم فعلا . وأنا بالمناسبة لست ممن يؤمنون بالأشباح والأحلام والأعمال السحرية وخلافه من هذه الخرافات ، وأعتقد مخلصا أن الأحلام هي انعكاسات نفسية لإدراك الفرد للعالم من حوله ولرغباته الشخصية ، وأنها رد فعل اللاوعي على المدركات الحسية التي يسجلها الفرد طوال يقظته وأحيانا أثناء نومه. وما زلت أعتقد ذلك . ولكن الذي حدث لي أمر مختلف ، لقد زارني فخرالدين فعلا في الحلم . إن الأمر ليس مجرد حلم وإنما شبه زيارة فعلية . كان واضحا جدا وخاليًا من أية مبالغات ونافذ الأثر. حتى إن الانطباع الذي تركه فيَّ ظل ملازمًا لي فترة طويلة بعدها . وظلت بعض آثار هذه «الزيارة» لدي في درج مكتبي تلهب وجداني بل وجودي كله . ولكن لأحاول مرة أخرى أن أكون مرتبا في الرواية .

* * *

بعد أن حفظت القضية بنحو شهرين ، وبالتحديد في أول يناير ، كنت غارقًا لأذني في قضية مخدرات صعبة ومعقدة كانت تستهلك كل وقتي وطاقتي . كانت قضية مرهقة من ذلك النوع من القضايا الذي نعرف فيه جيدا المتهمين – بل المجرمين – قبل بدء القضية بفترة ، ونظل نجتهد لتدبير أدلة كافية لعمل قضية لهم، وبعد مجهودات طويلة وشاقة وأحيانا خطرة ، يتم إعداد القضية وإحالة المتهمين إلى المحكمة لنفاجأ بثغرة في الإجراءات لا تخفى على محام «شاطر» يدخل منها لينسف القضية كلها. في هذا اليوم – أول يناير – كنت قد عدت لتوي من محكمة جنايات الجيزة بعد أن سمعت النطق ببراءة السادة تجار المخدرات الذين كنا نسعى وراءهم منذ أكثر من سنة . وكانت حالتي النفسية سيئة جدا فعدت

إلى منزلي مباشرة واستغرقت في النوم على الفور ، حتى دون أن أخلع ملابسي .

كنت واقفا عند شاطئ النيل ، ربما عند إمبابة أو بعدها بقليل ، وكانت الحقول الخضراء تملأ المكان من حولي وتفصلني عن مدينة القاهرة التي كانت تبدو بمبانيها العالية وضجتها الملفوفة في سحب الغبار بعيدة وغامضة وغير حقيقية . جلست على الأرض الطينية الملاصقة للنهر وأخذت أرقب الماء في صمت . أرحتُ ظهري على الأرض الرطبة . كانت مريحة وحنونة وقوية . غفلت عيني لحظة أو أكثر ثم استيقظت على خرير الماء . رفعت رأسي ونظرت للماء فلمحت شيئًا يتحرك في منتصف النهر . أخذ يقترب ويتضح . كان هو . هو فخر الدين مرتديا جلبابا أبيض وطاقية بيضاء ، ويبدو من تحت جلبابه سرواله الأبيض وحذاؤه الكاوتشوك . تملكني الفزع حين رأيته وجمدت في مكاني . اقترب أكثر فلمحت في صدره ثقبا عميقا قاني الحمرة ومتجلطًا . اقترب أكثر ونظر إليّ . كانت عيناه مغرورقتين بالدمع ، وبنظرة حزن قاهرة نظر إليّ طويلا ، في عيني ، ثم مد يده إلى الثقب في صدره وأخرج رصاصة نحاسية عيار 16 مل ووضعها في يدي . ارتعشت ، وانقبض قلبي بقوة حين لمست الرصاصة راحة يدي. سال الدمع من عين فخر الدين. سال غزيرا حتى بلل صدر جلبابه . لكنه لم يكن يبكي. كانت ملامحه قد تجمدت على تعبير الحزن القاهر البادي في عينيه . كان وجهه كأنما ينفطر ويسيل في دمعه الذي لا ينقطع . وددت أن أقول شيئًا لكن الرصاصة كانت تحرق كفي كجمرة ونظرة عينيه تملأ المسافة بيني وبينه. مد يديه إلى صدر جلبابه وشقه فبان الهول في جسده، لحم مهترئ من الثقوب كأنما اخترقته عشرات الرصاصات ، وجروح مفتوحة متخنة بدماء قانية وسائلة.

نظرت إليه في هلع وأنا أتراجع للوراء . ستر جسده بجلبابه واستدار عائدا للنهر تاركا الرصاصة تحرق كفي المتصلبة عليه . اختفى شيئًا فشيئًا في الماء ، وعندما استيقظت كانت كفي ما زالت تحرقني من ملمس الرصاصة .

* * *

كان قلبي غائصا ومنقبضا بقوة . هرعت للحمام وأخذت «دشا» باردا وتناولت قهوة ثم نزلت متوجها للمكتب . وطوال الطريق كان تعبير وجه فخرالدين لا يفارق ذهني . وعندما وصلت المكتب أخبرني الساعي أن هناك ظرفا كبيرا وصلني بالبريد ، فطلبت منه أولا أن يحضر لي ملف فخرالدين من الأرشيف ، وعندما جاء الملف فتحته ونظرت لصورة فخرالدين المثبتة في الأوراق . كان نفس تعبير الحزن القاهر مرتسما على وجهه في الصورة. كيف لم ألحظ ذلك التعبير من قبل؟!

أجهز الظرف الوارد بالبريد على ما بقي في نفسي من ثبات . مجموعة من الأوراق الممهورة بتوقيع فخرالدين : مذكرات كتبها في فترات مختلفة من حياته ، خطابات منه إلى أصدقائه ، وخطابات من بعض أصدقائه إليه ، خطابات عاطفية بينه وبين شيرين ، قصص قصيرة ، أشعار ، صور فوتوغرافية ، مستندات رسمية تخصه وتخص بعض أفراد عائلته ، وفوق كل ذلك وقبله علبة صغيرة من الكرتون وجدت بداخلها ظرفًا نحاسيًّا فارغًا لرصاصة عيار 16 مل . عندما لمستها احترقت راحة يدي وغارت نفسي وكدت أغيب عن الوعي .كان ذلك أكثر مما أحتمل !

لملمت أطراف نفسي ، والأوراق ، وهرعت إلى منزلي ، وطلبت إجازة عارضة لمدة يومين . ظللت طوال اليومين قابعا في منزلي منكبا على محتويات هذا المظروف . كشفت لي هذه الأوراق عالما غريبا وشخصا

فريدًا كنت قد بخسته حقه أثناء التحقيق الذي أجريته ، وأدركت أن هذا التحقيق لم يكن سوى قشرة لمسائل أخرى أعمق وأكثر جللا . وكأنني كنت أسير على حبل يتخاطفني نازع إلى أن أقفز إلى هذا العالم المفتوحة لي أبوابه كي أراه وأفهمه . ويدفعني ميراث قديم وطاغ أن أمر على الحبل إلى بر الأمان وأنسى الموضوع برمته . ولكن الإحساس الذي كان قد تملكني أثناء الحلم عاد إليَّ وبقوة منذ اطلعت على الأوراق . كانت هذه الأوراق كأنما تشفي بالحياة ، حياة أخرى مختلفة عن كل الحياة التي عرفتها من قبل حتى خيل إليَّ أنني كنت ميتًا من قبل . وظل ذاك الإحساس يدفعني للمضي قدما ، عبر الحبل ، ويلقي بي داخل هذا العالم الذي أخشاه وأرقبه . وظللت ساعات طويلة أنظر إلى المظروف وأفكر ، ماذا يعني هذا المظروف ؟ وماذا يعني هذا الحلم ؟ ولماذا لم يأتني إلا في ذلك اليوم وبعد شهرين كاملين من إغلاق الموضوع؟ ولمـاذا لم يأتني هـذا المظـروف المريب إلا اليوم ؟ وما معنى كل هذه المصادفة الهائلة بين الحلم والواقع ، وكيف تأتي ذلك ؟ والرصاصة؟ كنت جالسا أمام الظرف الفارغ أحدق فيه دون أن أجرؤ على لمسه ، من الذي أطلقها ؟ وعلى من ؟ وكيف يأتيني أنا هذا الظرف الذي حرق كفي في الحلم قبل أن ألمسه أو أعرف به ؟ كان الخوف يتسلل إلى نفسي ويتملكني حتى شعرت في النهاية أني أفقد السيطرة على نفسي وأني.. وأني .. وأني لم أعد أنا مثلما كنت قبلها بيوم. وأدركت ، والفجر يعلو، أني لن أستطيع أن أستكمل حياتي العادية كأن شيئًا لم يكن، وأن هناك شيئًا غير عادي وراء هذا القتيل المختفي ، وأن الخير أن أبدأ فورا في استجلاء حقيقة هذا الموضوع قبل أن أواجه بمواقف أكثر رعبا من هذا الموقف. وفي الصباح ارتديت ملابسي وتوجهت للمكتب .

- 3 -

كان الأمر واضحا ، لا إعادة فتح للتحقيق في هذه الحادثة . رفض رئيسي المباشر الفكرة تماما ، وكذلك رفضها رؤساؤه . ولم يكن أمامي في حقيقة الأمر اختيار آخر . فلم أكن فعلا في حالة تسمح لي باستئناف العمل مرة أخرى ، فطلبت إجازة طويلة كنت أهدف من ورائها إلى الراحة بعيدا عن القاهرة للتخلص من كافة المتاعب التي تعرضت لها مؤخرا . ودون الدخول في تفاصيل يكفي أن أؤكد أني لم أنعم بالراحة يوما واحدا في أي مكان رحلت إليه ، وأن فخر الدين لم ينقطع عن زيارتي في نومي ولم تنقطع الأوراق التي وصلتني عن إلهاب نفسي وشحذ همتي ، ووجدت نفسي أرحل – دون قصد مني – إلى الأماكن التي كان فخر الدين قد عاش فيها ، وشيئاً فشيئاً انخرطت في البحث في حياة هذا الرجل وفي موته ، ولم أتوقف عن ذلك طيلة عام كامل .

هل كانت حماقة مني؟ لا أدري . ولكني لم أملك لها دفعا . والآن وبعد هذا العام لا أستطيع إلا أن أنشر خلاصة ما توصلت إليه وما وصل إليَّ . أنشره على الملأ ، وفاءً مني لقيمة حياة هذا الرجل وقيمة موته الذي تأكد لي . وفاءً مني لضميري ولضمير كل الناس الذين عرفتهم والذين حمَّلوني مسئولية إبلاغ هذه الكلمة . وستجدون في طيات هذا الكتاب ألوانا شتى من الأوراق ، خطابات ومذكرات ومقابلات واعترافات وغير ذلك ، كتبت أنا بعضها وكتب آخرون بعضها ووصلني بالبريد بعضها .

وغاية ما فعلته أني غيرت في أسماء الناس والأماكن – بما فيها اسمي ووظيفتي – حفاظا على ما لا أملك حق التصرف فيه ، ولكن يبقى جوهر الأشياء لم أمسه ، وأضعه اليوم بين أيديكم إحقاقا وإنصافا .

«عمر فارس»

ماء القلل

«دعني أعانق أبي في
السراب..
فكلُّ سرابٍ أبي..
وكلُّ غيابٍ أبي»

محمود درويش

- 1 -

الوقت فجرا . آخر ظلام الليل وسكون أول الفجر . ديك يصيح من حقل بعيد . نسمات آخر الليل تهز الستارة البيضاء الشفافة التي تلف أعمدة الفراش النحاسية . عائشة تنام على جنبها الأيمن . على شفتيها ابتسامة من رضا مطمئن . جفناها مغمضان على عينين قريرتين ، وبطنها عالية مغلقة على الطفل المنتظر . غطاء أزرق في لون السماء القادمة من خلف الشباك المفتوح . القلل الأربع تترع في نعنشة الصبح المبلل . على فوهاتها أربع ليمونات طازجات . ديك آخر يصيح وزقزقة بعيدة لعشرات العصافير تفرد أجنحتها وتستفتح يومها . تتقلب عائشة على ظهرها لتضع وجهها في سماء الشباك المفتوح .

– هل جاء الفجر ؟

تمتمت عائشة وهي تفتح عينيها لتبصر النور الوضاء يغشاها ، ويتخللها، ويندس في أناملها ، فيملؤها ، ويبيّض جسمها الأسمر ، يغسله ويغمره ، وينساب منه ، وينسحب ، ويخرج من بطنها ، فيعلوها ، ويصعد فوقها ، ويلمع في سماء فراشها ، ويبرق ، ويطير سحابات من الشباك، فيجتاز سماء القرية ، ويعبر الأفق ، ويملأ الأرض من تحته أبيض ، فيحيلها نهارا ناصعا ، وحجارة مضيئة ، وحقولا مشرقة . وترى اعتزال غرفتها ، وطيرانها فوق سحب من راحة ونعومة ، وابتعاد الأرض في لوحة من الضوء، وانشقاق البحر الكبير تعبره فتستحم في ضوء السماء المنهمر الذي يغمرها ويحمل وليدها الذكر عاليا إلى ما لا تدرك ، تطير تطير ، في نهر الضوء تسبح مراكبها الفضية في النغم المنساب على الضفتين ، وتشرب ماءً نقيا فيذهب

ظمؤها . تعلو مقدمات المراكب وتهبط . تشرع رأسها إلى أعلى فتبصر وليدها بجناحيه الأشهبين يمرق بين السحب ، ويأخذ الأرض في عينيه وفي قلبه ، فتسكنه ، ويطوف حولها ، فيسكنها ، ويتمثلها في نفسه فيعيد تشكيل الطبيعة والبلاد فيه ، وينثر من روحه فوقها وداخل جبالها ويعيد قريته وسماءه إلى أمه إلى منزل أبيه إلى قلل شباكها إلى ستارة فراشها إلى رقدتها الآمنة ويرقد بجوارها في لفائف من قماش أبيض ناصع بلا نقطة دم واحدة ، ويفتر ثغره عن بسمة في وجه أمه النائمة وعمه المحدق في غير تصديق وخاله الواقف بالباب وأبنائهما وزوجتيهما القابعتين خلف الباب وأم إبراهيم المهرولة بآنية الماء الساخن التي لم يستعملها أحد ، إلى أهل القرية الذين تجمعوا أمام البيت ضاربين كفًا بكف وهمهمات التعجب التي انتقلت عبر شوارع القرية المنحدرة نحو الطريق السريع ، لسائقي سيارات النقل الثقيل الملتفحين بعباءاتهم والذين توقفوا أمام هذه القرية الصغيرة حين رأوا الضوء الغامر ينبعث من بيوتها ، إلى أهالي القرى المجاورة ، إلى عمه الذي همس : سبحان الله . فتحت عائشة عينيها وقالت :

– أسميه فخر الدين . هذه وصية المرحوم أبيه .

* * *

الشارع ضيق ، وينحدر هابطا من الساحة الصغيرة في التواء حادٍّ نحو الساحة الكبيرة . هنا تنتشر أشعة الشمس والأتربة . شباب القرية يلعبون بكرة مصنوعة من الكُلّة والخيوط . قالبان من الطوب الأحمر المسروقان من قمينة الطوب في أول الحقول يشكلان حدود المرمى . العرق وتسارع الأنفاس والحركة المفاجئة تسيطر على هواء الساحة .

كان فخر الدين يأتي هنا كل ثلاثاء مع أمه حيث تمتلئ الساحة بالفلاحين

الآتين من القرى المجاورة حاملين أقفاص الخضر والفاكهة والطيور ، والبيض المدفون في الردة . خيط طويل من النسوة المتشحات بالسواد يصعدن من الطريق الأسفلت البعيد إلى قلب الساحة . ينحني الخط ويتكثف عند نقاط للحط والتجمع ، وتنتصب العربات الخشبية المغطاة ببقايا أجولة السماد القديمة والجبن الأصفر «بتاع» المعونة. يشتد الزحام عند الضحى وتتدافع النسوة حول عربات الطماطم والخضار . تشتد قبضة فخرالدين على يد أمه الماضية بين زحام النسوة ، ويتخبط بين أردافهن المكتنزة ، يرتطم بصبي صغير يظهر فجأة وسط الزحام دافعا عجلة خشبية مصنوعة من أغطية زجاجات الكولا . لم تكن أمه لتتوقف أبدا عند بائعات الجبن أو البيض والطيور.

عند الظهيرة عرق لزج يغطي جسمه وقدميه اللتين تسرب إليهما التراب. هنا أكمل العمال المتشحون بالبدل الميري القديمة إقامة الصوان الكبير . قماش أحمر غليظ القلب مملوء بنقوش لا تنتهي . صفوف طويلة من الكراسي الخيزران الصفراء ذات المقاعد الجلدية الخضراء . فراشة الحاج يحيى . ومقعد خشبي ذو مساند على الجانبين، مرتفع ، يتوسط الكراسي كلها ويعلو عليها . عاد فخرالدين جريا إلى الساحة الصغيرة، كان دكان خاله الذي يتوسط الساحة مغلقا . قضيب حديدي غليظ يمتد بعرض الباب الخشبي ذي الضلفات الأربعة. اليافطة الخشب القديمة منتصبة عاليا فوق الباب . الشمس تضرب بوهجها في واجهة الدكان تفتت الشقوق التي تنخر في اليافطة منذ زمن . تتقلص عينا فخرالدين من وهج الشمس. يقترب من الباب ويتحسس القضيب الحديدي السامق. سخونته تلسع يديه . هزات جسده النحيل لا تفلح في زحزحة القضيب الرابض

القابض المستميت. يد طرية وطيبة تربت على كتفه المرتجة وتأخذه في جلبابها الأسود . استكانت عينا فخرالدين إلى عيني أم إبراهيم الطيبتين المبللتين. سحبته من يده إلى بيت أمه في آخر الشارع. عندما دلف فخرالدين من الباب لم يجد أحدا .

* * *

يمتد الشارع ضيقًا ثم ينبجس عند ساحة مربعة تصطف على جوانبها محلات البقالة ورائحة الزيت . يضيق الشارع مرة أخرى وينحدر بشدة في التواء نحو الترعة . كان عمه وأبوه هما اللذان ربطا جذعي النخلتين ببعضهما وألقياهما على الترعة جسرا للعابرين ، وكانا هما اللذان مهدا المعبر وسوياه . عبر فخرالدين الجسر حذرا مثلما أوصته أمه وجرى نحو الشط الآخر قرب نهاية الجسر . كانت أصوات الماكينة تأتي إليه منتظمة عبر الحقول . صفوف من النساء الملونة الملابس رابطات المناديل المزركشة على رءوسهن تتراص عند جدران ماكينة الطحين . عمه واقف عند أعلى السير يرقب حركة الماكينة والعمال وهو مشعث الشعر المختلط ببياض الدقيق . يمد يده ليرفع جوال القمح عن ظهر امرأة وينزله بخفة على الميزان ويمضي . كان أبوه يقف دائما عند الميزان ، لكنه ذات يوم مضى داخل الماكينة ليساعد أحد العمال ولم يعد . لم يكن فخرالدين يكره الماكينة رغم ما قاله له عمه من أنها أكلت أباه . كان يشعر بالحنين إليها وإلى أبيه القابع فيها ، في كل مكان فيها . خلف جدار الماكينة يترقرق جدول رفيع من الماء الدافئ الخارج منها ويلتف منحدرا نحو الترعة ، وكان فخرالدين يعجب من هذه الترعة الصغيرة الساخنة .

جاء نداء عمه عاليا وقلقا ونظرته حانية مطمئنة مرحبة بفخرالدين

الجاري نحو ذراعيه اللتين رفعتاه وحملتاه نحو الميزان : «16 كيلو» !
جلس فخر الدين خلف الميزان يرقب أجولة القمح وهي تأتي وتذهب والنساء تلغط والسباب يتطاير من الأفواه في ضحك هازئ و«ربنا يخليك يا عم الحاج» ، وخصم نصف جوال من الأجرة «من أجل عاشوراء ومولد الشيخ المجاور والسيدة والحسين» والعم يضحك ويمضي بين السير والميزان :
- عندما تكبر ، تجلس هنا مكان أبيك عيسى الله يرحمه .

* * *

الصمت قابع ومسيطر على بلاط الفناء ، وعلى الأبواب ، وعلى جدران البيت المتساقطة الطلاء . دخل فخرالدين من الباب الكبير ، أعشت عينيه ظلمة المكان وهدوء الصالة . خالته متشحة بسواد شامل وجالسة ووجها بين كفيها . اعتادت عيناه الظلام قليلا ، وسأل نفسه : «لماذا لا أبكي مثل الآخرين؟» وقف خلف الباب مختبئا : «لماذا لا أبكي أنا أيضا؟» انفتح الباب الخارجي فانسكب ضوء حاد في قلب الصالة. دخل خاله ومن خلفه بدت امرأتان في سواد أسود . دبت خطواتهن ثقيلة على أرض الصالة. انتفضت خالته واقفة لرؤيتهن وانداح الدمع من عينيها ، لملمت ثيابها حولها وأسرعت تفتح باب الغرفة الجانبية ، دخلت وخلفها المرأتان وفي أقدامهن فخرالدين. اختبأ خلف المعطف المعلق على جانب الصوان . هنا كانت أمه تخبئ له الحلوى. هنا كانت أمه تخرج الأطباق ذات الحواف الملونة يوم الجمعة حين تجتمع العائلة للغداء بعد الصلاة . هنا كانت أمه تخرج له صورة أبيه يوم زواجهما وتمسح دمعتين بطرف من طرحتها البيضاء . هنا كانت أمه تصلي جالسة على كرسيها وهي ترمقه بطرف عينها. هنا كانت أمه تقبله، وتضمه ، وتلاعبه وهو يفر منها ضاحكا

ومناديا خاله ومحتميا به. تقدمت المرأة إلى الفراش النحاسي الرابض في قلب الغرفة. تقدمت المرأة إلى الجسد النائم الملفوف في ملاءات بيضاء. كشفت طرف الملاءة فتراجعت خالته وشدت في يدها وهي خارجة يد فخرالدين. أغلقت الباب من خلفها ووقفت إلى جواره . آنية الماء تهتز في الأيدي المهرولة إلى باب الغرفة. ينفتح الباب وتدخل الآنية وتخرج آنية أخرى ويبقى الرجال بالخارج. الخال واقف في الفناء يعبث بشاربه وعصاه تدق الأرض في رتابة . العم واقف بالباب الخارجي يصيح في شجار قصير مع رجل غريب ويناوله أوراقًا مالية . هدأت حركة الماء وانسلت المرأتان خارجتين من الغرفة مشمرتين الساعدين اللذين يتساقط منهما الماء قادتهما أم إبراهيم إلى طريق دورة المياه . كان فخرالدين وحيدا في الصالة المهجورة . نظر إلى الغرفة المغلقة . نظر إلى مقبض الباب الذي يحول بينه وبين الغرفة . امتدت يده إلى المقبض ، فتحه ، ودخل .

* * *

كان خاله يسير مرتديا جلبابه الأبيض ومن فوقه القفطان النبيذي اللون وعلى رأسه طربوش أحمر قانٍ ، تاركا يده اليسرى لتعلق يد فخرالدين الصغيرة في هذه الكف الرائعة الحنو الكبيرة المطمئنة العارفة الواثقة القائدة المحتوية ، ورأس فخرالدين في طاقيتها البيضاء تدور لترى الشارع والصبية والبيوت والرجال العائدين من الحقول حاملين الفئوس، والجاموس الرمادي الضخم الذي يمضغ دائما ، كان فخرالدين يسير ملتفتا وهو يعلم أن يد خاله تقوده إلى شاطئ الفراش العالي النظيف ، وأمه تغدق عليه الماء الدافئ وهو يتملص منها قبل أن يكمل ارتداء ملابسه ليجري نحو خاله وهو يخلع قفطانه ويدلي له بالقروش والعملات الفضية

الكثيرة من جيبه ليلعب بها ويبني بيوتا وشوارع وقرى على ملاءة الفراش البيضاء، ويضع ساعة خاله في سلسلتها وعلبتها والخال يخرج من الغرفة ويعود بأكياس الموز والعجوة البنية ، ويناول فخرالدين الموز . فخرالدين يأكل وهو ينظر في عيني أمه الحانيتين ، تتناول من يده قشر الموز ، وتمد يدها إلى حافة الشباك. القلل الأربع تترع في نعنشة المساء المبلل . على فوهاتها أربع ليمونات طازجات . ترفع الأم إحدى القلل وتناولها لفخرالدين بيديه الصغيرتين ، يمسك لأول مرة بالقلة وحده ، ويشرب منها .

* * *

كان صوت المقرئ يأتي من كل أنحاء الساحة . التفت فخرالدين خلفه فسمع صوت القرآن آتيًا . عاد برأسه للأمام فرأى المقرئ جالسا القرفصاء على المقعد الخشبي المرتفع وسط صفوف الكراسي . نظر فخرالدين في صفوف الجالسين فلم يعرف منهم أحدا . كان خاله وعمه واقفين عند باب الصوان يسلمان على القادمين .

* * *

فناء البيت متسع . بلاط أبيض وبه خطوط حمراء تتلاقى في مستطيل أحمر كبير يتوسط الفناء . في قلب المستطيل وضع فخرالدين طبقا أحمر به قرش مغمور بالماء . جلس فخرالدين أمامه ينتظر أن يتبخر الماء من الطبق بفعل الشمس مثلما قال له أحمد ابن عمه اليوم. في آخر الفناء على اليمين باب خشبي صغير نصف مفتوح ومن ورائه تبدو الدجاجات التي تربيها زوجة خاله وقد احتمت من الشمس . صوت خاله يأتي من الداخل آمرا زوجته بالاطمئنان على وجود ماء للشرب في عشة الدجاج. بقايا حبات الذرة الصفراء متناثرة حول باب العشة . شباكان جانبيان بواجهة

حديدية مزخرفة تطل على الفناء . على حافة الشباك صينية بيضاء بها أربع قلل كبار . يمدد خاله جسده الأسمر على حصيرة صفراء تفترش أرض الصالة مستندا إلى وسادة مستعارة من الكنبة الإسطنبولي العتيقة . مذيع الأخبار يرفع صوته من إذاعة صوت العرب في الراديو الأزرق الملقى على الحصيرة. خلف الراديو ربط الخال بطاريتين كبيرتين «بدوبارة» .

- ادخل يا فخرالدين من الحر .

جاء صوت زوجة خاله من المطبخ . في آخر الصالة برميل بني قديم وكبير به صنبور نحاسي أصفر . تحته طست بني تآكلت حوافه وامتلأ حتى المنتصف بماء وبقايا صابون . يرسل الخال ابنه إلى بيت عم فخرالدين لينادي عليه وعلى زوجته وعلى أبنائهم للغداء . تمر زوجة خاله حاملة أطباق السلطة المزركشة الألوان وأعواد الجرجير الندية الزرقاء الخضرة المنضدة . ينسحب فخرالدين إلى هدوء الصالة ويجلس بجوار خاله الممدد على الحصيرة . طبق السمك البوري المشوي يتوسط المنضدة . قام الخال بقامته الطويلة إلى الباب ، أطل برأسه خارجا فانعكست أشعة الشمس على بياض صديريته . مر خارجا وعاد من حرقة الشمس حاملًا قلة الماء . مرت الدجاجات مسرعات إلى وسط الفناء . مدت مناقيرها في الطبق الأحمر وأخذت تشرب من الماء .

* * *

ظل فخرالدين طوال الليل جالسًا يابسًا في فراش أمه . في عينيه صورة واحدة، وفي قلبه انغرس ناب ذئب . لماذا لا تأتي أمي إلى فراشها؟ لماذا لا تأتي وتضمني في حضنها كي أنام ؟ لماذا لم ترد عليَّ حين كلمتها؟ ولماذا كانت ملامحها حادة هكذا؟ هل كانت غاضبة مني؟ ولماذا كانت بيضاء هكذا؟ ولماذا كانت تلك المرأة الغريبة تحميها؟ وأين ذهبت؟ هل كانت غاضبة مني؟

- 2 -

وضع الراوي ربابته إلى جواره على الأرض الطينية وأسندها إلى ركبته. تطلع بعينيه المتعبتين إلى جذع النخلة المنتصب في الهواء أمام الترعة وسرح بعيداً . علت همهمة الصبية من حوله فأفاق ونظر إليهم وعاد إلى الحديث.

قال الراوي :

«مات أبوه قبل أن يولد ، وتوفيت أمه وهو في الرابعة ، فانتقل عمه وزوجته التي هي خالة فخرالدين للمعيشة في منزل أبيه الكبير، وانتقل خاله وزوجته للعيش في الدور العلوي من نفس البيت. وهذا البيت من أكبر بيوت البلد وأعرقها ، وكان جده هاشم شيخ البلد وكبيرها هو الذي شيده ووضع حجر أساسه بيده، أما عمه فكان يعمل بالتجارة ، كما كان وصيا على ماكينة الطحين التي ورثها فخرالدين عن أبيه . وكان خاله نجارا ، واسمه يوسف، وله دكان بالساحة الصغيرة ، وقد تزوج من امرأة شامية كانت تمر بالقرية ذات يوم مع أهلها، ويقال إنها نصرانية إلا أن أحدا لم يرها تدخل يوما كنيسة أو مسجدا وكانت باشة الوجه تحسن إلى فقراء القرية ويقال إنها مخاوية ، وقد أنجبت له ثلاث بنات وولدًا . وكان يوسف محبوبا من أهل القرية ولم يفت في سمعته زواجه من غريبة ، وكان كريما على قلة دخله ، معطاء على ضيق ذات يده. وكان زواج أولاد شيخ البلد من أختيه عائشة وسكينة علامة على كرم أصله وحسن خلق بيته. وقد كان زواج عيسى أبي

فخرالدين من عائشة في نفس يوم زواج أخيه سليم من سكينة أختها ، وكان عرسا كبيرا سهرت في أفراحه القرية سبع ليال، ونحرت فيه الذبائح حتى لم يبق في البلدة بيت لم يدخله لحم منها، وأعطيت العطايا وصفح عن الديون ، حتى باتت القرية كلها تدعو للحاج هاشم بالبركة ولأولاده بالخير.

وكان للحاج هاشم تجارة وماكينة الطحين وأرض، فلما حضرته المنية أتى بابنيه عيسى وسليم وأعطى الأول الأرض والماكينة والثاني التجارة لما يعرفه فيه من حب لها وولع بشئونها ، وأخرج من المال الكثير لفقراء الناحية . فلما مات عيسى يوم حادثة الماكينة ، عينت زوجته عائشة أخاه سليم وصيا على الماكينة والأرض حتى يبلغ فخرالدين فيسلمه إرث أبيه. وبموتها لم يعد لفخرالدين من يرعاه سواه فانتقل العم وزوجته وطفلاه أحمد وليلى للعيش معه في بيت أبيه وشمله برعايته . أما المرأة المسماة أم إبراهيم فهي مرضع كانت عائشة قد أحضرتها من عزبة نائية من الشرقية وذلك قبيل ولادة فخرالدين ، وظلت تعيش في كنفها وترعى وليدها حتى توفيت عائشة ، وقيل إنها قد حز في نفسها موت ربيبتها فرحلت عائدة لعزبتها ، وقيل : إن العم سليم هو الذي طردها ، لأن زوجته لم تكن تحبها، وقيل إنها أرادت العودة إلى العزبة لأن لها بها غنما . وعلى أية حال فقد ظلت أم إبراهيم تعيش في عزبتها في الشرقية ولم تعد لهذه القرية قط.

ولما بلغ فخرالدين عيسى السادسة من عمره ، ناداه عمه ، وقال له إنه قد صار رجلا ، وعليه أن يعرف كالرجال الخشونة والجلد،

وأن يتذوق طعم الكد واحتمال المشاق كي يصير جديرا بحمل اسم أبيه وجده ، وأن يتعلم حسن التقدير ليعرف كيف يتصرف في أرضه الموروثة عن أسلافه. وأخبره أنه قد أعد العدة له كي يرحل في الصباح إلى نواحي الشرقية لدى أم إبراهيم ليخرج معها في رعي الغنم . وَدّعَ فخرالدين خاله يوسف وزوجته وأبناءهما، وودع خالته وعمه سليم وابنيهما ، وعند الفجر أركبه عمه في سيارة أحد السائقين من أبناء القرية ليحمله إلى الشرقية .

في آخر الحقول ، عندما تصفر الأرض الطينية شيئا فشيئًا ، وتضيق الطرق الأسفلتية وتتعرج ثم تختفي ، وتتناقص الأشجار ويعلو الحر ، وتخضر العيون ويصفر الشعر وتبيض البشرة ، تقع عزبة أم إبراهيم . عند هاويس كبير على ترعة فياضة تحمل الماء العذب إلى جبل سيناء. في آخر الشرقية على حافة الوادي الأخضر والصحراء ، خرج فخرالدين يهش بالعصا على الغنم. كان القطيع كبيرا ولكنه استأنس بفخرالدين واستسلم له سريعا. أقسمت أم إبراهيم أنها لم تر القطيع مطيعا هكذا في أي يوم من أيام حياتها ، وكانت أسعد لحظات فخرالدين تلك التي يقضيها في صحبة أم إبراهيم بعد «العصاري» حين تستريح الغنم في فينة هاربة من الشمس، ويتناولان طعامهما وهي تقص عليه ذكرياتها في بيت أبيه وأمه. حكت له عن أبيه عيسى ، عن شهامته وفروسيته ، عن سمرته الصعيدية ولاسته البيضاء ، عن عمله في الماكينة وعن حبه للناس وللفلاحين في أرضه ، عن حبه لأمه وحنوه عليها ، عن حبه له ومداعبته إياه وهو جنين في

بطن أمه . كانت أم إبراهيم تقضي «العصاري» كلها في إعادة نفس القصة على فخرالدين دون أن يمل أو تفتر رغبته في الاستماع.
وفي الصباح والظهيرة كانت أم إبراهيم تعلم فخرالدين الرعي وأصوله ، والغنم وأحواله ، وأنواع المراعي ومواقعها ، ومواطن الماء ، والحذر من الذئب والرفق بالكلب ، وحب الأغنام والحزم معها ، ومواعيد التكاثر ورعاية الأمهات ، وقيادة القطيع واحتمال انتظار الشاردين منه حتى يعودوا ، والصبر على المرعى النابت حتى ينمو كلؤه ، والحرص على الماء في وفرته، ويقظة العين وإرهاف السمع وإعمال الحس ، وحلب اللبن وجز الصوف، ومعاملة التاجر والفطنة لحججه ، وهدوء النفس في الحر ، والتنامها في البرد . وفي الليل ، كان فخرالدين يبيت في خيمة في أطراف المراعي قرب الصحراء، وعرفت عيناه التعلق بالنجم في الليل الصافي وبخط الضوء في الغيم ، واكتشاف الروح وولادة القلب في الهدأة، وولادة الشمس من بطن الفجر ، ومواعيد الأهلة وحركة النجوم ، وجمع الحطب وإشعال النار، والاطمئنان لنباح الكلب .

خمس سنوات قضاها فخرالدين في كنف أم إبراهيم مرضعته ومربيته، وفي صحبة الغنم والصحراء ، تهذبت طباعه، ونقت نفسه ، وسمت مراميه، وتبدلت حياته .

وفي ليلة من ليالي الشهر الأخير من إقامته معها ، التقى بالشيخ عمر. «ونحن لا نعرف من هو هذا الشيخ ولا من أين أتى أو إلى أين ذهب، لم نره، ولم يره أحد نعرفه سوى فخرالدين نفسه ، ولا نعرف حتى اسمه الكامل أو من أي القرى قد خَرج».

صمت الراوي لحظة ، ومد بصره داخل قرص الشمس فرانت حمرة على وجهه، ورقت تعابيره وراق صوته ونَغَم ، وفاض نور في وجهه ، ونطق بصوت مغاير كما لو كانت روح قد تلبسته :

«كانت الليلة باردة ، والريح هائجة ، والأغنام خائفة مستجيرة، والكلاب رفعت آذانها وذيولها ، وكانت السماء غائمة والنجوم مختفية، وبقايا الهلال تظهر وتختفي . احتطبت ، لكن الحطب كان رطبا فلم تشتعل لي نار . أوجست خيفة واستعذت بالله ، وصرت أسرّي عن نفسي بعد الغنم والاطمئنان عليها، وقدتها إلى حضن ربوة أعرفها غير بعيدة عن مستقرنا لتحميها وتحميني من ليلة لا أعرف مستقرها . وبينما كنت أوغل في السير، أبصرت نارا قوية على مبعدة ، فاستغربتها في هذه البقعة النائية وعلمي ألا بشر بها . فكرت ، واستخرت ، وتوكلت، وشدت إليها المقصد والطريق . طال بي وبالغنم المسير دون أن أدركها مع رؤيتي لها واشتمامي لدخانها . سرت حتى بلغ بي التعب مبلغا وظننت بنفسي المرض والتيه والخيالات ، فتوقفت وجمعت الغنم حولي وارتكنت إلى صخرة ونمت عليها. نمت ساعة أو بعض ساعة ، ثم استيقظت على دفء كاسح ، وحر لافح، فتحت عيني ففشيهما ضوء عظيم، دعكتهما بكلتا يدي وأعدت النظر، وما هي إلا لحظات حتى رأيت في النور وجها نقيا كأنه هو النور نفسه، بلحية بيضاء وعينين طيبتين، وفي يده عصا كأنها عصاي. أشار بها لي أن اتبعني فتبعته خائفا مأخوذا ، حتى صرنا على حافة النار فأجلسني، وكنت أرتجف رغم الحر من حولي، كانت الغنم قد

اختفت فزاد وجلي ولم أنطق من الرهبة . مد يده البيضاء وربت على كتفي وقدم لي شرابا شربته فوجدت به حلاوة ودفئا. هذا من روعي بحديث عذب لم أسمع من قبله بمثله أبدا ، وأخبرني أن اسمه الشيخ عمر وأنه كان يتتبعني منذ جئت لأعيش في كنف أم إبراهيم، وقال لي إنه سيكون لي شأن عظيم ، فاحمر وجهي من الخجل، فربت على كتفي ثانية وقال : لا تخجل بل ارتجف من الوجل ومن هول الأمانة ، فوجمت، فقال لي : إنه كان يرقبني وإنه كان يعلم بمجيئي وينتظرني . قلت له : علك مخطئ، فقطب جبينه وقال : يا ولدي، قد قضيت حياتي كلها أتعلم كيلا أخطئ حين يحين الأوان ، قلت: وهل حان؟ فقرأ عليّ من القرآن سورا ، ثم قرأ عليّ كلاما آخر أجهله، وظل يقرأ عليّ حتى اطمأنت نفسي وأوشك الفجر أن يعلو . قمت مستأذنا فأذن لي ، وأخبرني أنه سيعود للقائي ، ربما هنا وربما عند عودتي لعائلتي حسب مشيئة الله . مشيت وأنا حائر متسائل ، وظللت أسير حتى أدركت مستقري الأول عند الصخرة فوجدت الغنم نائمة مستكينة ، والريح قد هدأت، والبرد قد ذهب، والنجوم قد لمعت ، فربتُ على ظهر كلبي، وظللت أستعيد ما قاله الرجل حتى شقت الشمس بطن السماء».

* * *

«للأرض عند الغروب رائحة ، وللماكينة القديمة رائحة القمح المطحون حديثا ، ولقمائن الطوب في آخر احتراقها رائحة ، ولأقراص الجلة المتراكمة على سطح البيت المجاور رائحة ، وللقش على سطح بيتنا رائحة ، للشمس حين تضرب فناء الدار في القيلولة رائحة ، وللحقل في أول النهار رائحة .
يا أحب أرض الله إلى قلبي ؛ ما هجرتك إلا مكرهًا ».

«من أوراق فخرالدين»

* * *

قال الراوي مستطردا :

«عاد فخرالدين إلى منزل أبيه في أول شوال وقد أتم الحادية عشرة من عمره وصار صبيا يافعا ، بهي الطلعة . عاد فوجد أن خاله وزوجته قد حَزَما حوائجهما واصطحبا عيالهما وهجرا المنزل والقرية ، ولما سأل لم يأخذ ردا شافيا ولم يعرف لهذا الرحيل سببا . حزن فخرالدين حزنا شديدا إذ كان شديد التعلق بخاله يوسف وزوجته الشامية . والحق أن خاله كان قد اختلف مع أخته سكينة خلافا حادا حول المنزل ، إذ كانت الخالة قد طلبت منه أن يترك الدار ويبحث لأهله عن دار أخرى يسكنونها؛ لأن هذه الدار إرث لفخرالدين وعمه مناصفة ، وكان يوسف قد استقر فيها أصلا بناء على دعوة عيسى وهو صاحب الدار الأصلي الذي ورثها عن الجد ، لكن سليم لم يعجبه استمرار يوسف وأهله في العيشة في الدار بعد وفاة عيسى وعائشة ، وخاصة أنه هو ، وليس يوسف ، الوصي على إرث فخرالدين ، فطلب من زوجته أن

تكلم أخيها في ذلك. فلما كان ، وقالت سكينة ذلك لأخيها ، فتّ ذلك في عزمه وأقسم ألا يبيتن ولا أي من أهله لا في البيت ولافي القرية كلها، وقام فَلَمْلَم حاجاته وحاجات أهله وباع دكانه لصبيه ورحل في نفس الليلة ولم يعد بعد ذلك إلى القرية أبدا .

وقد ظل فخرالدين يجهل هذه القصة حتى أخبره بها خاله بعد ذلك بعدة أعوام ، وقد حزن ساعتها فخرالدين حزنا مضاعفا على رحيل خاله. وبرحيل الخال، انتقل العم سليم للعيش في الدار كلها ، فخصص لفخرالدين الغرفة التي كانت لأمه عائشة ، وصار ينام وزوجته في الغرفة العلوية التي كانت ليوسف ، وخص ابنته ليلى بالغرفة التي في مواجهتها وابنه بغرفة أخرى في الطابق العلوي . وقد سعد فخرالدين بانتقاله إلى غرفة أمه القديمة أيما سعادة ، وكان فراشها ما زال بها لم يمس فأبقى عليه ، ووضع في النافذة صينية بها أربع قلل ، على فوهاتها أكواز من الألومنيوم بكل واحدة منها نصف ليمونه خضراء . كانت هذه الغرفة هي أولى الغرف من ناحية الباب الخلفي وأقربها للشارع ، فسهل ذلك لفخرالدين الخروج والدخول في هدوء ، وكان يحب ذلك .

عندما عاد فخرالدين للقرية ، أرسله عمه إلى الكُتّاب ليتعلم القرآن، فوجده شيخ الكُتّاب حافظا لمعظمه فأكبر في الصبي ذلك وأسر به إلى عمه وأوصاه بالفتى خيرا وأشار عليه بأن يدخله المدرسة ، ولما كان قد تجاوز سن الدخول فقد ألحقه عمه بالمدرسة «من منازلهم» مثلما يسمونها، وأحضر له مدرسا يقوم على تعليمه بالدار . وقد أظهر الفتى نبوغا بهر مدرسه، فجعل

يأخذ كل سنتين في سنة حتى اجتاز الشهادة الابتدائية وهو في الرابعة عشرة من عمره. ومن العام التالي، اختلف فخرالدين إلى المدرسة الإعدادية الواقعة عند أطراف القرية خلف الوحدة المجمعة، وكان يختلف إليها أبناء القرية كلها.

كانت ليلى في الرابعة عشرة من عمرها حين عاد فخرالدين للقرية،وكان جمالها آخذا في البزوغ، وحلاوة روحها تفوح في الدار كلها حبورا ولطفا. كانت كريمة النفس تعف عن الصغائر، تتوق روحها للتحليق مع حمام البرج في سماء الحقول والبيوت الصغيرة في الصباح وعند العصر. كانت تكتب الشعر وتقرأه لفخرالدين، وتريه كتب الأدب والنصوص التي تأخذها في المدرسة، وتقرأ له فصولا من الروايات التي تشتريها خلسة من بائع الجرائد، وتسبق - أمام التليفزيون - الحوار بين عبد الحليم حافظ ونادية لطفي في رحلة البحر الأحمر في فيلم الخطايا، وأغنية ليلى مراد عند الصخرة في مرسى مطروح، وكانت تقول له أحيانا إنها ستصبح ممثلة، وأحيانا شاعرة، وأحيانا ستدخل الجامعة وتصبح أستاذة. وكان فخرالدين يحب الاستماع إلى حديثها العذب، ويقضي العصاري جالسا معها في الصالة العلوية المطلة على فناء الدار، يتبادلان الحكايا، ويرقبان رزق، ذلك الجار القريب الغريب، وصوان خالته الممتلئ بالأكواب الزجاجية المزركشة بالرسوم والألوان، والأطباق الخزفية البيضاء الملونة حوافها بماء الذهب. لم تكن ليلى ولا فخرالدين يعرفان هذا الجار، هو ابن الحاج أحمد البقال، ولم تكن أم ليلى

أو أبوها ليسمحا لهما بالاختلاط بهذا الولد الجريء العينين والذي قذفهم مرة بالطوب من فوق سطح دارهم فكسر زجاج نافذة العم سليم وحضر أباه واعتذر وأحضر معه رزق ابنه ليعتذر، فلما رفض الولد أن ينطق بكلمة لم يجد الأب المُحَرج مخرجًا سوى أن يصفعه أمام العم سليم - وأمام فخرالدين وليلى المختبئين خلف الباب - ولما انصرف الرجل وولده أجهشت ليلى بالبكاء.

كان فخرالدين يشب على العلم ومكارم الأخلاق، عرفه مدرسوه وزملاؤه بفطنته، وذاع أمر نبوغه في الناحية كلها وبين شباب القرى الأخرى، وعرفه أهل قريته بحسن خلقه ورجاحة عقله. كان تقيا في إباء، وطيبا في غير ضعف، لم يغش أحدا قط ولو في لعب، وكان على حداثة سنه مبجلا بينهم، يلجأ إليه شباب القرى للمشورة والصحبة الطيبة، ويحبه رجالها لأدبه الجم وعفته، ويتوسم فيه شيوخها الخير. وحين أتم السادسة عشرة وصار على مشارف دخول المدرسة الثانوية، كانت مكانته تضعه في مصاف الرجال.

كبرت ليلى وصارت عروسا، واحتجبت خلف شباكها عن العيون، وكان أحمد أخوها قد سافر منذ زمن إلى السعودية للعمل في حقول النفط، ولم يعد فخرالدين يصعد للطابق العلوي منذ نبهته خالته أن ابنتها كبرت ولم يعد يصح أن يجلسا معًا بمفردهما. كان الصمت رانيا على البيت القديم؛ فخرالدين في جلسته المحببة في غرفته يقرأ بجانب الشباك وصينية القلل وليلى الهادئة في غرفتها المغلقة دوما والعم في الخارج يرعى تجارته والأرض

والخالة تنظم شئون بيتها . في البيت المقابل؛ رزق صار رجلا ، يغيب في المدينة طوال الأسبوع ويعود مساء الخميس لبيته ، ويلقى - في الطريق - بنظرتين حادتين على شباك موارب في الطابق العلوي .»

عزف الراوي على ربابته قليلًا ، حتى ضج الأطفال المحيطون به وعلت أصواتهم مطالبة ببقية القصة . وضع الراوي الربابة جانبًا واستطرد :

«جلس فخرالدين على الكنبة الإسطنبولي في صالة البيت العلوية . منذ سنوات لم يجلس هنا . نسمات الهواء لا تأتي من الشباك مثلما كانت تفعل. صينية القلل الموضوعة على الإفريز جافة لا ماء فيها . جلس عمه قبالته مقطبا ، يعبث في شاربه ويدق الأرض في قلق . شرب فخرالدين الشاي ونظر إلى عمه في تساؤل . تثاءب العم ثم شرع في حديث طويل عن هاشم جد فخرالدين وعن أبيه عيسى وعن الميراث والتجارة والأرض والماكينة والدار .الأرض جدباء والماكينة متهالكة والبيت عتيق. عن المصاريف التي تكبدها لتسييرها ولتربيته ، عن إصراره على تنشئته رجلا صلبا وليس فتى ناعما مرفها ، وأن ذلك هو السبب الذي جعله يرسله للعيش مع أم إبراهيم برغم ألم الفراق الذي تحملته خالته لغيبته ، وأن ذلك هو الذي جعل منه اليوم رجلا يحترمه الجميع ويحبونه ، وأنه هو أيضًا يحترمه ويحبه.

- عما قريب تبلغ الثامنة عشرة ويصير من الواجب عليّ أن أسلمك أرضك وميراثك ، ولذا أريدك أن تبدأ من الآن في أن ترى بنفسك كيف أدير تجارتنا وأرضنا ، وأريدك أن تعرف أن الأرض

واحدة والماكينة واحدة والتجارة واحدة ، وطول عمرهم مشاكلهم متداخلة ومصاريفهم واحدة ، وأنا لم أحسب قط ولم أكتب قرشا واحدا صرفته هنا أو هناك . الغرض؛ المال مالنا جميعا ، ولا داعي لأن نخرج ما عندنا لغيرنا . أزوجك ليلى ونحفظ خيرنا بيننا .

أُخِذَ فخرالدين وتلعثم ، ثم قال لعمه في أدب : إن ليلى أخته، وإنها أكبر منه ، وهو لا يفكر في الزواج الآن ، أما الميراث فما زال أمامه سنين ولا داعي للعجلة ، وليلى يرزقها الله بابن الحلال .

تمتم العم في ضجر :

- يا فخرالدين، دعك من هذا الكلام، وفكر فقط فيما قلته لك .

قام العم واقفا فقام فخرالدين مستأذنا ، وحين غادر الصالة لمح ليلى عند أول سلم السطح وكانت تبكي بحرقة .

كان فخرالدين دائم السهر إلى طلوع الفجر ، وعندها يغادر الدار متوجها للمسجد الصغير في آخر الشارع ليؤدي الصلاة ويعود متمهلا للدار وينام . وفي الشهر الأخير ، كان يخيل إليه سماع صوت خفيف قرب الباب الخلفي ليلا ، وأصوات أخرى من الغرف المقابلة ، وعندما كان يخرج من غرفته ليرى ما الأمر لم يكن يجد شيئًا . كانت الغرف المجاورة كلها مغلقة منذ زمن ومفاتيحها مع خالته ، فأصبح يستوثق كل ليلة من إغلاق الأبواب الخارجية للمنزل ، ولكن الأصوات لم تنقطع. وذات ليلة كان الصوت آتيا واضحا من إحدى الغرف ولكنه لما حاول أن يفتحها لم تنفتح .

* * *

قال لي السيد العطوي البقال :

- طبعا كنت أعرفهم حق المعرفة ، أبا عن جد ، وهل يوجد بالقرية كلها من يجهل عائلة الحاج هاشم ؟ لقد كان شابا ممتازا رحمه الله، وعائلته كلها عائلة فاضلة كالثوب الأبيض . الله يرحمه . لم أعلم بوفاته إلا منك .

* * *

قال الراوي :

«حين علم فخرالدين بأن ليلى قد أخطأت ، لم يصدق أذنيه، ولما أيقن أنها قد فرطت في عرضها من فرط حبها لرزق كاد يفقد صوابه ، وزين له الشيطان قتلها، وصور له أن الشرف الرفيع لا يسلم من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم ، لكنه لما استعاذ بالله استعاد هدوءه ، وتوضأ وغمس رأسه في الماء البارد طويلا، وأمعن في التفكير ، خلص إلى أن سلامة شرفها في زواجها من جارها ، وعاد باللائمة على خالته التي كانت تعلم ميل ابنتها لجارها ورفضها تزويجها منه . وهدأ من روع ليلى ووعدها طيبا، وأرجعها عما كانت قد انتوته من الفرار من الدار والقرية كلها ، وقال لها : لا نداري الخطأ بخطأ أفدح منه . ولمّا حدَّث خالته في ذلك ابتدأ بأنه لا يطمع في الزواج من ليلى وأنه يشعر بميلها لشخص آخر . فلما ارتبكت خالته وقالت له : إن الله حليم ستار، كاد فخرالدين يغشى عليه ، ودارت به الأرض ولم يصدق أذنيه ، ولما مضت ثوان استجمع فيها شتات عقله نظر إليها في هلع وسألها إن كانت تعلم ما حدث ، فردت وهي تنظر إلى الأرض: أن ما حدث قد حدث وأن العائلات الكبيرة تداوى أخطاءها بنفسها ولا تترك للشامتين

فرصة للانتقاص منها ، وأن خطأ ليلى خطأ إن تداركناه وعار إذا ذاع أمره، وشرف العائلة معلق الآن برقبتك يا فخرالدين، أنت الذي تستطيع إنقاذه بزواجك من ليلى ، بنت عمك وبنت خالتك معا ، لحمك وعرضك ، وأنت الذي تستطيع تلطيخنا كلنا بالعار و«مرمغة» شرفنا في الطين .

- ولكن ما تقولينه يا خالتي ليس له من الشرف ولا حتى اسمه، هذا غش وتدليس ، بل وحرام ، ولم كل هذا ؟ والمخطئ موجود في أيدينا ومستعد لإصلاح خطئه ، بل يتمنى أن نزوجه من ليلى.

- يتمنى مثلما يتمنى ، لكنه لن يأخذها إلا على جثتي ، وأنت؟ هل تقبل أن نعطي خيرنا هكذا لغيرنا ؟ يأتي هذا الذي لا أصل له ويأخذ الأرض والتجارة على الجاهز هكذا ؟

نظر فخرالدين إليها في ذهول ، وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولما سألها إذا ما كانت تظن أنه سيقبل بهذه اللعبة الوضعية ولن يخبر عمه بالحقيقة ، أجابته في دهشة «ولكن عمك يعلم طبعا بما أقول، ظن فخرالدين بها الجنون .

قال ريتشارد لصلاح الدين : «ولكنك لا تعلم يا سلطان المسلمين؛ الفلاحون في الحقول ، الحطابون في أعالي الجبال، والعجائز حول نارالمدفأة في ليالي الشتاء ، كلهم ينتظرون عودة ريتشارد بمفاتيح أورشليم» فرد عليه سلطان المسلمين: «ريتشارد! إنك تبحث عن مجدك أنت ، لا مجد الصليب» ، عندها التفت العم سليم إلى فخرالدين الجالس أمامه . نظر مرة أخرى إلى التليفزيون فاستطرد فخرالدين في الحديث :

- إنني وأنا أحدثك اليوم يا عمي، أحدثك وكأنك أنت أبي وأنا ابنك، بيتنا واحد، وجدنا واحد، وشرفنا واحد.

قاطعة سليم :

- لا داعي لهذه المقدمات يا فخر، ادخل في الموضوع.

صمت هنيهة ثم أكمل وهو يتحول بوجهه ناحية التليفزيون :

- أنا أعلم كل شيء.

احتقن وجه فخر الدين ونفذ السيف الملوث في الجرح المفتوح، الآن أدرك أن خالته ليست مجنونة، أو أنها ليست الوحيدة المجنونة.

حاول التماسك حول الجرح وتمتم مع ريقه الذي لا ينبلع :

- ومع ذلك تريد تزويجها لي ؟

- طبعا.

- ولكن كيف ؟

- هي بنت عمك.

- ولكنها تحبه هو. أعطت نفسها له هو. سلمت شرفها له هو.

- هو لا يريد سوى الأرض والتجارة.

- ولكن العرض ؟ العرض يا عمي ؟ أأنا الذي يقول لك هذا ؟

- الأرض هي العرض يا بني. وثق أن أحدًا غيرنا نحن الأربعة لا يعرف ولن يعرف بالموضوع.

- وربنا ؟

- إن الله حليم ستار.

- ولكن الستر موجود، وهو يريد الزواج منها، فلم لا تزوجها له ؟

صمت العم. سألت فرجينيا في شماتة : «لويزا، الفارسة

الصليبية وقائدة الهوسبتاليين، تُهَرِّب فارسا عربيًّا؟ ما الداعي يا لويزا؟ ما الداعي؟

- لا داعي لفتح هذا الموضوع ثانية يا فخر، فلن أزوج ابنتي لهذا الولد «الهلفوت»، ويدي لن أضعها في يد ناس بهذه الوضاعة.

- خذوهم فقراء يغنكم الله، ثم إننا لسنا في وضع من يختار.

- نحن دائما في وضع من يختار، ولا داعي لأن تلقي عليَّ دروسا في الحياة فأنا أعلم بها منك. هذا الولد لن يتزوج ليلى ما دمت حيا.

- وليلى؟

- ليلى تسترها أنت بإذن الله، باسمك، بأرضك ومالك وبكرم أصلك.

- ولماذا تظن أني سأقبل الاشتراك معكم في هذا؟

- لاحل آخر أمامك.

صمت الرجلان طويلًا، وهمس صلاح الدين في وقاره: «يستطيع الفارس عيسى أن ينصرف».

* * *

«كانت الصدمة أقوى مما يمكنك تصوره. كان ذلك فوق طاقة احتمالي. هل تتصورين؟ في السادسة عشرة من عمري وأجد نفسي فجأة في قلب مستنقع بهذه العفونة؟ وكل الذي ظننته صنما تحطم، وكل الذي ارتكنت إليه تهاوى، وحاولت. لم أكن أستطيع لا قبول ذلك ولا منعه. وكأنني أبتلع قنبلة تنفجر في داخلي».

«من رسائل فخر الدين»

* * *

قال الراوي:

«لكن فخرالدين لم يسكت، وقال لعمه إنه لن يسمح لهذه المهزلة أن تتم وهو حي يرزق، ولن يترك الشرف الحقيقي يداس من أجل شرف مزيف العار منه أشرف، وفي الليلة ذاتها ذهب إلى رزق وحادثه في الأمر طويلا، ووجد فيه شهامة وحبا لليلى أكبرهما فيه ، وكان نادما على ما صار منه ، فقال له فخرالدين ، وقت الندم قد فات والآن حان وقت العمل . واتفق معه أن يلقاه عند أول الطريق السريع عند الغروب ومعه ليلى ويذهب بهما للمركز المجاور ويزوجهما هناك. وعندما عاد للمنزل قال لليلى أن تعد نفسها للأمر فبدا الارتباك عليها جليا مما أدهشه وكان يظن أنها ستفرح، إلا أنه عزا ذلك للخوف فطمأنها ووعدها خيرا. وعند الغروب انتظر نزول ليلى عند الباب الخلفي مثلما اتفقا فلم تأت . ظل منتظرا قرابة الساعة ثم تسلل صاعدا نحو غرفتها . على رأس السلم وجد عمه بقامته الفارهة يملأ المدخل، وفي يده طبنجته المرخصة مشهرة . وقف فخرالدين أمام عمه. هز العم الطبنجة وقال:

- والله لو عدت لمثلها لقتلتك أنا بيدي .

في الليلة التالية رحل فخرالدين إلى حيث قالوا له إن خاله يقيم منذ هجر القرية . ولقيه بين الأحضان والعتاب والشوق. قص عليه فخرالدين ما كان من أمر ليلى ورزق وعمه وخلافه، فتجهم وجه يوسف وأطرق طويلا. فلما سأله فخرالدين ما العمل؟ أسهب يوسف في ذم جشع سليم وسوء أخلاقه ،وهو ما بهت

على سكينة وأفسدها، فلما سأله فخرالدين ما العمل؟ قص عليه يوسف قصة خروجه وزوجته وأبنائه ليلا من القرية، والرحلة المضنية التي تحملوها، والخسارة التي تكبدها في تركه لدكانه وبيته وكل شيء كان له، والمشاق التي واجهوها حتى استقر بهم الأمر هنا، وكل ذلك من أجل الابتعاد عن جشع العم الذي أعماه.

فلما صمت قال له فخرالدين:

- ولكن ما العمل يا خال يوسف؟

فأطرق وقال:

- ما العمل؟ العمل عمل ربنا.

ولما كانت الليلة الثالثة، صلى فخرالدين العشاء ومكث بالمسجد حتى غلقت أبوابه، فخرج للحقول مهموما يكاد عقله ينفجر من الحيرة والغيظ والعجز، ويكاد قلبه يسيل من الهوان والحسرة وصعقة المفاجأة. أو غل فخرالدين في المسير حتى نال منه التعب فاستند إلى جذع نخلة ونام. نام ساعة أو بعض ساعة، ثم استيقظ على دفء كاسح، وحر لافح، فتح عينيه فغشيهما ضوء عظيم، دعكهما بكلتا يديه وأعاد النظر، وما هي إلا لحظات حتى رأى في النور وجهًا نقيًا كأنه هو النور نفسه، بلحية بيضاء وعينين طيبتين، فكبّر فخرالدين وهلل، وسعى للشيخ فأمسك بطرف جلبابه وتعلق به، وقال له: أين أنت يا شيخي ومرشدي؟ خلتك قد نسيتني أو أهملت أمري، والله لو لم تأتِ إليَّ الليلة لزاغ قلبي وضللت وضاع أمري، فأهدني للطريق وساعدني.

فابتسم الشيخ حتى بانت أسنانه البيضاء، وقال: هدئ من روعك

يا عبد الله وأمل فيه خيرا . قال فخرالدين متعجلا : ما العمل يا شيخي ؟ فقطب الشيخ عمر حاجبيه وقال : العمل عمل ربنا يا بني، وما على الرسول إلا البلاغ ، وقد بلغت . قال فخرالدين : ولكن كيف أترك هذا الإفك يجري تحت سمعي وبصري وبعلمي؟ فقال الشيخ : يا بني ما على الرسول إلا البلاغ فقل : اللهم إني بلغت اللهم فاشهد . قال فخرالدين متوسلا : ولكنهم أهلي وهذا عرضي وبيتي الذي انقض فوقي منهارا فجأة . قال الشيخ : اصبر وادع ربك يكشف عنك الغمة . قال فخرالدين: دعوت ومازلت أدعو ولكن قل لي ماذا أفعل؟ قال الشيخ: يا بني لا يأخذنك بنفسك الغرور، إنك لن تهدي من تحب ولكن الله يهدي من يشاء، وقد فعلت ما كان بوسعك أن تفعل والباقي لا دخل لك فيه . سال الدمع من عين فخرالدين وخنقه وهو يقول للشيخ : كيف لا دخل لي فيه؟ ماذا أفعل أنا الليلة وماذا أفعل غدا وهذا أمر منكر يجري من حولي وبي ؟ قل لي ما العمل ؟ نظر إليه الشيخ وغمقت نظرته ولملم جلبابه الأبيض الناصع حوله وتباعد مسرعا ، وظل فخرالدين جاثيا على ركبته حتى امتلأ جلبابه بالطين والماء، .

* * *

مال السيد العطوي عليَّ في خبث وقال :

– طالما سعادتك تعرف القصة كلها فلم تسأل ؟

قلت إني سمعت روايات كثيرة لما حدث ولم أتبين الحق منها من الباطل.

ابتسم وسرح بنظرته بعيدا لحظة ثم قال :

– معك حق ، فهذه البلدة لا يشغلها سوى الإشاعات والكلام . أقول لك الحق ؟ لقد كنا ننسى ما حدث فعلا من فرط ما أثير حوله من إشاعات .

حتى أنا الذي شهدت الأحداث كلها عن قرب ، ساعات أسأل نفسي إن لم أكن قد خلطت بعض ما حدث بهذه الأقاويل .

ظل السيد العطوي ساهما هنيهة ثم اعتدل في وقفته ونظر إليَّ وابتسم في خبث من جديد وقال :

- الحقيقة أنه لما أصر الحاج سليم هاشم على تزويج ليلى إلى فخرالدين حصل بينهما مشادة ، وهددا بعضًا ، وانتهى الموضوع بأن أخذ فخرالدين قرشين من عمه ، أعني جزءًا من ميراثه ، وترك له الدار والأرض والماكينة والقرية والجمل بما حمل وسافر ، ومن يومها لم يعد للقرية قط.

* * *

قال الراوي :

«فلما كانت الليلة الرابعة ، قصد فخرالدين إلى غرفة عمه وطرق عليها طرقا شديدا ، فخرج العم منزعجا مدهوشا ، فقال له فخرالدين والشرر يتطاير من عينيه إنه قد انتوى أمرا ولن يرجع عنه ؛ فإما أن يعدل عن رفضه تزويج ليلى ورزق ويعود للحق ، وإما خرج في التو واللحظة من البيت ليطوف شوارع القرية وحواريها حاكيًا القصة لكل أهلها ولا يترك صغيرا أو كبيرا إلا ويفضحه عنده ، وأن الفضيحة أهون عليه من أن يغمس وجهه في الرجس الذي ينتويه العم وأهله. فأقسم العم برأس أبيه لئن فعل ليخنقنه بيديه الاثنتين ، فأقسم له فخرالدين أنه فاعلها إن لم يرجع عن غيه ، فحلف العم بالطلاق ثلاثا أنه لن يزوج ليلى من رزق، ثم دفع فخرالدين على السلم ودخل غرفته وأغلق عليه الباب ، فما كان من فخرالدين إلا أن امتطى بغلة وطاف بالقرية كلها وأهلها من

ورائه يقص عليهم قصة العم الفاجر وظل يعيد القصة حتى آخر الليل ، والناس بين مُنكر ومُستنكر، حتى عاد الناس إلى منازلهم ، فقصد فخرالدين إلى مكان قصي عند الترعة، وظل يبكي حتى قرب طلوع الفجر، وكانت أشباح مظلمة تتحرك في أفق طلوع خط النور .

وعندما كان المؤذن يقيم الصلاة رأى المصلون بغلة آتية من ناحية الغيطان تحمل جسدا ملقى ، يسيل الدم من تحت عينه اليسرى على وجنته ويلطخ جلبابه الأبيض، وفي وجهه ورقبته طعنات غائرة وجروح. نظر المصلون إلى جثة فخرالدين

وكادوا ينكرونها من هول التشوه فيها ، وظلوا يتبادلون النظر فيما بينهم وبين الجسد الملقى حتى طلع النهار .

أمسك الراوي ربابته وشرع في العزف ، وكان الصبية ينفضُّون من حوله شيئًا فشيئًا . تقدمتُ إليه وعرفته بنفسي وسألته عن فخرالدين وقصته فنظر إليَّ طويلًا ولم يجب ، فأضفت أني أحقق في اختفائه من القاهرة فقطب حاجبيه مستغربًا قليلًا ، ثم ابتسم ، وحمل ربابته ومضى.

ناصـر الخضري

«الأرض أصغر من مرورالرمح
في خصر نحيل
والأرض أكبر من خيام الأنبياء»

محمود درويش

- 1 -

«مال فخرالدين برأسه على كتفي وبكى ، شعرت أن دمعته تنبجس من عذوبة نفسه النقية وتأتي ساخنة وتصب بين حجرين ناشفين في صدري .
قلت : ما بك يا فخرالدين أتبكي ؟ قال : نعم ، هي رشفة من قلبي طفت ولم أدر أين أذهب بها. قلت : أنا لها الحافظ والمستقر . بكى فخرالدين . بكى على كتفي ، وبكيت ، كم بكيت بعدها .

كيف خنته ؟ كيف تركته يصارع الجهال وحده ؟ كيف بعت الأماني والأغاني وتركت الحلم كله يفلت من بين أصابعي ؟ كيف أقف الآن هنا وحدي ، ولا أدري ماذا فعل ولا أين ذهب ؟ في أي بلاد حططت رحالك يا فخر وبأي دار نزلت وبأي باب ربطت ناقتك ؟ هل استكان قلبك ؟ وهل وجدت أرضك . وهل سامحت غدري وتخلي ؟ خنته . نعم خنته . أنا .. أنا من خان فخرالدين فتعالوا إليَّ وأمسكوني وافعلوا بي ما شئتم فقد فعلت بنفسي ما هو أشق . نعم تركته وحده وبقيت أنا في هذا الرجس أغوص وأطفو كل يوم حتى نخر السوس عظم روحي المفككة . نعم أنا سددت أول ما سددت رمحي في قلبه الأبيض الطري . نعم أنا . أدميت روحه وأنزفت جرحه وأبكيت عينه ودست صدره .

نعم أنا . بعته وبعت بيعته وعهده .

نعم أنا . أخلفت وعدي ، ونقضت عهدي ، وحُقَّت عليّ اللعنة التي تطاردني . أنا الذي بكى فخرالدين على كتفه ، أراني دمعه وأشعرني وجعه وأشركني همه وحلمه ، أنا من اتخذني صديقا ونصيرا . كيف خذلته وخنته وبيدي أنزلت.....».

«قصاصة ممزقة

من أوراق ناصر الخضري»

- 2 -

ظهر شخص يدعى فخرالدين في عدة مدن من دلتا مصر الشرقية في الفترة اللاحقة على الحادثة التي جرت في قرية فخرالدين عيسى هاشم. وجدت في بنها، وفي ميت غمر ، وفي المنصورة أن شبابا يحمل هذا الاسم قد جاء وعاش في تلك الفترة ، كما روى لي فلاحون وتجار من كل القرى والبلدان الواقعة في الدلتا الشرقية أن شخصا باسم فخرالدين وصفاته قد مر وقضى بعض الوقت هناك . ولم أستطع أن أقطع في النهاية برأي في المسألة وخاصة أني لم أكن أعرف ما إذا كان فخرالدين قد قتل فعلا في قريته مثلما روى لي البعض أم أنه قد سافر مثلما روى لي آخرون. وفي النهاية قررت أن آخذ مؤقتا بالرأي القائل بأن فخرالدين الذي أتى للمنصورة وعاش فيها في تلك الفترة هو فخرالدين عيسى الذي أسعى خلف قصة اختفائه . وقد شجعني على ذلك الافتراض تواتر القصص والشهادات في المنصورة عن الفترة التي قضاها هناك وأنها أكثر معقولية وقربا للتصديق من القصص الأخرى التي سمعتها في بنها أو ميت غمر والتي تنسب لفخرالدين قصصا وأحداثا أسطورية لم يأتِ بمثلها بشر ، كما أن المنصورة هي المدينة التي عاش فيها في نفس الفترة ناصر الخضري والتي تشير ملفات مباحث أمن الدولة إلى أنه أحد أصدقاء فخرالدين القدامى .

ومن ثم ، فإذا كانت الروايات التي جمعتها هنا تتعارض مع روايات أخرى عن أوقات أخرى قضاها فخرالدين في بقاع أخرى ، فذلك هو غاية ما استطعت استخلاصه من الروايات المتناقضة التي سمعتها ، والمعلومات التي وصلتني بطرق أخرى ، والتي تتناول كلها حياة ، أو حيوات ، فخرالدين عيسى .

- 3 -

شارع الجمهورية ، ويسمونه هنا شارع البحر ، لأنه يطل على النيل ولأنهم يسمون النيل بحرا . شجر قصير منسق بعناية يمتد على طول الطريق. النيل يبدو منخفضا وبعيدا وممتدا بجوار طريق أسفلتي حديث يجري موازيا أسفل الشارع . يفصل بينهما جدار ضخم كحوائط الأنفاق يبدو غريبا وسط الأشجار والنيل . وقفت على قمة الجدار أرقب النيل والطريق السفلي . على شاطئ النيل توجد بقايا ما كان مطعما ، وهو المطعم الذي كان فخرالدين يعمل فيه عند مجيئه للمنصورة . قالوا لي هذا الصباح في المحافظة إن محافظا ما طلع في دماغه ذات يوم أن يزيل المطعم والشجر ويقيم جسرا لا يعلم أحد حتى اليوم بين ماذا وإلى أين كان سيمتد ، وإنهم أزالوا المطعم وفقا للتعليمات في عصر ذات اليوم وأزالوا معه صفا طويلا من الأشجار العتيقة التي كانت تعترض مسار الجسر الوهمي . وفي صباح اليوم التالي تبين أنه هناك سوء فهم وأنه لا يوجد في هذه المنطقة جسر ولا يحزنون. وهكذا اختفى محل عمل فخرالدين . وأين ذهب بقية العمال؟ لا أحد يعلم، فلم يكونوا مسجلين بالشئون الاجتماعية بوصفهم عمالة مؤقتة. كان فخرالدين قد أوضح في أوراقه أنه كان يعمل في المطبخ منذ الغروب وحتى منتصف الليل تقريبا مقابل جنيه يوميا ، وأن ذلك العمل هو الذي مكنه من مواصلة الحياة في المدينة ومواصلة الدراسة دون أهل أو سند .

مشيت قليلا في المكان الذي كان ، ثم سرت بجوار النيل حتى لاح لي شارع الثانوية من بعيد . مسجد أبيض صغير على ناصيته اليسرى . على اليمين بيوت صغيرة متراصة ومطلية بدهان أصفر قديم باهت ركبته رطوبة

من الشتويات المتتالية . خلف المسجد تمتد المدارس حتى نهاية الشارع. مررت ببعض هذه المدارس حتى وصلت إلى مدرسة جمال عبد الناصر الثانوية العسكرية . عبرت الشارع الضيق ودلفت من الباب مستخدما بطاقتي الوظيفية . الباب حديدي رمادي أقرب للسواد . تآكل صفيحه بالقرب من المقبض ، على حافته أسياخ حديدية مدببة . السور مطلي بلون أصفر فاقع ومن فوقه أضيفت - حديثا فيما يبدو - شبكة من الأسلاك الشائكة لتعلية السور . الفناء متسع وتسطع فيه شمس ضحى قوية. أرض الفناء رملية مختلطة بطين بني رطب متماسك . عارضة خشبية في أقصى الفناء وعدد من الطلبة يقسمون فريقا للعب الكرة . دفع أحدهم الكرة فانزلقت واقتربت مني . اقتربت وحملتها في يدي وتوجهت نحوهم فأخذوا جميعا في الجري بعيدا واختفوا داخل الأبنية المتراصة في الفناء. وضعت الكرة بجوار العارضة وقلت لنفسي : هذه البداية لا تبشر بالخير . اتجهت للمبنى الذي يتوسط الفناء ويعلوه العلم .فاجأتني رطوبة ممزوجة بروائح مختلطة . الناظر في ابتسامته قام من خلف مكتبه الفسيح ومد يده مسلما :

- أهلا وسهلا . اعذرني إن لم أكن قد خرجت للقائك فلم أكن أعلم بموعد وصولك .

ابتسمت له وشرحت باختصار الهدف من زيارتي ، وأوهمته طبعا أن هذا الاستقصاء غير الرسمي يتم برعاية المكتب وبتكليف منه . خلع الناظر نظارته في بطء ومسح رأسه بيده . امتعضت تقاطيع وجهه قليلا :

- طبعا سيادتك تعلم أني جديد هنا في المدرسة ، فلم يمر على تسلمي للعمل سوى عامين ، ومن ثم لا أستطيع أن أدلك على أشياء حدثت أمامي أو أعرفها بنفسي .

عاد الناظر بظهره للوراء وأخذ يمسح نظارته بمنديل أبيض . على رقبته الغليظة انداحت حبة عرق .

- على كل حال ، المعلومات التي عندي استقيتها من الناظر الذي كان هنا قبلي ، وهو بدوره عرفها من الناظر الذي عايش الفترة التي تتحدث عنها سيادتك ، وهو الأستاذ محمود حفيظ مثلما تعلم سيادتك ولا شك ، والذي عين بعد ذلك مديرا للتربية والتعليم بالمحافظة . والحقيقة أني قلت هذه المعلومات من قبل في التحقيق الرسمي .

صمت الرجل لحظة ، ثم نظر إليَّ بطرف عينه سائلًا :

- ألم يكن هذا الملف قد أغلق يا فندم ؟!

- 4 -

الثامنة صباحا . شمس مستبدة تتسلط بكامل حرارتها على فناء المدرسة .

انغلق الباب الحديدي الضخم ورنت خشخشة الأقفال الحديدية في صمت الطابور الصباحي . انتصب الناظر في أرض الطابور ، في المنتصف. احمرار وجنتيه زادته الشمس لمعانا . أمام كل فصل وقف أحد المدرسين ليرقب النظام وانضباط الطلبة في الطابور ، لا حركة ، لا همسة ، لا التفاتة . يفتتح الطابور بالتمام على عدد الفصول وحصر الغياب ، تلاوة آيات قصيرة من القرآن الكريم ثم فقرات من لائحة النظام الداخلي وبيان العقوبات الصادرة ضد المخالفين خلال اليوم الفائت، ثم بدء التمارين اليومية ، «صفا وانتباه» . الشمس التي تصعد في كبد السماء شيئًا فشيئًا تُصعِّد من سطوتها على سماء أرض المدرسة العسكرية . وجه مستطيل صاف يلوح من بعيد لعيني فخرالدين مطلا من عنبر المعوقين . تمضي

التمارين قدما. تهتز أبدان الطلبة في إيقاع تتكفل الإعدادات اللانهائية بضبطه. تُصعِّد الشمس من هجمتها فيزداد احمرار وجنتي الناظر. يسقط أحد الطَّلبة في الطابور المواجه من الشمس والإعياء. يجره أحد المدرسين إلى عنبر المعوقين. تهتز صورة الوجه المستطيل في عيني فخرالدين المترنحتين. السلام الجمهوري يبدأ. تتصلب عروق الناظر المنتفخة بدماء حمراء. الشمس والحر والعرق وضباب الرؤية. تحيا جمهورية مصر العربية. يختفي الوجه المستطيل والشمس من عيني فخرالدين. تغيم الدنيا على السلام الجمهوري والهتاف والناظر والطابور ومطبخ المطعم. هوت صفعة على خد فخرالدين دفعت بالشمس إلى عينيه وبملامح جنونية الغضب لوجه أحمر منتفخ العروق وصفعة أخرى أغلقت الشمس والضوء وسقوط جسمه تحت وطأة ركلات متتالية تحدد اتجاه انهياره وركلات تركز جسمه وتجمعه وتكتله في تكوم مغلق متكور. تبتعد الشمس والموسيقى الرسمية والفناء ويخفت توالي الركلات وتهدأ ثم تتقطع.

* * *

دخل فخرالدين الفصل حاملا حقيبته الجلدية السوداء التي فاز بها في مسابقة حفظ القرآن الكريم. يد الحقيبة تترك في يده علامة. عندما جلس وأسند ظهره للدكة الخشبية البنية لمح في آخر الفصل وجها كان قد رآه في الطابور. صفحة وجهه صافية كأنها تشرب من وجه من ينظر فيها. أحس فخرالدين باضطراب ولم يجرؤ على النظر مجددا في هذا الوجه العميق، وطوال الدرس كان يشعر بعينين تخترقان ظهره.

- ناصر. ناصر الخضري.

وجه مستطيل وكتفان عريضان وعرج خفيف بساقه.

- هذا هو السبب في إعفائي من الطابور .

ابتسم فخر الدين وقال بتلقائية :

- ليتني أنا أيضًا بساقي تعب لأعفَى من الطابور .

- 5 -

هز المهندس أمين رأسه مرتين للأمام ونظر في ساعته وقال لي :

- أترى ؟ مواعيدي مضبوطة .

جلس على المقعد الخشبي وطلب لنفسه قهوة مضبوطة . رشفت رشفة من كوب الشاي الموضوع أمامي . نظر إليَّ أمين بعينين حادتين متقدتين وقال :

- تحب نتكلم في الموضوع من أي وجه ؟

قلت : أريد معرفة كل شيء .

ضحك أمين وقال :

- لا ، بهذه الطريقة لن تكفينا الليلة ولا شهر حتى ننتهي .

سكت لحظة وأطرق برأسه إلى الأرض كأنما يفكر ثم وضع ساقه على الأخرى ولفها من حولها في التواءة غريبة وعقد يديه . نظر إليَّ وقال :

- للأسف لن أستطيع الجلوس معك أكثر من ساعة فلديَّ ارتباطات أخرى ، ثم إني محكوم بمدة الإجازة ويجب أن أعود للسعودية خلال أسبوع. سأدخل في الموضوع مباشرة .

أعتقد أن الذي يهمك هو علاقة فخر الدين بناصر . ناصر كان صديقي أيام المدرسة الإعدادية وأنا أعرفه جيدا ، ثم تعرفنا على فخر الدين في الثانوية ، لكن علاقته بناصر تطورت بسرعة وأصبحا صديقين حميمين للغاية ، ولم يكن ذلك يضايقني . يعني طالما نحن الثلاثة أصدقاء فلا تهم التفاصيل . إلا أن فخر الدين وناصر قد كونا فيما بينهما علاقة وثيقة بسبب

مشاعر مشتركة ، في الواقع لم أشعر بها أو بالأدق لم أعرها اهتمامًا وإن كنت قد تفهمتها . وظلت علاقتهما وثيقة جدا حتى منتصف العام الذي تلا رسوبهما - أعني في الثانوية العامة - حيث سافر ناصر مع والده في منتصف العام . ولسبب من الأسباب فإن فخر الدين قد أصابته أزمة نفسية حادة من جراء ذلك . ويبدو لي أنه كان بينهما اتفاقات معينة على المستقبل وأن سفر ناصر قد أفسدها . لا أدري ، هذه مجرد تخمينات . المهم أنهما لم يلتقيا بعد ذلك أبدا على حد علمي ، فناصر عاد بعد حوالي ست سنوات كان فخر الدين خلالها قد ترك المنصورة واستقر نهائيا في القاهرة .

- وأين ذهب ناصر بعد ذلك ؟

ناصر عمل بعد ذلك في مشروع الكهرباء بطلخا ، إنه مهندس مثلما تعلم . ولكنه كان قد تغير لدرجة كبيرة . وكانت تنتابه حالات من الشرود قوية جدًا بدرجة أنه كان تقريبا يغيب عن المحيطين به تماما ، واشتكى لي والده مرات عديدة من أنه لا يأكل أحيانا لمدة أيام . يبدو أيضًا أن الحادثة التي حصلت له في المشروع كان سببها هو الشرود وعدم التركيز . لقد نصحته كثيرا بالذهاب لطبيب نفسي لكنه كان عنيدا جدا في هذه المسألة لدرجة أني شككت في أنه يتلذذ بتعذيب نفسه .

وكان ... آه ، لا أدري إن كان لذلك صلة بالموضوع أم لا ، لكنه كان دائم الحديث عن شخصية «باراباس» أحد حواريي المسيح والذي أبلغ عنه ومات وعاش وحيدا بعد ذلك . قصة مؤلمة جدا ، لكنه كان - لدرجة ما - يحب الأشياء المؤلمة والكئيبة خاصة منذ عودته . وهذا هو سبب ابتعادنا عن بعض منذ ذلك الوقت . النقطة الثانية التي أعتقد أنك يجب أن تعرفها تتعلق بسلوكهما في المدرسة. والحقيقةُ دون فخر أننا نحن الثلاثة وصديقًا

رابعًا لنا اسمه إسماعيل كنا متفوقين للغاية في المدرسة ، ولم يكن ذلك راجعا لأننا نذاكر كثيرا وإنما لدرجة ذكاء عالية مكنتنا من التفوق مع بذل مجهود قليل ، ولكننا عامة - وفخر وناصر خاصة - كان لنا تحفظات عديدة على المدرسة .

رشف المهندس أمين رشفة من قهوته وغامت عيناه قليلا وفرك جبينه بيده:

- أنت تعلم طبعا هذه السن لها متطلبات خاصة . سن المراهقة وبداية الشباب والانطلاق . طبعا المدرسة يمكن الحديث عنها بأي ألفاظ عدا الانطلاق . وهذا ما كان يحز في نفس فخرالدين وناصر بل يشكل لهما مشكلة حقيقية . كانا يرفضان أسلوب المدرسة نفسه ، والمدرسين ، ومواد الدراسة ، أي باختصار كانا يرفضان الموضوع من أساسه . المدرسة كانت غير محتملة في الحقيقة ، وكان فخرالدين وناصر يلجئان إلى الغياب الكثير وإلى التزويغ أيضًا بين الحصص أو قبل نهاية اليوم ، وكان ذلك يؤدي بهما إلى الفصل المؤقت . ولكن والد ناصر - الأستاذ الخضري - كان يحل المشكلة دائما عن طريق علاقاته في مديرية التربية والتعليم .

المدرسون كان مستواهم .. يعني .. عادي ، وكان فخرالدين وناصر مثقفين جدا خصوصا في التاريخ والعلوم الاجتماعية والفلسفة ، وكانا غير قادرين على «تكبير دماغهم» مع المدرسين فيظلان يناقشان ويحاوران حتى تنتهي المسألة إما بطردهما من الفصل أو بخروج المدرسين من الفصل .

المشكلة - مثلما كان رأيي وقتها - ليست في صدق أو زيف ما كان يعتقدانه (فأنا أعتقد أنه صادق) ولكن في أنه لا يمكن عمل شيء في الحقيقة ، وأن أفضل السبل هو أننا نِمشّي حالنا حتى ننتهي من هذه

الفترة الكئيبة دون أن نتركها تؤثر على مستقبلنا ، أما هما فقد ظنا أنهما يستطيعان مواجهة النظام التعليمي كله وهو ما أدى مثلما قلت لرسوبهما في العام الثالث . الذي حدث - وهذه كانت الضربة القاضية - أنهما قررا دعوة الطلبة للامتناع عن دخول الامتحان ، وطبعا كان ذلك شيئًا جنونيا لم يقبل به أحد ، ولما اقتنعا باستحالته دخلا الامتحان ولكنهما أجابا على أسئلة أخرى غير الموجودة بورقة الأسئلة . وضعا هما أسئلة - كل واحد لنفسه -وأجابا عليها وذلك في حدود الموضوعات المقرر دراستها ولكن دون التقيد بكتب المدرسة أو بالآراء الواردة فيها . وربما كان ذلك شيئًا لطيفا أن تسمع به ولكنه سيئ جدا أن تفعله ، ففي النهاية رسبا هما الاثنان وأعادا السنة . وطبعا في السنة التالية أعاد فخر الدين عمل أشياء مشابهة لذلك في حين كان الأستاذ الخضري قد أخذ ناصر وسافرا للخارج حيث حصل ناصر على شهادة جي.سي.إيه الإنجليزية وعاد ليدخل كلية الهندسة.

- وفخر الدين ؟

- فخر الدين لم يدخل الامتحان أصلا في السنة التالية. وكانت عنده أزمة نفسية عميقة عجزت عن فهمها . كان هو الآخر قد تغير بشكل ملحوظ. لا أدري كيف أصف ذلك . ولكن كأن شيئًا بداخله انكسر. كان دائم الشرود عابسا ، ولم أعد أجد فيه نفس الشخص الذي عرفته قبل ذلك . كان كأنما قد تبدل تماما . كأن الذي كنت أعرفه من قبل قد مات وهذا شخص آخر يشبهه في الشكل دون الطباع أو الروح . حاولت أن أتحدث معه أكثر من مرة في ذلك التغير ولكنني لم أكن أصل معه إلى نتيجة. لا أدري إن كان ذلك نوعا من اليأس أم الاستسلام أم ماذا ؟ كان فيما يبدو كل ذلك معا . وقد عاد في العام التالي للمدرسة وكان هادئا تماما ومواظبا على الحضور لكن أيضًا

كان كالحاضر الغائب . وكان قد توقف عن النقاش وعن إثارة أي مشاكل من أي نوع . ودخل الامتحان ونجح بل وحصل على درجات عالية جدا وطلع الأول على المحافظة كلها ! وبعد يوم واحد من ظهور النتيجة كان قد اختفى من المنصورة . علمت بعد ذلك أنه ذهب للقاهرة والتحق بالجامعة هناك. وقد تسبب هذا النجاح في إحراج الناظر جدا - الأستاذ محمود حفيظ - والذي كان قد كتب توصية للمديرية برفت فخر الدين نهائيا باعتباره طالبًا لا يصلح للتعليم . رحمه الله كان يسبح ضد التيار من أجل أشياء لا تستحق .

نظر المهندس أمين في ساعته ، وفك ساقيه بسرعة وقام وهو يمد يده:

- أنا سعدت جدا بلقائك ، ولكن يجب عليَّ أن أنصرف .

- 6 -

«في عيد ميلادي ، أهداني ناصر كتاب الإمام الغزالي حول المعرفة، وكتب لي على غلافه الداخلي «إلى أخي فخر الدين ، ليتعلم معنى المعرفة الحقة». كان ذلك في بدء معرفتي به ، وقد جذبني الكتاب كثيرا ، وسررت به أيما سرور ، وسررت بناصر أكثر ، وصارت لقاءاتنا بعد ذلك أكثر تواترا وأكثر مناقشة للأمور الذهنية التي كان يختمر بها عقلي ، وكان وجود ناصر وآراؤه التي اتسمت بالجرأة الشديدة حافزًا قويا على الاستمرار في الاتجاه الذي أخذته ، والطريق الذي اعتزمت السير فيه ، وكان هو شق روحي الثاني وجواب أسئلتها ، وأسئلة كان يقينها يحركه ويستفزه ليصححه وينضجه . كان ناصر أكثر من مجرد ناصر لي . كان مجددا وضامنا لاستقامة سيري على دربي . ويوما بعد يوم ، في غرفته الضيقة التي كنا نسميها «الغار» تندرا بضيقها ، كانت مناقشاتنا تطول وتطول حتى تطول كل شيء ، وسقطت فيها

أوهام وتجلت حقائق وتعلمت أساليب وتعلمت أكثر ما تعلمت السماحة في الرأي والأمل في صواب ولو يسير لمن يخالفني الرأي . ولم تكن مناقشاتنا في الفلسفة وحسب فقد كان ذلك الجزء مستوحى من كتاب الفلسفة المقرر علينا في المدرسة ، وهو الذي أيقظ في ذهننا هذه المسائل ، وإنما كانت مطالعاتنا في سير الأنبياء وعقائد أهل الشرق وفي الفنون والموسيقى . كانت سير الأنبياء تلهب خيالنا بغد مشرق ، وكنا نحب رؤية الشروق وصعود الشمس في كبد السماء ، لكننا كنا نضطر للنوم بعد الفجر مباشرة لكي نتمكن من الاستيقاظ مبكرا للمدرسة» .

«من أوراق فخر الدين»

* * *

في شارع الجلاء ليلا ، سدت سيارات النقل الثقيل الناحية اليمنى من الطريق . بقايا المحلات تبيع سندوتشات الجبن الرومي وعصير القصب. صبية يلعبون بكرة شراب بين سيارات النقل الرابضة . السيارات الأخرى تجري في الناحية اليسرى من الطريق في الاتجاهين . سار ناصر إلى جانب فخرالدين بين السيارات النقل باتجاه منزل ناصر . اشتريت اليوم شريطًا جديدًا لـ «باخ».

– ما الذي تحبه في «باخ» هذا ؟

– لأن موسيقاه عظيمة . كأنها عالم متكامل ومنفصل عن هذا العالم . عالم من الدقة والجمال ومن الانسيابية . ثم إنها كأنها أبدية ، لا تعرف متى تنتهي . كل مرة تظن أنها انتهت تكتشف أنها تعود ، تبدأ من جديد . عندما أسمعها كأني هجرت هذا العالم كله .

أنصت فخرالدين قليلا ، وتأمل الشارع المظلم المتعرج والمسجد الأبيض الذي يلوح في نهايته . مشيا قليلا في صمت وعندما أدركا المسجد انفتح أمامهما بقية الشارع ممتدا .

– أتعرف يا ناصر ؟ كثيرا ما أفكر في الهجرة .

– الهجرة من مصر ؟!

– ليس بالضبط . هناك نوعان من الهجرة . هجرة إلى الداخل تكتشف فيها نفسك من جديد ، تنقيها من الشوائب ومن العقد ، وتطهرها من الآثام ومن الحقد ، وتسمو بها إلى آفاق أرحب وأسعد . وهجرة إلى الخارج لا يهم فيها نفسك وما بها بل تأخذ نفسك وتهاجر إلى شيء آخر ، لامرأة تصيبها ، أو مال تجمعه ، أو نفوذ تبنيه . وشتان بين الاثنين .

– ليس بالضرورة . من الممكن أن نهاجر إلى الداخل دون أن نترك هذه المدينة ، وإن كنت أظن أن تغيير المكان يفيد في تهيئة النفس للمراجعة

وللتبدل . ولكن المهم هو النية والتوجه . فمن كانت هجرته للداخل فهي للقاء نفسه سواء بقي أم رحل.

ابتسم ناصر وهو يلمس بيده إحدى عربات النقل الرابضة بجوار الرصيف:

- ما رأيك ؟ نأخذ واحدة من هذه العربات ونضع في المقطورة فراشين ومكتبة وكاسيت وكرسيين ونمضي ؟

* * *

تدفق الدم في عروق الأستاذ سمير فازداد وجهه احمرارا . كان فخر الدين واقفا صامتا والأستاذ سمير يذرع الفصل ذهابا وإيابا . وضع حافة العصا على المنضدة واتكأ عليها ناظرا إلى فخر الدين من عدستي نظارته الطبية السميكة وقال له وهو يتمالك نفسه من الانفلات في الغضب:

- ماذا قال سارتر إذن ؟

- قال إن الوجود في جوهره حرية ، وإن الحرية تتمثل في الاختيار .

- لا . غلط . قال إن الإنسان يصنع وجوده من خلال الاختيار وهو ما يرتب المسئولية .

- فعلا ولكن أساس فلسفته هو أن جوهر وجود الإنسان حريته .

- هذا الكلام غير موجود بالكتاب . حضرتك بتألف ؟

- لا يا أستاذ . أنا لا أؤلف . هذا الكلام موجود في كتاب د. زكي نجيب.

- زكي نجيب هذا في بيتكم يا ابني وليس في المدرسة. مائة مرة أفهمك أن الموجود في الكتاب فقط هو المطلوب ، بغير زيادة أو نقص .

- ولكن هذا غير صحيح يا أستاذ ؛ لأن كتاب المدرسة له مؤلف ومن ثم فهو مجرد قراءة جزئية . ألم نقل ذلك في الحصة الماضية ؟

أمسك الأستاذ سمير بعصاه في توتر وهو ينظر إلى فخر الدين . طالت نظرته قليلا وران صمت كامل على الفصل . تنفس فسمع صوت نفسه .

فرك يديه وهو يواصل النظر لفخر الدين ثم تمتم :

- لا فائدة . اطلع بره .

عندما وصل فخر الدين إلى باب غرفة الوكيل وجد ناصر واقفا ينتظره. قهقه ناصر ضاحكا وهتف :

- ما الذي أخرك اليوم ؟

* * *

في منتصف الكوبري بالضبط وقفا . كان ماء النيل يجري من تحتهما أسود في هذا الليل البهيم . أنوار أعمدة الإضاءة المحطمة غائبة عن المشهد . نظر فخر الدين بطول ممر المشاة في الكوبري . كان خاليا تماما. عربات النقل الثقيل لا ينقطع مرورها من على الكوبري الذي يترنح تحت عجلاتها . تمتم ناصر :

- تخيل ماذا يحدث لو انهار الكوبري فجأة ؟!

- تخيل أنت ماذا يحدث لو انهارت القناطر كلها نفسها فجأة هكذا والناس نيام وتدفقت المياه ؟!

- بل ماذا يحدث لو أننا الآن ونحن واقفان رأينا في بوابات القناطر أسفلنا تشققا ، وأدركنا أن الانهيار سيحدث خلال ساعة أو اثنتين ؟

- سنذهب فورا لنتصل بالمحافظة والمجلس المحلي والشرطة وخلافه، ولن يصدقنا أحد . سيقولون عيال صغار إما يتلعب أو يخيل لها أوهام ، وسنظل نبحث عن بيوت المسئولين ونصرخ في وجوههم وهم يستيقظون من نومهم أن القناطر ستنهار وأن الماء سيغمر الشوارع والحقول والبيوت. وفي النهاية سنصرخ في الشارع على الناس أنفسهم لنقول لهم هذا الكلام.

- وهل سيصدقنا الناس ؟

- أغلب الظن أنهم لن يصدقوا . وسنظل نصرخ هكذا حتى يجتاح

الماء القناطر ويغمر شوارع المدينة ويغرقها بمن فيها ، وبنا نحن أيضًا .

صمت الشابان لحظة ثم استطرد ناصر :

- ألا تظن أن ذلك أفضل ؟

- بل نموت ونحن نحاول سد ثغرات القناطر بأيدينا .

* * *

كان اسم السيد الوزير مرسوما على كل الحوائط في المدرسة . واستعان الناظر بعدد من الخطاطين الذين صنعوا له لافتات من القماش الأبيض عليها عبارات الترحيب بالوزير الآتي في زيارة نادرة للمدرسة. ومنذ حوالي شهر كان مدرسو الألعاب الرياضية قد بدءوا في برامج التدريب للطلبة للقيام باستعراض أمام السيد الوزير ورفقائه . وأعاد وكيل المديرية الاتصال بالناظر ثلاث مرات خلال الأسبوع الماضي للتأكد من أن كل شيء على ما يرام ، ثم زار المدرسة بنفسه ليطمئن قلبه . وأعيد طلاء فصول الدور الأرضي الذي سوف يتفقده الوزير ، وكذلك قاعة الاحتفالات التي سيلقي فيها كلمته والتي جددت ستائرها الحمراء الكثيفة. وأتى وكيل أول المدرسة بسجادة حمراء كبيرة من الحاج أحمد صاحب محل الفراشة المجاور له . وقبل الزيارة بيوم ظهرت صفوف من الزروع والأشجار الصغيرة في طول الطرقات بالدور الأرضي . وأتى بإطارين من المعدن ثبت فيهما شبك وعُلقا في الفناء باعتبارهما ملعبًا للسلة . كما تم طلاء عوارض الأهداف في ملعب كرة القدم الذي أعيد رسم خطوطه بالجير ليلة الزيارة نفسها . وتم إصلاح ثلاثة صنابير للمياه في دورة المياه الرئيسية بالدور الأرضي ، وطليت جدرانها المشققة المشبعة بالماء . وتم عمل كافة التنبيهات اللازمة على الطلبة لإنجاح زيارة السيد الوزير .

وفي ذلك الصباح الذي لم تنسه المدرسة أبدا ، تقدم الموكب في طرقة

المدرسة من البابا الرئيسي وحتى الفناء ، والناظر يهرول مع الركب وأمامه ليدله على الطريق . ووقف السيد الوزير في أرض الفناء يتأمل الطابور المنضبط وعروض الطلبة تتوالى . نظر فخرالدين إلى ناصر المنبطح إلى جواره على سطح المدرسة ونظر إلى وجه السيد الوزير وهو يتحدث في الميكروفون بصوت وقور وحان ، وكان شاربه الأبيض يتحرك في هدوء مع تمتمات شفتيه ونظارته الطبية تُضفي على كلماته صدقًا مطلقًا . نظر فخرالدين إلى وجه هذا الرجل الطيب . هذا هو الوزير الذي بيده حال التعليم كله وهو الذي بكلمة منه يقيم مدارس ويغلق مدارس ويغير مناهج ، وهو الذي بيديه يفتح السجن لنا ويغلقه علينا . نظر فخرالدين إلى ناصر المنبطح على السطح وتبادلا إشارة ثم هبا واقفين . من أيديهما تدحرجت لافتة قماش طويلة إلى أسفل المبنى . وقف ناصر وفخرالدين يحملان قمة اللافتة المدلاة على واجهة المدرسة أمام السيد الوزير مكتوبًا عليها «كل ما حولك كذب وبهتان . التعليم منهار . نريد الحديث إليك بحرية» . ران صمت ذاهل على أرض الطابور في حين كانت بقايا جملة السيد الوزير تتسلل ببطء من شفتيه وهو يُصعد نظره في اللافتة بعينيه المغطيتين بالنظارة الطبية . لما وصل إلى قمة اللافتة صمت تماماً وترك الميكروفون وغادر أرض الطابور إلى سيارته السوداء المنتظرة خارج المدرسة .

* * *

قذف فخرالدين بحجر في الهواء فارتطم بقضيب السكة الحديد وانحرف مساره . هز ناصر رأسه وقال : أهاجر معك .

كان فخرالدين يعرف . كان يعرف أن ناصر سيهاجر معه حين يحين أوان الهجرة . كان في قرارة نفسه يعرف عندما غرق في صفحة وجهه يوم رآه في الفصل أول يوم كان يعرف . عبرا خطي حديد ومضيا وسط القطارات

الرابضة والقابعة هنا منذ أسابيع . عبرا من تحت القطار المفتوح للدهان والترميم ومضيا فوق الفلنكات الخشبية العريضة في اتجاه الشرق. من هنا يمر القطار . قال ناصر وأشار إلى منزله على مرمى البصر. جاءالأستاذ الخضري بقامته المديدة يحمل صينية الشاي وناولها لناصر الذي ورث عن أبيه مهابة الصدر العريض . شربا شايا ونمناعا وعزفت موسيقى «باخ» مثلما لم تعزف من قبل .

- 7 -

ابتسم إسماعيل ابتسامة واسعة جدا وهز كتفه الأيمن في حركة عصبية ونظر إليَّ ، قرب وجهه من وجهي وهمس وهو يتلفت حوله:

- اسمعني جيدا . اسمعني ولا تستمع إليَّ، فأنا لا أقول ما أعني بالضبط، وأعني ما أقول بالضبط ، فافهمني كي تتفاهم معي . هل أنت معي؟

برق بعينيه ثم ضحك ضحكة عالية بلا سبب ثم صمت وهدأت ملامحه. سكت قليلا وأشاح بوجهه ناحية النافذة الوحيدة الموجودة بالحجرة. وطال صمته حتى خلته نسى وجودي . هممت بالكلام فأسكتني بحركة من يده. استمر الصمت وأنا أتأمل الحجرة المبعثرة والملابس الممزقة المتناثرة في أرجائها. موقد بعين واحدة في ركن الحجرة وكوب زجاجي مكسور بجوار رجل السرير. قال فجأة:

- هل ذهبت إلى هناك؟

- إلى أين؟

أشاح بوجهه وامتعض:

– إلى هناك في المدرسة.

قالها هازئا وهو يهز كتفيه وفي عينيه بدت مرارة.

– نعم ذهبت .

– وماذا قالوا لك؟ لا لا . لا يهم ماذا قالوا لك .

اقترب من وجهي ثانية :

– ولكن المهم ماذا لم يقولوا لك . هل تعرف الطريق الأسفلتي المار من خلف المدرسة؟ على هذا الطريق سار فخرالدين مع ناصر مرتين كل يوم في طريق الذهاب والإياب . ستة أيام في الأسبوع على مدى أربع سنوات . على هذا الطريق حكى ناصر حكاياته : ساقه المعوقة وروحه المنطلقة وعينيه المتقدتين . حكى ناصر حكايته : إخوته ، أمه، أبيه ، وزينب ذات العينين القطتين الغائرتين بالغموض والسحر . حكى ناصر حكايته : المدرسة والمدرسين والدراسة وقهر روحه فيه ، والتقت روحه بروح فخرالدين في موسيقى «باخ» التي تملأ عليهما الغار وتنسج خيوطًا للعنكبوت على الباب وتفصل المدينة وتبعد ضوضاءها . وتنمو في قلب البيضة حمامة تعلق قلبها على الباب ويطلع لها جناحان جديدان ومنقارا. على كوبري طلخا اتصلت الحكاية والأحلام وأعادا رسم المدينة على الجدران ، رويا الحلم بالنيل المنتعش ليلا وأضاءت مصابيح الكوبري شوارع المدينة الجديدة وخرج ورد النيل من الماء إلى الشاطئ وزرع ونما شجرا وزحف على المدرسة المتهدمة ، ونمت طحالب على عتبات الفصول وبنفسج من أشعار درويش على السبورات في مدرسة أخرى في مدينة أخرى ، وعلا النيل وروى الشجر والطحالب والبنفسج والحقول التي جاءت من القرى واحتلت الأسفلت، وارتدى فخرالدين وناصر أجنحتهما وملآ أوراق الامتحانات بأشعار درويش

وأشجاره وموسيقى «باخ» وكلمات الإمام الغزالي وخطب الشيخ محمد عبده وحكايات «هرمن هيسه» وتأملات سقراط . نقرت الحمامة بمنقارها وأكلت وظهر ريشها وضاق عليها العش فخفقت بجناحيها في الهواء فأدرك الجهال أنهما بالداخل ، فهاجموهما بالكتب والأحبار وماكينات الاستنسل التي يطبع عليها الامتحان وصفوف من الطوابير والعصي والبوابات والأسوار والدكك الخشب والجدران المتساقطة ، ونشروا حولهما أوراقا كثيرة ودقوا على رأسيهما بكعوب الكتب كي يفرغوها ، ولما اشتد حصار الجهال للغار وحمى وطيس القتال واستشعر فخرالدين سوء موقفه . التفت لأخيه خلفه فلم يجد ناصرا ، وكان يمسك بريشته وحده في مواجهة الجهال والضرب يعلو ، فأخذ ينادي ابن الخضري الذي اختفى ، وظل هكذا طيلة الليل يقاتل أعداءه في ظلام دامس دون سند أو معين حتى تكاثروا عليه وأمسكوا به وأعادوه مرة أخرى لأسوارهم ، وقطعوا الأشجار ومسح الفراشون الطحلب والبنفسج وكلمات درويش وعاد للأسفلت سواده القديم وتحجر على الأرض الحجر الناشف . ولما جاء الصباح اجتمعوا وتشاوروا وقرروا فصله من مدارسهم وتشريده وحرموا عليه دخول دار علم كي لا يفسد حنطة أهلها أو كتابة كلمة أو قراءة كتاب مطبوع ، فظل فخرالدين يرسم أشجارا وأنهارا على الأسفلت ومدنا وألوانا في الهواء ويعزف موسيقى الشعر في جوف الليل وحده وينادي على ناصر الخضري بين دمعه .

صمت إسماعيل وكان صدره ينهج بشدة والعرق يتصبب من جبينه ووجهه . كان الحر القائظ يجثم على هواء الغرفة . تكورت حبة عرق خلف أذني وانداحت على جانب رقبتي . بلعت ريقي ونظرت إلى إسماعيل . لم يكن ينظر إليَّ . بدأت نفسه تهدأ شيئًا فشيئًا ثم نظر إليَّ في عيني وكأنه

ينظر إلى بعيد . قلت :

- وأين ذهب فخرالدين بعد ذلك ؟

قال :

- ذهب مطرح ما ذهب . ماذا يهم بعد أن كسروه وخانه ناصره وطردوه من التعليم . ذهب يرسم شجره ويقول شعره في مدن بلا أسوار .

- تقصد القاهرة ؟

نظر إليّ إسماعيل في تدقيق ، وقال :

- القاهرة ؟ ربما . وربما غيرها ، إنه يطوف مدن مصر وقراها كلها . ربما مر بالقاهرة . ولكنه دائما يعود .

قلت في دهشة :

- يعود إلى أين ؟

قال في بساطة :

- يعود إلى هنا . يغيب قدر ما يغيب ثم يعود . ويمكنك رؤيته في أي من تلك الليالي التي يظهر فيها عند كوبري طلخا ، في وسط الكوبري بالضبط قبيل الفجر. ينشد شعرا ويرسم بريشته الهواء ألوانا .

* * *

«أيا ناصر ...

على كوبري القطار . في جوف الليل ومسيرة النيل الطويل . عندك . في ليل المذاكرة العنيدة .حين صنعنا معا نضجنا ونضج قلبنا . حين تفتحت أنفسنا للحلم ، كيف أنضجتني ونضجت معي ؟ كيف مررنا معًا من هذا السجن الرهيب ؟ وكيف هربنا روحينا من شبابيك الزنازين العتيقة ليلا

كي تشرب من هواء النيل قبل مرور الحرس . هل كان يلزمك بعض العاطفة من أجلي ؟ هل كانت العاطفة ضعفًا للرجال ؟ من أجلي أنا يا ناصر من أجلي. حين عَنّ الرحيل ووجب . أعددت الركب وأنمت ابن خالتي في فراشي كي أفر آمنا من سطوة الحرس وانتظرتك عند الباب وعند مفترق الطرق، ومررت عند بيتك ، وعند كوبري القطار ، وعند قضبان السكة الحديد ، وبطول شارع الجلاء ، ومكثت أنتظرك بالغار ليلتين . لا . لا أحد.

ناصر .. أيا ناصر .. كيف خذلتني واختفيت إلى الأبد؟»

«من أوراق فخر الدين»

الخونــة

«سنخلي لك المسرح الدائري
تقدم إلى الصـقر وحدك
فلا أرض فيك لكي تتلاشى ،
وللصقر أن يتخلص منك،
وللصقر أن يتقمص جلدك »

محمود درويش

- 1 -

الاسم : يحيى إبراهيم .

السن : ٣٥ سنة . من مواليد قويسنا .

المهنة : صحفي حر (مدونة هكذا بالبطاقة الشخصية) .

محل الإقامة : القاهرة .

الحالة الاجتماعية : أعزب ، وبلا أولاد .

- عرفت فخرالدين منذ دخولنا الجامعة وحتى وفاته ، فقد مات على يدي هاتين . صادقته وأحببته ورافقته منذ كنا نسكن معًا في المدينة الجامعية في أبي قتادة. كان يفصل بيننا خمس غرف فقط . رأيته أول مرة ذات مساء حين كنت ذاهبا لغرفتي في آخر الممر - كم كنت أكره هذا الممر - ومررت بجوار باب غرفته وكان مفتوحا ، فرأيت شابا واقفا يصلي وعلى السجادة جلست قطة ، وكان فخرالدين يصلي مرتديا فانلة بيضاء بحمالات . وقد أعجبني المنظر فانتظرت ثم دخلت وتعرفت عليه وجلست معه وعمل لي شايا واستمعت إلى شريط محمد منير الجديد عنده وتحدثنا طويلا في أمور شتى . مازلت أذكر كل ذلك كأنه حدث بالأمس. كان قد رفع الفراش بجوار الحائط وعمل من ألواحه مكتبة وضع عليها شرائط تسجيل لمحمد منير وعلي الحجار وموزار و«باخ» (لم أستمع أبدا لـ «باخ» هذا ولا أعرف كيف كان يستمع إلى هذا الرزع) ، وكذلك كتبًا كثيرة ودواوين شعر لدرويش ودنقل والسياب والبياتي وحجازي وغيرهم، ووضع المرتبة على الأرض واستلقى فوقها . ومنذ ذلك اليوم وأنا أزوره في غرفته وتوثقت

علاقتنا حتى صرت آتي للمدينة كي أجلس معه ولا آتيها لو كان غائبا .

- وإلى أين كنت تذهب في الأيام الأخرى ؟

- كنت أعود إلى قويسنا .

- 2 -

عبر فخر الدين شريط السكة الحديد الفاصل بين بين السرايات وأبي قتادة. قطارات البضائع راكنة في امتداد الخط الحديدي باتجاه الأفق. بائعو الفاكهة الليليون وضعوا فوانيس فوق أكوام البرتقال لتضيء في وجه المشتري كيلا يرى. نساء مرتديات ملاءات سوداء وباستعجال «المشاوير» الليلية يعبرن في كل الاتجاهات جَارَّات خلفهن أطفالا حفاة الوجه والأقدام. رائحة مألوفة وغامضة تنبعث من مصنع البيرة المجاور. عساكر النوبتجية الليلية يلتفحون ببطاطينهم الميري أمام قسم الشرطة .انحرف فخر الدين يمينا بحذاء الترعة الساكنة الآسنة. جامع قائم مظلم بجوار قسم الشرطة، لم ير فخر الدين صلاة تقام فيه يوما . مضى فخر الدين بجوار الجامع . أبوابه البنية العالية موصدة بقضبان حديدية ، تجاوزه . رائحة اليود تنبعث من مستشفى بولاق الدكرور. جلبة خفيفة تأتي من عنابر المستشفى المضيئة. عربة إسعاف مطفأة الأنوار تقطع الطريق على مهل وسط المطبات التي تتوسط الشارع . لاحت في آخر الطريق مباني المدينة الجامعية الصفراء اللون . اقترب فخر الدين من البوابة . عسكري متشح بمعطف أسود ميري الأزرار والبندقية ، قابع في الكشك الخشبي المجاور للبوابة .

- مساء الخير .

قالها فخر الدين وهو يدلف من الباب الحديدي الكبير . أطل الرجل

جلس الدكتور يونس على رأس مائدة الاجتماعات . على يمينه جلست السيدة بشرى مشرفة النشاط الفني برعاية الشباب وقد وضعت أمامها ملفا كبيرا مليئًا بالأوراق وبقصاصات صغيرة معلم عليها بالقلم الأحمر . عدلت بيدها حجاب طرحتها البيضاء ورشفت رشفة من كوب الشاي . وضع الدكتور يونس ذقنه بين يديه وهو ينظر للطلبة الخمسة المتحلقين حول المائدة. نظر إلى أمين الاتحاد وابتسم له :

- بذلك نكون أنهينا موضوع المجلة ؟

- ولكن يا دكتور ، هذه الطريقة تأخذ وقتا طويلا جدا .

- اسمع يا ناجح ، لا تتعبني معك . أنا أتصرف وفقا لنظم ولوائح . أي مقال لابد وأن توقع أنت عليه ثم الأستاذ المشرف على اللجنة المختصة، ثم أوقع أنا على المجلة ككل وتختمها من الحرس . هذه هي القواعد ولا داعي لأن نعيد ونزيد في هذا الموضوع . ها يا مدام بشرى! ما هو الموضوع الآخر؟

اهتزت مدام بشرى في مقعدها وأحنت رأسها باتجاه الملف فبدت ثنية رقبتها الغليظة تحت ذقنها :

- عندنا موضوع المسرحية .

كان صوتها حادا ورنانا في الغرفة المغلقة . قطب الدكتور يونس حاجبيه وخبط بيده على كفه الأخرى وهو ينظر لناجح ثم لفخر الدين والباقين :

- ما هو موضوع المسرحية هذا ؟

رد ناجح بسرعة :

- الموضوع يا دكتور خاص بالموافقة على النص .

مالت السيدة بشرى على أذن الدكتور يونس وبدأت تحدثه في همس وهي تخرج أوراقا من الملف . تناول الدكتور ملفا صغيرا من يدها وأخذ

يتصفحه وهو يواصل الاستماع إليها . ناولته ورقة أخرى بها علامات حمراء. هز الدكتور رأسه مؤمنا وهو يطلع على القصاصات ، اعتدل في جلسته ثم نظر إلى فخرالدين :

- حضرتك كاتب المسرحية ؟

- نعم .

- طيب ، والله مجهود عظيم . إن شاء الله لما تتخرج تبقى تكتب مسلسلات للتليفزيون . المشكلة بسيطة يا سيدي . الواقع أنه لا توجد مشكلة أصلا . هناك فقط بعض العبارات التي ربما تكون قد كتبتها دون قصد سيئ منك ولكنها لا تصلح للإلقاء في مكان عام . مثلا الراوي يقول لا أعرف أين بالضبط .. المهم أنه يقول «نحن نعيش في زمن مضطرب» وهذا طبعا كلام غير لائق .

- ولكن يا دكتور المسرحية تدور في القرون الوسطى!

- والله تدور في القرون الوسطى أو في أي قرون أخرى هي حرة . لكن لما واحد يقف ويقول إننا نعيش في زمن مضطرب لن يقول ساعتها أنه يتكلم عن القرون الوسطى! على العموم هذه ليست العبارة الوحيدة التي يجب حذفها ، هناك عبارات أخرى وهي مكتوبة كلها في هذه القصاصات ، خذها وراجعها ثم اعرضها على مدام بشرى لتعرضها عليَّ. هذا إذا كنتم تريدون الموافقة عليها .

دق الباب مرتين ودلف منه أحد السعاة . توجه إلى الدكتور يونس وقال بصوت منخفض :

- المقدم ماهر يسأل عنك يا دكتور .

* * *

- سيد أبو الخير . كلية الآداب .
- أهلا وسهلا ، فخر ..
- أعلم . فخرالدين عيسى هاشم . كلية الحقوق .

كان التعارف سهلا وسريعا . سيد أبو الخير من نواحي بحيرة البرلس بشمال الدلتا . وجد فيه فخرالدين البساطة والإخلاص الريفيين اللذين افتقدهما طويلا منذ جاء للقاهرة . لم يصده فيه تعقيد ولا غموض مثل الآخرين ، ولم ينفره منه تدخل أو ادعاء . أحس أن كل شيء فيه واضح وسهل التفسير . كانت غرفته في أول الممر المقابل وهكذا كان اللقاء سهلا في المساء بعد العودة من الجامعة . سيد أبو الخير أيضا جاء المدينة مهاجرا. حكى عن الصيادين في البرلس والاستغلال الذي يقعون ضحيته . حكى عن أبيه الصياد الذي خرج على مركب الصيد الذي لا يملكه ذات صباح مع الرجال وعاد المركب بدونه ، عن أمه التي تركت البيت إلى الحلقة كي تفرز السمك قبل بيعه وتعود بالخبز آخر اليوم ، عن أخته الصغيرة ذات السنوات السبع والتي كان يذاكر لها مبادئ القراءة ويلقي عليها قصائده التي لا تفهمها .- ولماذا كلية الآداب إذن ؟

حكى سيد أبو الخير عن أحلامه ، عن الصحافة . مواهب الصحفي لا تنقصه. ينقصه فقط امتلاك ناصية اللغة وشهادة جامعية ولهذا اختار قسم اللغة العربية . ثم إنه شاعر ولا يحب أن يكون مع الهواة ، بل مع المحترفين «ألعب معهم بسلاحهم وأكسبهم» .

سار سيد أبو الخير مع فخر الدين أياما كثيرة بعد المحاضرات وقبل الغروب، على شريط القطار الممتد بحذاء ترعة بولاق . القطارات القادمة من الشمال ترحل إلى الصعيد دوما وهما يسيران من أبي قتادة باتجاه بولاق الدكرور .

– أترى يا فخرالدين ، يمكنك أن تسير عكس الاتجاه ، بشرط ألا تسير في وجه القطار ولكن بجواره . القطار لا يستطيع أن يخرج من على الشريط ومن ثم فقوته محدودة لأنه غير مرن ، أما أنت فتستطيع بحركة واحدة أن تخرج عن شريطه ولا تواجهه ، وبذلك تصبح كل قوته بلا فائدة ولا يستطيع أن يؤذيك .

ابتسم فخرالدين :

– موافق ، ولكنك عندما تتفادى القطار لا تحل المشكلة أنت تتفاداها . ولكن بعد ساعة يأتي قطار آخر ثم آخر وهكذا . وإذا ظللت تتفادى القطارات كلها فأنت لم تفعل أي شيء .

– بل تفعل . أنت تتقدم . وتصل .

صمت فخرالدين ثم قال :

– نعم ولكنك تخسر كل القطارات التي تمضي بكل ما فيها وكل من فيها!

– وإذا وقفت في وجهها ، تموت وترمي في المعاجم .

صمت فخرالدين وصمت سيد أبو الخير ومضيا عبر شريط السكة الحديد متشابكي الأيدي . أنشد سيد أبو الخير من شعره ، وروى فخرالدين من ينبوع قلبه حكاياته القديمة والجديدة ، ضيق الصدر ، وضيق الجامعة والتضييق فيها حتى على كلمة في مسرحية .

قال سيد أبو الخير :

– هل تعرف يحيى إبراهيم ؟

– نعم .

– سأقابله غدا للتحدث في هذا الموضوع . لماذا لا تأتي ؟

في مسرح كلية الحقوق جلس فخرالدين على مقعد خشبي مرتفع في يمين الصالة . مراد الدسوقي ، زميلهم من الدراسات العليا يوجه الطلبة

إلى مواقيت دخولهم إلى خشبة المسرح . لبنى عبد الغفار تمسك بورقة في يدها وتقرأ منها دورها . فخرالدين يراجع النص الموجود في يده على النسخة التي يستخدمها مراد الدسوقي . وحيد يراجع دوره وهو يخبط بيده على ركبتيه في فرح وتحد . صمت تام . جاء صوت مراد عاليا : حركة .

دخلت لبنى إلى خشبة المسرح وتوجهت إلى اليسار . وقفت في مواجهة فخرالدين وبدأت في إلقاء دورها . شعرها ملموم في ذيل حصان أبيّ وعيناها واسعتان سوداوان . نظر فخرالدين في صفحة وجهها والتقت عيناه بعينيها. التصقت عيناه بعينيها العميقتين اللتين ابتلعتاه فخف الوجود من حوله . طالت نظرتهما حتى جاء صوت مراد الدسوقي : لبنى!! من فضلك ركزي!

* * *

«أبي
أقول يا أبي عذرا
وقعت في هوى بنية هنا
وأنت كم حذرتني من نسوة المدن
لكنني رأيتها كأنها أنا
فقيرة ، حزينة ، مات أبوها يا أبي
وتقرأ الشعر..»

«قصاصة من قصيدة لأحمد عبد المعطي حجازي عثر عليها في أوراق فخرالدين»

* * *

جلسوا على الحشيش الأخضر أسفل نخلتين متجاورتين أمام القبة . ساعة الجامعة تشير إلى الثالثة إلا ربع ، دقات قصيرة ثم صمت . رواح الطلبة وغدوهم أمام قبة الجامعة لا ينقطع ، من بعيد بدا رجال الحرس عند السور يفحصون بطاقات الداخلين . كانوا هنا جميعا ، فخر الدين وشوقي وسيد أبو الخير ويحيى إبراهيم ومنيب وفطيمة والشيخ وأحمد وجمال وناجح وغيرهم . من كل الكليات جاءوا وتحدثوا نحو ثلاث ساعات. قال فخر الدين في الختام :

- إذن يمكن الاتفاق على الصيغة التالية : إننا ، وبغض النظر عن اختلافنا وعن معتقداتنا أو مذاهبنا أو آرائنا ، كلنا طلبة في هذه الجامعة ، ننتمي إليها ونريد أن نجعل من وجودنا فيها فترة ثرية وغنية لنمونا النفسي والعقلي ، وأن نؤدي واجبنا الذي يفرضه علينا وضعنا كطلبة ، سواء إزاء الجامعة أو إزاء أهلنا ككل ، إزاء المجتمع بالأدق ، وإن كل ذلك لا يمكن أن يتم طالما تُكبت حريتنا وتُقمع آراؤنا ولا تُعطى لنا الفرصة للتعبير عن أنفسنا ، ولاسيما أننا لم نرد يوما أن نتخطى القانون أو نهدمه أو نتعدى على حرية غيرنا أو نقيدها أو نلجأ للعنف أو القهر ، بل إننا ضحية لكل هذا.

ومن ثم فإننا متفقون على ضرورة حصولنا على هذه الحقوق البسيطة، وعلى أن ننتزعها إذا تعذر الحصول عليها بالإقناع .

تحدث يحيى وسيد عن ضرورة التنسيق بين الجميع حتى ينجح أي تحرك، واقترحا احتلال مطبعة الجامعة مثلما حدث عام 1970م ، وأمّن شوقي وأحمد وغيرهم على ذلك مقترحين أن يعتصم الطلبة كلهم بالجامعة لحين الاستجابة لمطالبهم وطرد الحرس منها وتعديل لائحة النشاط الطلابي بحيث ينهي سيطرة الشرطة والأساتذة على نشاط الطلبة، وانفض الاجتماع على أن يلتقوا أسبوعيا للاتفاق على التفاصيل .

* * *

شريط الترماي ميت عند مدخل ميدان عبد المنعم رياض . مجموعة من الشباب تلعب كرة القدم في المساحات الأسفلتية أسفل كوبري أكتوبر . الإعلانات الضوئية أعلى العمارات تسقط أضواؤها المتلاعبة على الميدان. أكوام الحديد والخشب الخاصة بأعمال مترو الأنفاق مكدسة على رصيف الترماي الغائب . لم يستطع فخر الدين رغم ذلك أن يمنع نفسه من النظر خلفه من حين لآخر .

- من يدري ربما يظهر الترماي فجأة !

ابتسم شوقي بنصف شفتيه ورجع برأسه للوراء قليلا وقطب ملامحه. صمت فخر الدين ليفسح له الفرصة للهدوء والدخول في الموضوع. أخيراهمس شوقي:

- أنت تعرف أني خطبت فطيمة من حوالي ستة أشهر . أنا أعرفها منذ ثلاث عشرة سنة ، هل تتخيل ؟ كانت جارتنا في شبرا الخيمة قبل أن ينقلوا ليعيشوا في بنها . منذ حوالي سنة أحسست بشعور غريب جدا. تعرف ؟ أنا لم أعرف الحب قبل ذلك أبدا .

- وكل هذه القصائد التي تكتبها؟ وكل هذه العيون وهذا الشعر ؟

- يعني .. هذه قصائد يمكن كتابتها في عيني فتاة في الأتوبيس ، في شَعر زميلة في «السكشن» ولكن لا أكثر من ذلك .

- ومها ؟

ابتسم شوقي وهز رأسه جانبا :

- لا ، مها بالكاد ألهمتني ثلاث قصائد . في عينيها نظرة تحد مذهلة وهذا ما لفت نظري إليها . ثم إني لا بد لي من مُلهمة .

مثلا هدى ، هذه الفتاة القصيرة التي ترتدي بيريه دائما .. لقد كتبت فيها القصيدة التي فازت بجائزة مهرجان الجامعة في العام الماضي . هذا

كله شيء وفطيمة شيء آخر . فطيمة الحب الحقيقي الأول في حياتي .

* * *

«لبنى

لا أدري بأي حق أوجه إليك رسالتي هذه . ولا أدري لماذا أكتبها إليك أنت . ولكني حين ضاق صدري وانغلق وجدت نفسي أمام الورق أكتب إليك . ربما كصديقين نتفهم بعضنا ونفهم بعضنا . ربما كروحين قلقين تتواصلان كي تستمرا على قيد الحياة . على كل حال ها أنذا أكتب إليك .

لماذا يضيق صدري؟ كنت تسألين هذا النهار . لأقل لك الإجابة الآن. كيف لا يضيق صدري وأنا أرى حولي كل يوم كل هذا الظلم وكل هذا العبث؟ هل رأيت الرجل الممدد أمام سور كلية الفنون التطبيقية وهو غارق في أسماله والحشرات من حوله والجرح الذي ينزف بوجهه طوال الوقت؟ هل رأيتيه؟ ألم تشعري بالمسئولية تجاهه؟ كيف أمر من أمامه دون أن أدوس على قلبي . بالأمس أعطيته نقودا ولكن اليوم وجدته كما هو. ومن أدراك كم مثله في أرجاء القاهرة وحدها وكم مثله وأسوأ منه في هذه الأرض .

ألسنا كلنا بشرًا يا لبنى ، لماذا إذن يموت آلاف منا جوعا ويحيا آخرون في بذخ؟ ولماذا حين يولد طفل في ريفنا المسكين لا يكون له الفرصة التي ينالها طفل سويسري؟ ما الفرق بين الطفلين عند الولادة ؟

ولماذا أتحدث اليوم ، وكلٌ مشغول بهمه ، بلقمته ورزقه هو ، دون أن يفكر لحظة أن رزقه ورزق غيره مرتبطان .

وهذه المدينة القاهرة . هي قاهرة بحق ، كأنها تدوس بمبانيها ، بزحامها وترابها وضجيجها على عتبات روحي فتخنقني وأحاول أن أفر من وطأة قدمها على قلبي فتنسد أبوابها دوني . وأبقى ملقى هكذا في هذه

المدينة الجامعية القاتلة الحقيرة . في هذا المنفى المنعدم الملامح . محبوسا خلف هذه الأسوار بين هذه الجدران الكالحة .

والرفاق؟ «ما من أحد يعرف في هذا المنفى أحدا» . مع أني من أصول ريفية مثلهم ، إلا أنهم مختلفون فعلا عني . هم لا يأبهون لشيء سوى الوجبة الغذائية والمحاضرات ولديهم ما يشبه الغريزة الفطرية التي تحول بينهم وبين الدخول في أي موضوع قد يتسبب في مشاكل لهم . يسيرون في نهر الحياة الذي يسقون منه حقولهم دون أن يكونوا مستعدين لحظة واحدة للنظر في توزيع الماء أو الأرض . كأنهم شجر .

وزملاء النادي؟ لا أدري . هل هم يعقدون الأمور أكثر من اللازم؟ هل يبحثون عن الخلاف وعن العناوين المثيرة؟ ربما . ولكن الأدهى من ذلك هو عدم الإخلاص . عدم الإخلاص الذي يظهر من كلمة . من تعبير . من لفتة . وغير ذلك مما لا أحب الخوض فيه الآن .

فأين المفر؟ كيف أجد لروحي منفذا كي تخرج؟ وكيف أجد طريقي كي نجعل الحياة أجمل وأنقى وأعدل؟».

«من أوراق فخر الدين»

* * *

الدخان يملأ المكان . يتشكل في حلقات وأجسام خرافية تحتل الفراغ بين الزحام على الأرض وبين السقف الخشبي المنخفض . وجوه شاحبة تبدو من خلف أشكال الدخان منهمكة في أحاديث مطولة وصاخبة . عامل البوفيه يمر حاملا أكواب حلبة وشاي وماء وقهوة . يجمع الأكواب الفارغة وهو يحاسب فتاة محجبة مشغولة بحديث ملتهب مع سلامة فتحي ،

الناصري المعروف . محمد الشيخ يتوسط حلقة النادي في الركن الأقصى للأتيليه . ابتسم شوقي بنصف شفتيه وأومأ لفخرالدين :

- ما رأيك ؟

لم يرد فخرالدين وإنما هز كتفيه . مضيا عبر سلمتين خشبيتين للداخل. انحنيا بجذعيهما ليمرا أسفل السلم الذي يقود لمعرض الفنان إبراهيم عوض . رجل بدين ذو نظارات دائرية يعبر الطريق إلى السلم. يئز السلم الخشبي مع خطواته . أحمد مراد المخرج المسرحي يمرق من الداخل مسرعا في اتجاه الباب . كوفيته الطويلة تتعلق في مسمار بارز من مسند كرسي فتسحب الكوفية كلها من على كتفه. يستدير متضجرا ليخلص كوفيته فيلمح الرجل البدين في أعلى السلم ويشير له برأسه باقتضاب . يسحب كوفيته ويعدل الحقيبة «الهاندباج» على كتفه ويمرق للخارج مسرعا. تهرول من الغرفة الداخلية فتاة جينزية البنطلون مطلقة الشعر :

- أحمد .. يا أحمد!

- اتنين شاي .

علا صوت شوقي وهو يميل برأسه ناحية البوفيه ويشير لفخرالدين باتجاه حلقة شباب النادي . يتقدم فخرالدين وسط مقاعد الجالسين باتجاه الحلقة . يصلان إليها . يسحبان كرسيين ويدخلان إلى الحلقة .

* * *

خطوات متمهلة تقطع الصمت في الممر الخارجي . تقترب من باب الغرفة . أصاخ فخرالدين السمع . توقفت الخطوات . دقة واحدة على الباب ثم صمت قصير . دقة ثانية . فتح فخرالدين الباب . دلف ناجح سريعا وأغلق الباب خلفه. دفع بإصبعه إطار نظارته المعدنية ليثبته على

عينيه المفتوحتين على آخرهما . ابتسم لفخرالدين ثم جلس على المرتبة الأسفنجية الممدة على الأرض وهو يتطلع إلى جسم السرير الخشبي القائم بحذاء الحائط . نظر إلى شرائط الكاسيت الموضوعة على أرففه وهمس :

- عندك مجموعة محمد منير كاملة؟! هايل!

- تحب تسمع؟

- بنتولد .

جلس فخرالدين أمام ناجح وتساءل في قلق :

- ماذا فعلتم؟

- كل الأوراق جاهزة على التصوير . لكن نريد أولا الموافقة على الصيغة وعلى الخطوات التي نسير عليها موافقة نهائية .

جاء صوت محمد منير الدافئ من سماعات التسجيل الصغير الراقد بجوار المرتبة «يا عروسة النيل، يا حتة من السما ، ياللي صوتك جوه قلبي ملحمة» .

- وشوقي وبقية الجماعة ، هل عرضتم عليهم الأوراق؟

- عرضت الأوراق على محمد الشيخ وسوف يعرضها هو غدا على بقية المجموعة أثناء وجودهم في بنها وبعد غد سيكونون في الأتيليه . أما شوقي فقد كنت سأسألك عنه .

- الحقيقة أني لم أره اليوم فقد كنت طوال اليوم مشغولاً في بروفات المسرحية . سأبحث عنه غدا . المهم ، هات ما عندك .

أخرج ناجح الأوراق وبدأ في القراءة .

* * *

مسرح كلية الحقوق . صفوف من الكراسي الصفراء تنغلق وحدها .

خشبة المسرح عالية ومظلمة . فوقها جدار كرتوني عال كأنه حائط وبه نافذة وحيدة . بجواره كرسيان ومنضدة صغيرة . ستائر المسرح على الجانبين ممزقة وتترك الضوء ليحتل ساحة المسرح رغم إسدالها . مراد الدسوقي يعلن بدء الاستراحة :

- نصف ساعة ونستأنف البروفة .

نزل الطلبة سريعا إلى كافيتيريا «لاباس» لشراء الشاي والبسكويت والسندوتشات والشيبسي . الجو مغسول بمطر الصباح وبقايا الماء تتجمع في حديقة الجامعة . شجر أخضر زاهي الأوراق يحمل الشتاء بين فروعه. برد خفيف يتسلل من بين الأقمشة الصوفية فينمش القلب .

فخرالدين ولبنى :

- اثنين شاي وواحد شيبسي .

عادا إلى سلم الكلية الرخامي القديم . قلب فخرالدين يخفق بشدة ولبنى تصعد السلم بجواره . رائحتها المميزة تملأ الفضاء بينه وبينها . يحافظ على المسافة بينهما بالضبط كي لا يخاطر بلمسها ويخرج من دائرة محيطها . هل أحبها؟ سأل فخرالدين نفسه ولم يرد . دخلا قاعة المسرح واستقرا في الصف الرابع . وضع فخرالدين الشاي على الأرض وفتح لها المقعد المجاور . شاهدها تجلس . هذه الروح الرائقة الرائعة الرخامية تجلس هاهنا بجانبي . بجانب كوب شايي . بجانب ساعدي . ابتسمت لبنى وهي ترشف من كوب شايها . هذا الوجود الحنون المقدس الذي أخشى الاقتراب منه ولا أطيق البعد عنه . غرقا في حديث طويل حول المسرحية والكلية والزملاء . كان أبوها هو الذي يشجعها دائما على النشاط أيام المدرسة ومنذ وفاته لا أحد .

- أنا أشجعك .

احمر وجهها وأطرقت :

- أنت فيك أشياء كثيرة تذكرني بأبي .

احمر قلب فخر الدين وهو يغوص بين ضلوعه إلى قدميه . نظر إليها . لا يعرف كيف يمكن أن يكثف وجود إنسان ما الزمن والحياة لهذه الدرجة . اللحظة التي تمر وهو جالس بجوار هذه المخلوقة الصغيرة البريئة العينين، تمر مكدسة بالحياة . نظر إلى عينيها فوجدها معلقة بعينيه كأنما تنتظره. بلع ريقه بصعوبة وأعاد النظر مرة أخرى .

ما زالت عيناها هناك . احمرت وجنتاها مع خفوت الضوء .

- أتعرف؟

- ماذا؟

- أنا أحبك جدا يا فخر الدين .

ارتبك فخر الدين . أعاد ظهره للوراء وأراحه على الكرسي . رشف رشفة من كوب الشاي وأعاد النظر في عينيها السوداوين ، تتسع عيناها وتتسع حتى لا يرى شيئًا سوى سوادٍ عميق حنون .. بحرا . وضعت لبنى قطعة شيبسي في فمها وقرقشتها ضاحكة فضاقت عيناها قليلا . ضحك فخر الدين :

- تأكلين الشيبسي كالفئران!

- كان أبي دائما يقول لي ذلك .

- ما هي حكاية أبيك؟ أكلما قلت لك شيئًا تقولين أبي!

جاء صوت مراد الدسوقي عاليا:

- بروفة!

تنهدت لبنى وهي تنظر إلى عيني فخرالدين نظرة أخيرة وهي تقوم. تأملها فخرالدين وهي تذهب باتجاه خشبة المسرح ومد ساقيه على الكرسي المقابل . تشبه عروس البحر في هذا البلوفر الصوف الأحمر والبنطلون الأسود الضيق . قالت : أنا لا أحب البنطلونات ، لكن الأستاذ مراد صمم على بنطلون أثناء البروفة . ذيل حصان شعرها يتهادى خلفها وهي تصعد سلالم المسرح . علا صوت مراد :

- كل شيء جاهز؟ بروفة!

هبطت موسيقى «مون امور» . فخرالدين يحمل باقة ورود حمراء ويتقدم بجوار الجدار العالي . لبنى تطل من الشباك الوحيد أعلى الجدار وشعرها الأسود المسترسل يتهدل على كتفيها . يقذف بالورد للنافذة فتلتقطه لبنى وتقبله . تضع وردة في شعرها . تغيب لحظة ثم تعود وتلقي بسلم من الحبال، تبدأ في النزول عليه . فخرالدين يقترب من السلم ويمد يديه ليلتقطها . تعلو موسيقى «مون امور» حين تهبط لبنى وتمسك بيديه . فجأة تحل طبول عالية محل الموسيقى . يلتفت الحبيبان في ذعر . من كل اتجاه يهجم عليهما رجال ونساء كثيرون ويجذبون كلًا منهما في ناحية .

* * *

الثامن والعشرون من فبراير . البرد قارص بالخارج وبالداخل أيضًا . فخرالدين ينام في غرفته . طرق خفيف على الباب . اندهش فخرالدين لرؤية جمال في هذه الساعة . دخل جمال بظهره المقوس وأكتافه الضيقة. ألقى بتحية المساء وهو يهز رأسه المدفونة بين كتفيه يحمل أخبارا مفسدة. محمد الشيخ لا يسلم فطيمة الخطابات التي أرسلها معه شوقي . والخلاف العميق الناشب بين فطيمة وشوقي مصدره وقيمة محمد الشيخ. وفي النهاية

محمد الشيخ أخبرني أنه يحب فطيمة منذ سنوات وأنه أولى بها من شوقي ذلك المدعي القادم من القاهرة . انصرف جمال وهو يهز رأسه المدفونة وسط كتفيه الضيقتين . وكان صوت خطواته يرن في ظلام صمت الممر .

* * *

«كانت رحلة مضنية . عانيت فيها على كل المستويات النفسية والذهنية. واختبرت فيها كرامتي وشرفي ونزاهتي التي وضعت في مقابل الشفقة واللياقة والعاطفة الإنسانية . ولما اتضح لي أن هذا العفن أشد قوة ورسوخًا في الفروع والجذور من أن أحاول ترويضه ناهيك عن تطهيره ، آثرت الابتعاد . ولكن الرائحة ما زالت تزكم روحي» .

«قصاصة من أوراق فخر الدين
عن رحلته التي قام بها إلى بنها»

* * *

الدخان يملأ قاعة المهرجان . صوت تمتمة المتحدث التالي إلى أحد عمال الصوت يأتي مضخما وغير مفهوم في السماعات المعلقة في أركان القاعة الفسيحة . الرجل يدق بإصبعه على الميكروفون في محاولة لإعادة الصمت في القاعة الضاجة بالأحاديث الخافتة . أحمد يقف وحده في ركن بجوار الخشبة يعد قصيدته التي سيلقيها بعد قليل . سهير تتراجع بظهرها إلى الوراء وتكشف مساحة جديدة من ساقها السمراء النحيلة . تميل برأسها ناحية فخر الدين وتواصل معه حديثا متقطعا .

- دعوني أقلّ شعرا .

منى حمدي برأسها الصغير وشعرها الكاريه وخطوط كحل عينيها الفرنسية الطابع ، تمسح قاعة المهرجان بعينيها .

دعوني أقلّ شعرا حقيقيًّا

كنت واقفا في الأوتوبيس الذي يحملني إلى الموت اليومي

رائحة العرق الناضح من إبط امرأة لاصق في وجهي

يخنقني

ويخنق في الزهر المأسوي اللون

بطن السيدة الحبلى يحتك بظهري إذ تعبر

إذ ترجع

إذ تتراخى

أتراخى

في قلب الظلمة إذ تحملني غيبوبة ذهني للحقد المدفون ،

المحقون ،

المسجون ،

في واحة بلدي

منى حمدي تستقر بنظرها على الصف الثالث حيث تجلس ليلى السرجاني ، ويتبادلان نظرتين وإيماءة . سهير تميل على فخرالدين وهي تسأله عن رأيه في قصيدة أحمد . فخرالدين شاحب الوجه ممتقع ينظر إليها ولا يرد . منيب يتبادل حديثا ضاحكا مع شخص مجهول ثم يطلب منه سيجارة ويمضي ليشعلها خارج القاعة .

رائحة بقايا طعام الإفطار

تتسلل من إست الرجل الواقف عند الباب

العطن . والعفن الزاحف من فمي نحو الأمعاء

يأكلني .. يتشربني

الرجل الشاذ الملتصق بظهري

ليلى السرجاني تقوم من مقعدها وتتجه للباب ، تلتقي بمنى حمدي وتخرجان معًا .

يطعنني

ألتفت إليه فتبين أسنانه الصفراء

أتراجع . يلحقني

أنتقل إلى الباب فأواجه رائحة البول المنبعث

من الشحاذ الراقد عند الشباك الخلفي

أتقيأ

دما

إذ لم أتناول إفطاري

يختلط الدم بخيط الدم المتسلل من ساق

الطالبة المزنوقة جنب الباب

الرجل المصدور عند الشباك يتقيأ بلغمه كالمعتاد

السائق يتقيأ ركابا

نتقيأ . نتقيأ . نتقيأ

والقيء الطافح يملأ أفق الأوتوبيس

الأوتوبيس الذي يحملني للموت صباحا ... إلخ إلخ .

صمت أحمد لحظتين . طوى ورقته وتراجع خطوة خلف الميكروفون .

جاء التصفيق متصاعدا من القاعة . ابتسم أحمد وهز رأسه وانسحب من على خشبة المسرح .

قام فخرالدين من مقعده مسرعا ، شق طريقه وسط الزحام خارجا، التقى بمنيب العائد من الخارج وابتسم له في وهن . اتجه إلى الباب ، وخرج. كان يشعر بغثيان قوي من الدخان ومن القصائد التي تتلى . وكان يتساءل عن العلاقة بين النضال وبين القرف . الهواء البارد في شارع القصر العيني أعاد له بعض القوة .

وقف مستندا إلى العامود الخرساني الضخم . شارع القصر العيني مزدحم كالعادة . السيارات تمر دون رحمة . دون التفاتة . توقف أوتوبيس فجري خلفه الواقفون عند المحطة . بالداخل كان المهرجان مستمرا . وقف فخرالدين في البرد وحيدا . نظر إلى الشارع وترقرق دمع في عينيه وعاد للقاعة .

كان منيب قد جلس بجوار سهير التي انحسر ثوبها عن ساقها تماما. شاعر آخر يصعد إلى خشبة المسرح وسط تصفيق حاد . منى حمدي عادت للقاعة وتجلس بجوار ليلى السرجاني في الزاوية الخلفية منعزلتين في الظلام قليلا .

جاء صوت الشاعر رفيعا وعاليا :

عرق العمال الكفرانة على المكنة

طفحانه الكوتة

حتى فتافيت العيش

أخدوها ولاد الغرية بتوع الجيش

منى حمدي وليلى السرجاني تغادران القاعة بعد تبادل سلام سريع مع

بقية أعضاء النادي . لمح فخرالدين « سيد أبو الخير» واقفا بجوار الصف الأول يتحدث مع أحمد مراد المخرج المعروف ، يبتسم من حين لآخر ويستطرد في الكلام . أحمد مراد يربت بيده على كتف «أبو الخير»، ثم يبتسم له ابتسامة متعجلة وينظر للسيدة الشقراء الجالسة على يساره . «أبو الخير» يبتسم ابتسامات متتالية وينسحب منحنيا وهو يهز رأسه . شوقي ومنيب يتحدثان في نفس الوقت تقريبا لسهير التي لا تكف عن الالتفات بين الاثنين.

كانت قصيدة الشاعر هي الأخيرة . وعند الباب لفح هواء شارع القصر العيني البارد وجوه كل الخارجين. حلقات المتجمعين حول الرصيف تتناقص وتتلاشى. أحمد والشيخ رحلا ، وبقى شوقي ومنيب وسيد وفخر الدين .

سأل فخرالدين :

- من منكم آت معي لبين السرايات؟

تبادل شوقي ومنيب نظره ، وأسرع شوقي قائلا :

- أعتقد أن هذا طريق منيب .

- لا . في الحقيقة أنا ذاهب الليلة إلى ميدان رمسيس لأقابل ابن عمي.

ابتسم شوقي بنصف شفتيه ، وقال :

- إذن تعال معنا أنا وسهير إلى رمسيس ثم نكمل نحن .

أخذ منيب نفسا عميقا :

- ولم لا نسهر معًا قليلا؟ هل ترغبين في الذهاب يا سهير؟

هزت سهير كتفيها ولم تجب .

رد شوقي :

- على العموم أنا اتجاهي شبرا الخيمة سأوصل سهير لشبرا ثم أكمل أنا .

قال منيب ، مبتسما :

- إذا كنت مستعجل روح أنت وأنا ممكن أوصل سهير ثم أعود لابن عمي في رمسيس .

تململت سهير :

- أف . أي واحد منكم يوصلني ونخلص .

- 3 -

- كان فخرالدين خلال هذه الفترة يشعر بالتمزق . وكان شديد الوعي بنقائص زملائه . ولكنه لم يكن يجد بديلا سوى السكون والاستسلام ، فكان عليه أن يحارب ، مع جند فاسدين ، عدوا فائق القوة ؛ لأن البديل كان موتا . كان يقول لي دائما - واعني بدائمًا المرات التي كنا نلتقي فيها - إنه يتذكر جيدا قصة سيدنا موسى ورفض اليهود أن يقاتلوا معه ، ثم عبادتهم للعجل حين ذهب للجبل .

صمت يحيى إبراهيم والتفت إليَّ . سألته :

- وأين كنت يا يحيى خلال هذه الفترة ؟

ثبت نظارته السميكة واختلج شاربه الأسود ونظر إلى بعيد :

- كنت في قويسنا .

* * *

- كانت جلسة النادي عاصفة ، إذ كنا جميعا ندرك أنها أهم جلسات النادي على الإطلاق ، ولذا كان كل طرف يحاول التشبث بما يستطيع من مواقفه ، كما كانت هناك خلافات شخصية ، بين عدد من أعضاء النادي، حالت التوصل لاتفاق.

- خلافات بين من؟

- بين شوقي ومنيب اللذين كانا دائما على خلاف ودون أن يكون لأيهما اتجاه محدد سوى مخالفة رأي الآخر ، وشوقي والشيخ ، اللذين كانا لا يتبادلان حتى التحية منذ موضوع فطيمة ، ثم حدثت خلافات أخرى بين منى حمدي وشوقي ؛ حيث أصرت منى على ضرورة تضمين حقوق المرأة في مطالب اللجنة وأن يشمل ذلك حقها في التعبير الجسدي عن نفسها ، فاتهمها شوقي بالشذوذ مما أثار مشكلة حقيقية وصلت للعراك بالأيدي ، ولما كان شوقي طرفًا في كل هذه المشاكل فقد توحد الجميع ضده وطالبوا بإخراجه من اللجنة .

- ثم ماذا ؟

- ثم تدخل فخر الدين ، والواقع أنه بذل مجهودًا ملموسًا في إعادة الهدوء وفي التوصل إلى صيغة موحدة ترضي الجميع ، فالتقى بمجموعة بنها ...

- من هم؟

- الشيخ وأحمد وعبيد وجمال .

- من هو عبيد؟

- مدرس لغة إنجليزية بمدرسة بنها الإعدادية . ودائما يسير ومعه «ووكمان» يضع سماعاته على أذنيه .

- أكمل .

- التقى بمجموعة بنها على حدة ، ثم بشوقي بمفرده ثم بمجموعة كلية الحقوق ، ثم بيحيى إبراهيم وبي ومعنا مجموعة كلية الآداب ، ثم أخيرا بناجح وبقية أمانة الاتحاد ، واستطاع خلال هذه اللقاءات أن يصل إلى الصيغة التي اتفقنا عليها جميعا .

– هل يمكنك القول إن فخرالدين كان قائد الحركة؟

– ليس بالضبط . الحقيقة أن كل واحد كان يحاول إقناع نفسه والآخرين أنه قائد الحركة ، لكن الحركة لم يكن لها قائد ، كان كل واحد مسئول عن مجموعة أو عضو في مجموعة ، وكان أي اتفاق لابد أن يحظى باتفاق المجموعات كلها . فخرالدين لم يكن له مجموعة محددة ، ولكنه كان دائما يساعد في التوصل إلى اتفاق بين المجموعات .

– هل هو إذن صاحب الاتفاق الخاص بتنظيم المظاهرة؟

– نعم . هو الذي وضع الصيغة التي اتفقنا عليها مثلما ذكرت .

– ما هي هذه الصيغة بالضبط ؟

– أولا المظاهرة وتنظيمها : من أين ستخرج؟ وما هو مسارها؟ وما هي شعاراتها بالضبط؟ وكان الشيء الذي أصر عليه فخرالدين وساندته فيه مجموعة يحيى إبراهيم هو تجنب حشد عدد كبير من الطلبة ممن لا يؤمنون فعليا بمطالب اللجنة ؛ لأن ذلك سيضعف الحركة ككل وسيضع قيودا على حرية حركتنا نحن كلجنة منظمة .

– ماذا تقصد بالطلبة غير المؤمنين بمطالب اللجنة؟

– أعني أنه عادة في هذه الأحوال يلجأ المنظمون إلى حشد أكبر عدد ممكن لإظهار قوة حركتهم ، ومن ثم يخترعون قصصًا وحججًا وهمية ويعطون وعودًا متعارضة لجلب أكبر عدد ممكن . فخرالدين ومجموعة يحيى كان رأيهم أن تكون مطالب الحركة محددة فقط بقضية حق الطلبة في التعبير الحر عن آرائهم دون تدخل من قبل الأساتذة أو الحرس ، وأنه حتى لو كان التأييد صغيرا في البداية فإنه سيكون قويا وسيجلب المزيد من المؤيدين بدلا من خلق حركة واسعة مهلهلة وقائمة على الأكاذيب .

- وخطة التحرك؟

- خطة التحرك تتكون من نقطتين ، الأولى هي الاستيلاء على مطبعة الجامعة بمعنى دخول الطلبة إلى موقع المطبعة والاعتصام فيها بما يمنع تشغيلها ، والثانية هي احتلال برج الساعة وتعليق ميكروفون أعلاها لبث مطالب الحركة ، ولمراقبة حركة قوات الشرطة حول الحرم الجامعي .

«من أقوال سيد أبو الخير في محضر الشرطة»

- 4 -

بدا تمثال طلعت حرب قريبا من شرفة حزب التجمع . كانت منى حمدي بالداخل مع ليلى السرجاني في اجتماع لجنة الحركة النسائية بصفتيهما المنسقتين بين اللجنة وبين طالبات الجامعة . ابتسم شوقي بنصف شفتيه وهو واقف بالشرفة :

- عندما تسمع منى وهي تتحدث يخيل إليك أنك تقرأ في كتاب من كتب نوال السعداوي ، ومهما تناقشها لا فائدة . هو هو نفس الكلام . كأنها لا تسمعك . الثقافة الفرنسية مع الأصول الأرستقراطية قضيا على دماغها تماما .

كان الليل يتقدم وبدأ عمال النظافة في رش الماء في الميدان عند قدمي التمثال . تساءل أحمد في ضجر :

- ألن ينتهوا الليلة؟ لقد تأخر الوقت وسيفوتني آخر قطارات بنها .

ضحك شوقي ونظر إلى منيب الذي كان يدخن في صمت . ثم أردف :

- أنا ليس لدي مكان أستطيع أن أبيتك فيه ، ومنيب عنده ابن عمه .

الحل الوحيد أن تبيت عند سهير .

دفع منيب الكرسي بقدمه وهب واقفا في مواجهة شوقي :

- يلعن أبو أمك .

* * *

ركن طارق سيارته اللادا البيضاء بجوار الرصيف . أشار بيده إلى فخرالدين . أغلق زجاج السيارة وفتح الباب ونزل :

- أهلا يا فخرالدين كيف الأحوال؟

تبادلا السلام ووقفا أمام مدخل الكلية . طارق بقميصه الأبيض مفتوح الصدر قليلا ، بنطلون رمادي غامق وحذاء لامع السواد . وضع مفاتيح السيارة في جيبه ، ووضع يده على كتف فخرالدين :

- أمازلت رافضًا أن تقتنع يا سيدي؟ يا بني دعك من مجموعة العيال الململومة حولك هذه . هؤلاء تلفيقيون وأفاقون . لماذا لا تأتي معنا الليلة؟ خائف؟ الليلة اجتماع عادي ، مفتوح وعلني ، في مقهى ، أظن أنه لا توجد علنية أكثر من ذلك! اسمع ؛ سأنتظرك في حدود السابعة مساء ، أنت عارف مقهى البستان في وسط البلد؟ لابد أن أذهب الآن لأن عندي ميعاد في شيراتون الجزيرة . اتفقنا؟ في السابعة بالضبط .

* * *

عبر فخرالدين ومنيب شريط الترماي وعرجا من شارع شبرا في إحدى الحواري الضيقة المتشعبة على يمينه . أشعل منيب السيجارة الأخيرة من علبته الكيلوباترة ثم كور العلبة في توتر وألقى بها على الرصيف . توقف فجأة والتفت إلى فخرالدين :

- معك جنيهان سلف؟

أخرج فخرالدين النقود من جيبه وعدها ، جنيهان ونصف . جذب منيب الجنيهين واتجه مسرعا إلى كشك السجائر المواجه وعاد ومعه علبتي سجائر .

- البيت من هنا .

شد فخرالدين يده على الحقيبة التي تحمل صور البيانات التي سيتم توزيعها في المظاهرة . كانت سهير هي التي ستُدخل البيانات إلى الجامعة في حقيبتها ؛ إذ كان الحرس عادة لا يفتش البنات . لم يكن فخرالدين يريد الذهاب إلى بيت سهير إلا أن شوقي أصر إصرارا غريبا على ذهابه مع منيب في هذه المهمة ، فظن فخرالدين أن ذلك بدافع الغيرة المعتادة بين الاثنين وقرر الذهاب حقنا للمشاكل . الشارع يضج بالحركة وبالأطفال الذين يلعبون حول سيارة واقفة لصق الجدار الخلفي لأحد منازل الحارة . صبي صغير يطل برأسه من مكان النافذة الخلفية للسيارة في حين يتسلق اثنان آخران سطح السيارة المحطمة . قطة تجري من تحت السيارة وترتطم بقدم منيب الذي ينفضها وهو يمطرها بسيل من السباب.

- وصلنا .

قالها منيب وهو ينظر لفخرالدين . قال فخرالدين :

- الساعة تقارب الحادية عشرة . اطلع أنت بالحقيبة وسأنتظرك هنا .

شد منيب الحقيبة وانطلق في أحد المداخل الصغيرة . عاد فخرالدين إلى أول الحارة ووقف يرقب الأطفال المتحلقين حول السيارة المنهكة . خمس دقائق وعاد منيب مكفهرا .

- أعطيتها الأوراق؟

لم يرد منيب بل نظر بعيدا ثم قال بلا اهتمام :

- أعطيتها الحقيبة ولكنها لم تفتحها .

نظر إليه فخرالدين غير فاهم . بلع منيب ريقه بصوت مسموع ونظر لفخرالدين ثم مر بنظرته إلى بحر الشارع .

- أحمد كان عندها . لمحته نائما على فراشها من فتحة الباب.

* * *

- ألم تعرف الأخبار؟

تساءل جمال وهو يهز رأسه الصغيرة بانفعال بين كتفيه الضيقتين وينحني أكثر بظهره المقوس على فخرالدين :

- خيرا؟

- منيب ضرب شوقي كامل بالأمس أثناء الاجتماع التحضيري للمظاهرة، وأقسم إما أن ينسحب شوقي من النادي وإما أن يفضح فطيمة في بنها كلها ويحكي لكل كبير وصغير ما كان يحدث بينهما قبل أن يتركا بعضهما . وأصل الموضوع أن شوقي كان قد عرف أن أحمد مع سهير في بيتها فتعمد أن يرسل منيب بالبيانات لها في نفس الوقت - يوم أن ذهبتما معًا - محمد الشيخ لما سمع التهديد طبعا ارتعب لأنه عارف أن منيب مجنون ويعملها. حاول تهدئته فلما فشل طلب هو الآخر من شوقي أن يخرج من النادي وانضم إليهم أحمد . أما سهير وفطيمة فكانتا في حالة بكاء من الأمس . بالمناسبة لماذا لم تحضر الاجتماع ؟

أطرق فخرالدين . نظر لساعة الجامعة ، لم تكن تدق . لماذا كنت تريدني أن أحضر؟ نظر إلى جمال ، كانت رأسه ما زالت تهتز بين كتفيه الضيقتين . أطرق ولم يجب .

- بالمناسبة، الخميس القادم كتب كتاب الشيخ على فطيمة، ألن تحضر؟

* * *

لملم الطلبة أوراقهم من على البنشات استعدادا للخروج من قاعة المحاضرات. نزل الدكتور سعيد أستاذ القانون الدستوري من على المنصة وأشار لفخرالدين أن يقترب . عبر فخرالدين صفوف المدرج إلى حيث يقف أستاذه .

– تعال إلى المكتب يا فخرالدين . أريدك في كلمتين .

في مكتب الدكتور سعيد كانت صورة رئيس الجمهورية تتوسط الجدار . على المكتب لافتة نحاسية صغيرة تحمل اسم الأستاذ وصفته .

مقعدان جلديان فسيحان بجوار الجدار المقابل للمكتب . أشار الأستاذ لفخرالدين وهو يكمل محادثته التليفونية . من النافذة تبدو قبة الجامعة ومن حولها العوارض الخشبية والحبال التي يستخدمها عمال الترميم . على المكتب كوب ماء .

– اسمعني جيدا يا فخر . أنت طالب ممتاز وأنا أقدر مجهودك العلمي، بل وأقدر أيضًا مجهودك في النشاط الفني والمسرح وخلافه . ولعلك تذكر أني أنا الذي توسطت لدى الدكتور يونس رائد الاتحاد عندما كانت هناك مشاكل حول النص . وتمكنا من خلال التعاون بيننا أن نحل هذه المشكلة . ولكني في نفس الوقت ، وكأب ، أريد أن أنصحك . أنتم جميعا هنا كأولادي فنحن لسنا مجرد أساتذة بل آباء في المقام الأول ، ومهمتي كوكيل للكلية لشئون الطلبة أن أعتني بكم جميعا . نحن هنا إذن كأسرة واحدة، كالجسد الواحد إذا تداعى منه عضو تداعى له بقية الجسد بالسهر والحمى. أليس كذلك؟ حافظ الحديث أم أقوله لك؟

دق جرس التليفون فتوقف الدكتور سعيد وابتسم . رفع سماعة التليفون:

– آلو ، نعم يا فندم .

عاد فخرالدين بنظره إلى قبة الجامعة وأخذ يعد العوارض الخشبية المحيطة بها. واحد ، اثنين ، خمسة ، عشرة ، ...

- نعم يا بني ، ماذا كنت أقول؟ آه . كنت أقول إنه يجب عليك أن تفهم أمرين غاية في الأهمية ، الأول أن دراستك هي أهم شيء بالنسبة إليك وبالنسبة لنا ، وهي السبب الوحيد لوجودك هنا في الجامعة ، وبدونها لا يصبح لوجودك هنا مبرر . أما النشاط فمسألة تكميلية الهدف منها تهيئة جو لطيف ، لكن يجب ألّا تطغى أبدا على الدراسة .

- لو سمحت يا دكتور .

جاء صوت فخرالدين مبحوحا من طول الصمت . قاطعه الدكتور :

- اسمع يا بني . أنا أعلم تماما كل ما ستقوله . أعلمه كلمة كلمة . أنا أريدك أنت أن تسمع . الأمر الثاني المهم الذي كنت أحدثك عنه هو أنه شيء لطيف جدا أن يكون عندك أفكار . أفكار من أي نوع . فهذه علامة على النضج الفكري للطالب . لكن حذار ، حذار من الخلط بين الواقع وبين الأفكار . الأفكار مكانها الكتب ، الذهن ، أما الواقع فمكانه من حولك وهو الذي تعيش فيه . هذا الواقع ليس صدفة وليس لعبة . أنت تستطيع أن تُعجب بأي أفكار تخطر لك على بال ، وأن تغير هذه الأفكار ثاني يوم ، أما الواقع فهو موضوع لا يخضع لهذه المسائل .

باختصار المجموعة التي التأمتَ معها هذه مجموعة ضارة ومفسدة وممكن تضر مستقبلك . أنا أعلم جيدا أنك بريء وأنهم ضحكوا على عقلك بالكلمتين الفارغتين إياهم عن الحرية والتقدم ... إلخ . طبعا نحن جميعا نؤيد الحرية والتقدم، ونحن جميعا نعبد ربنا ونعرف ديننا، ونحن جميعا ضد الاستغلال . ولكن المهم ألا نقع ضحية للإغراءات وللأفكار المستوردة

التي لا تتفق مع الواقع مثلما قلت لك . أنت طبعا فاهم ما أعني . أنا أعلم إنك ذكي ، وأنهم إذا كانوا قد نجحوا في التأثير عليك فإنك شجاع وقادر على أن تقف مع نفسك وقفة صدق وتعرف أن مستقبلك في كفة وهذا الكلام الفارغ في كفة ، وأن ساعة الجد لن تجد واحدا من هؤلاء العيال بجانبك .

صمت الدكتور سعيد لحظة . تناول رشفة من كوب الماء الموضوع أمامه ونظر إلى فخر الدين متجهما :

- لقد وصلني عنك كلام سيئ . وكان هناك اتجاه لإيذائك . لكني قلت لا. أنا أعرف فخر الدين جيدا . دعوه لي وسوف أفهمه . أنت تفهم قصدي طبعا. أنا أعلم أن نيتك حسنة ، لكن تصرفاتك هي التي وضعتك في هذا الموقف .

اسمع يا فخر الدين ، لا بد أن تعلم أننا هنا جميعا نعمل من أجل مصلحة البلد . نعمل بنضج وبإدراك للمسئوليات الملقاة على عاتقنا وللواقع المحيط بنا . الواقع ليس سهلا يا بني ، الواقع معقد جدا ومرير ، فلا تستسلم للتهور الذي ينساق إليه عيال النادي وغيرهم سواء أكانوا من الشيوعيين أم من الإسلامجية أم غيره ، كلهم واحد ، وكلهم مرضى فلا تضيع نفسك معهم. أنت شاب ممتاز . هذا تحذير أبوي يا فخر الدين ، والجامعة قادرة - وبالقانون - على اتخاذ إجراءات قاسية جدا ممكن تقضي على مستقبلك تماما . ها؟ فاهم ماذا أقصد؟

ران صمت قصير قطعه دق على الباب . انفتح الباب فتحة صغيرة وأطلت رأس المقدم ماهر :

- لا مؤاخذة يا دكتور ، لم أكن أعلم أن لديك ضيوفًا .

- لا لا يا سيادة المقدم . تفضل . لقد انتهينا من موضوعنا .

* * *

«حبيبتي لبنى

يا من كأنها أنا . يا من أمد شق نفسي فتلمسها فتلتئم وتصير روحا واحدة تخفق بحب وحنو وعطف وشوق وارتواء لانهائي وامتلاك وانفصال عن هذا العالم وطيران وسحب وأنهار وأشجار وفضة وينابيع من ماء رائق يخرج من يديك وشمس تسدل من عينيك أشعتها فتغسل روحي وتطهرها وتفتح قلبي وتدفئه وتطرد البرد عنه .

يا من كأنها أنا . هل أقول أحبك؟ هل تكفي الكلمة؟ هل تكفي هذه الحروف لتحمل إليك ما بقلبي؟ أنت التي هدأت عندها روحي بعد تيه ، واستقرت ببابها سفني بعد طول إبحار . أقول لك أنا أحبك . اغمسي بدمي زهورك وانثريها ، وأنا أحبك ، كم أحبك .

اليوم يوم رائق وجميل . تسلحت بصورتك وخرجت في الصباح . قابلت شوقي والزملاء ورأيت الصدع بينهم . ونقترب الآن مما كنا نود أن نفعل . من أجلي . من أجلك أنت . ومن أجلنا معا . اليوم وغدا» .

«من أوراق فخرالدين»

* * *

النيل يتدفق في جلال يسيطر على ليل بنها . الظلام لا يفلح في إخفاء هذا القوي الذي يملأ المكان بوجوده وبأمواجه المدببة القصيرة الانكسارات. يرتسم الكورنيش هامشًا كأنه ينتظر السماح من النيل للمرور على جنبه . أضواؤه الصفراء المتباعدة تفضح مقاطع من جمال النهر البري . محمد الشيخ يسير متمهلا بجوار فخرالدين . كان فخرالدين يشعر بشيء يشده إليه . لا يعرف ماذا بالضبط ، هل هي وسامته وابتسامته وظرفه؟ هل هي بساطته المتناهية وقربه؟ هل هي مهنته كمحام والتي جعلت فخرالدين

يتطلع إليه كمستقبله؟ لا يعرف ، لكنه كان سعيدا عندما تلقى دعوة محمد للمجيء إلى بنها وقضاء ليلة فيها . كانت هذه فرصة أيضًا للتعرف أكثر على عبيد ، ذلك المتمرد العابث الساخر الذي لم يفهمه فخرالدين أبدا. وكانت فرصة لإعادة بناء الجسور بين أعضاء النادي واللجنة وإنهاء الخلافات بينهم . أفاق فخرالدين من أفكاره على صوت محمد الشيخ وهو يعلو بالضحكات . نظر إليه محمد ثم شبك ذراعه في ذراع فخرالدين واسترسل في الحديث عن النيل وجماله وبريته في بنها .

- الأمر الذي يختلف كثيرا عن النيل القاهري المحاط بالكباري والنوادي وشرطة الآداب . كان أبي يحب النيل كثيرا وهو الذي علمني حبه وغرسه في نفسي . لم يكن عامدا بالطبع ، لكني كبرت على تمشيات أبي على النيل وإعجابه به. كانت هذه أجمل الأيام . ومن ثم ورثت هذا الحب كشيء مسلم به .

صمت محمد وقطب حاجبيه :

- والكره أيضًا .

تساءل فخرالدين في دهشة :

- كيف يمكن أن يكون الكره مسلمًا به ؟

تقلصت عروق في رقبة محمد الشيخ وهو يستطرد :

- عندما يدق باب بيتكم الخشبي في فجر يوم عادي ككل الأيام ، ويهرول أبوك بلمبة الجاز في يده ناحية الباب وتتوارى أمك خلف الباب ، وتمسك أنت الكبير الصغير بتلابيب إخوتك الصغار المفزوعين ، وينفتح الباب ليدخل منه أفواج من العساكر بملابسهم السوداء والمخبرين بشواربهم وجلابيبهم المزيفة ، هؤلاء الذين عشت حياتك تبتعد عنهم إذا ما لقيتهم

في الطريق من فرط شرهم ، يدخلون جميعا إلى قلب بيتك ويدوسون كل شبر فيه ، كل شبر تنتهكه أحذيتهم الثقيلة المحملة بالطين وبالسلطة التي لا قاهر لها ، ويخرجون بعد أن يفعلوا ببيتك الذي كان قلعة أمنك ومستقرك ويأخذون معهم أباك رب البيت ومعنى الأسرة والطمأنينة ومصدر قوتك واحتمائك من الدنيا ، أباك حامي الحمى والظهر الذي كنت تختبئ فيه وتلجأ إليه من انتقام أطفال الحارة ، أباك اليد الكبيرة الخشنة التي كنت تتعلق فيها فتسلم لها نفسك في سكينة واطمئنان لا حد لهما ، يسحبونه أمامك على الأرض ويأخذونه في ظلمة ليلهم القابع خلف الباب الذي لم يعد يغلق عليك أبدا ولا تراه مرة ثانية .

- ألم تعرف أبدا أين ذهب؟

- قالوا لنا فيما بعد إنه رُحّل لسجن القلعة ثم لا أدري أين . ولكن اسمه مسجل دخول في سجلات سجن القلعة الحربي مع بقية أعضاء الإخوان المسلمين الذين تم اعتقالهم أيامها ، وغير مسجل في كشوف الترحيل أو الخروج ، ولا توجد معلومات أكثر من ذلك .

مسح محمد الشيخ وجهه بكف يده واجتهد في الابتسام قليلا . ثم استطرد حاكيا لفخرالدين عن الإخوان المسلمين وعن حياة أبيه المعطرة بالإيمان والصلاح والسيرة الطيبة . وكيف كان يقول دائمًا ، إن الإسلام دين المستضعفين في الأرض وثورة المستقبل وأمل الفقراء . حكى محمد كثيرا عن أبيه وعنه هو أيام كان في الجامعة أثناء مظاهرات 1971م وكيف احتلوا الجامعة والمطبعة وأجبروا السلطة على التراجع ، وأنه بنفس المنطق يجد من الضروري الآن تجميع كل القوى بغض النظر عن اختلافاتها من خلال اللجنة للعمل على إخراج الحرس من الجامعة وعودة حرية التعبير للطلبة.

* * *

حجرة صغيرة بيضاء الجدران . شباك خشبي واسع وأخضر اللون. على حافة الشباك بايب وعلبة كبريت . على المكتب الإيديال الرمادي القابع أمام النافذة جهاز تسجيل وشرائط عديدة ملقاة على سطح المكتب. من خلفه مكتبة خشبية تكدست فوقها أكوام من شرائط التسجيل وعدد من الكتب . سرير معدني معد بعناية أمّ ومفروش عليه ملاءة بيضاء ذات خطوط خضراء عريضة . من النافذة يمتد شارع ضيق مؤد إلى النيل.

- ما هذه الرفاهية يا عبيد؟ ساكن على النيل؟

ابتسم عبيد ومد يده ليعلى صوت البيتلز الآتي من التسجيل .

- هل جربت البايب؟

- جربته ولم يعجبني .

ضحك عبيد وهز كتفيه :

- أتعرف ما هو أحسن شيء في الدنيا؟ الـ «بيتلز» ، يلي ذلك الـ «سوبر ترامب» . اسمع هذه الأغنية مثلا ، كلماتها تقول : «عندما كنت صغيرا لم أكن أحتاج إلى أحد ، ولكن هذه الأيام ولت» .

توقف عبيد فجأة ونظر إلى فخر الدين متسائلا :

- هل قابلت محمد الشيخ؟

- نعم ، بالأمس .

عاد عبيد برأسه إلى جهاز التسجيل وأخذ يعبث ببعض الشرائط . ثم قال بهدوء :

- إذن احترس منه . محمد مباحث .

- 5 -

قال لي يحيى إبراهيم :

– وعبد الصمد هذا كلب من كلاب إمبابة . وهو أحد القاذورات التي جرها علينا شوقي كامل إذ عرَّفنا عليه باعتباره صديقه . وهذا الشخص خريج تجارة ورث عن أبيه ورشة تصنع التوابيت وخشب نقل الموتى وخلافه. ويبدو أن مهنته طبعت روحه بكآبتها . وهو له من الثقافة حظ لا أدري من أي صوب أتاه ، وكنت أعتقد أنه شيوعي وإن كنت أشك في أن يكون له أية معتقدات بالمرة . وقد بدأت المشاكل سريعا بعد ظهوره ، فبدأ بالذم لفخرالدين في شوقي ، إلا أن فخرالدين غضب وقال له إنه لا يحب ذلك أبدا وواجهه بشوقي مباشرة . إلا أنه استمر بعد ذلك في الذم في شوقي لآخرين في الوقت الذي كان مستمرا في ادعاء صداقته . بعد ذلك بدأ في ملاحقة لبنى مستغلا براءتها في الوقيعة بينها وبين شوقي أولا ثم في الوقيعة بينها وبين فخرالدين . وكان له ما أراد في النهاية . لعنة الله عليه. كان من بين الطعنات التي قضت على فخرالدين .

– ألم تنتبه لبنى لما كان يحدث؟

– لا أعلم إن كانت قد أدركت أم لا . في الحقيقة أنا لم أفهم أبدا كيف تخلت لبنى عنه بهذا الشكل .

– وأنت؟ ألم تلاحظ شيئًا من البداية؟

– الحقيقة أني كنت متغيبا هذه الفترة عن الجامعة . كانت إجازة نصف العام قد بدأت وكنت قد عدت لقضائها في قويسنا .

– ماذا كنت تفعل في قويسنا؟

أطرق يحيى إبراهيم لحظات يفكر ثم نظر إليَّ من خلف نظارته السميكة وقال :

– لا أذكر .

- 6 -

– البروفة في قاعة 2 يا لبنى .

التفتت لبنى إلى فخر الدين :

– حاضر سآتي حالا .

وأكملت حديثها مع عبد الصمد .

بدأ فخر الدين المشهد . أوقفه مراد الدسوقي :

– واحدة بواحدة ، نحن ما زلنا في البداية ولا داعي للعجلة . أنت يا وحيد ، ما هو مفتاحك؟

– القمر يا مريم .

– إذن لما فخر الدين يقول كلمة مريم تدخل أنت من العمق. بالضبط من عندك هنا ، تبدأ جملتك مع أول خطوة وليس عندما تصل لهدى . أوكيه؟

أعاد فخر الدين المشهد . قال :

– ولكن أين ذهب القمر يا مريم ؟

انفتح باب القاعة ودخلت لبنى وعبد الصمد . التفت الجميع إليهما .

خبط مراد الدسوقي على البنش الخشبي وقال :

– ما الحكاية يا لبنى؟ بطلت التمثيل وسكتنا ، ممكن تسمحي لنا نمثل؟

– آسفة ، اتفضلوا كملوا ، لم أكن أعرف أنكم بدأتم بالفعل في البروفة.

عاد فخر الدين للخلف . مالت لبنى على أذن عبد الصمد وهمست فيها

وتبادلا ضحكة . توتر فخرالدين قليلا وعلا صوته :

- الصوت في القاعة من فضلكم .

كحت لبنى :

- آسفين ، ممكن نمشي إذا حبيتم .

لم يرد أحد . تقدم فخرالدين :

- ولكن أين ذهب القمر يا مريم ؟

دخل وحيد زاعقا في نفس اللحظة التي انفتح فيها الباب محدثا أزيزا حادا وأطلت من فتحته رأس شوقي . نظر الجميع إليه ، وخبط مراد على البنش في استسلام :

- أوكيه يا جماعة ، استراحة .

نزل فخرالدين من على المنصة واتجه إلى حيث تجلس لبنى وانضم لهم شوقي الذي جلس بجوار لبنى من الناحية الأخرى . وقف فخرالدين أمامهم في المنتصف أمام لبنى . ابتسم شوقي ومد يده إلى كشكول لبنى وسحبه من أمامها . تصفحه بسرعة وهو يسألها :

- ما هي أخبارك؟

- ماشي الحال .

نظر عبد الصمد إلى فخرالدين وقال :

- هناك مسرحية ممتازة الليلة في المسرح الحديث ، تحب تشوفها؟

نظر فخرالدين إلى لبنى التي تفادت نظرته . تمتم في ضيق :

- لا ، لا أعتقد .

نظر عبد الصمد إلى شوقي متسائلا . أجاب شوقي على الفور :

- طبعا أحب .

انتقل بنظرته إلى لبنى :

- ها يا لبنى ، المسرحية الساعة 8 ما رأيك ؟

ردت لبنى :

- موافقة ، سأكون موجودة أمام المسرح .

* * *

مسح فخر الدين جبينه بيده محاولا فك التوتر الذي يعتريه منذ الصباح. الساعة الآن الخامسة ، والعرض المسرحي يبدأ في الثامنة ، وفي قلبه وجع حقيقي .

- فخر الدين، من فضلك ادخل غرفة الملابس واستعد للماكياج .

- هل وصل صلاح ؟

- لا، لم يصل بعد ، ادخل غرفة الملابس وانتظره بالداخل حتى يصل ويعمل الماكياج .

دخل فخر الدين إلى غرفة الملابس . على الجدران بقايا أسماء طلبة سابقين قدموا عروضا في مهرجانات سابقة ونقشوا أسماءهم على الحائط. جلس فخر الدين على الدكة الخشبية وأراح رأسه فوق ساعده . انفتح الباب ودخلت هدى .

- مساء الخير يا فخر الدين ، مستعد؟

أومأ فخر الدين برأسه وسأل :

- ألم ترى لبنى؟

- لا ، ممكن نراجع النص بسرعة؟

بدأت هدى المراجعة من الفصل الأول . توقفت .

- لا ، أرجوك . الدور محتاج انفعال أكثر من ذلك ، أنت غائب تماما ، مشاعر يا أستاذ ، مشاعر لو سمحت!

- آسف ، نبدأ من جديد .

* * *

مد صلاح يده أسفل عيني فخرالدين :

- لا ترمش .

رمقه مراد بنظرة نظام . ابتسم فخرالدين في وهن . استكمل صلاح لمساته في جفن فخرالدين . أعادت هدى تأمل وجهها في المرآة المثبتة بالحائط . انفتح الباب ودخل محمد :

- يا جماعة ، بسرعة أكثر من ذلك ، لجنة التحكيم على وشك الوصول.

- آه ، يا محمد ، لبنى وصلت ؟

تبادل محمد ومراد نظرة . رد محمد :

- لا ، لم تصل بعد .

بلع فخرالدين ريقه بصعوبة . تقلصت عضلات وجهه في يد صلاح .

- لا أرجوك ثبت عضلات وجهك .

تنهد فخرالدين وهو يكتم شقا يبدأ في قلبه :

- حاضر ، حاضر .

فتح مراد الباب والتفت لصلاح :

- باق كثير؟

- أمامي خمس دقائق بالضبط .

همس فخرالدين وهو يحاول أن يكون صوته طبيعيا قدر الإمكان :

- من فضلك يا مراد تحجز كرسي في أول صف على اليمين .

ضغط على لسانه واستطرد :

- باسم لبنى .

- حاضر!

قالها مقتضبا وصفق الباب وراءه . أكمل صلاح عمله ، أنهى تصفيف الشعر وتثبيته ، ابتعد قليلا لينظر لوجه فخرالدين :

- يا نهار اسود! شكلك فظيع! يا بني المفروض شكلك يكون شكل شاب سعيد مقبل على لقاء حبيبته ، أنت شكلك ميت! أعطيني بودرة حمراء يا هدى من فضلك . ابتسم ، ابتسم يا حبيبي من فضلك!

الثامنة إلا خمس دقائق . هرولة مراد ومحمد وبقية طاقم الإدارة المسرحية لا تنقطع . فخرالدين يتبادل مع هدى مراجعة النص والحركة في غرفة الملابس. صوت مراد يصل إليهما وهو يجري اختبارات الإضاءة النهائية . الموسيقى التمهيدية بدأت تعلو في الصالة . أغلق محمد باب الغرفة المؤدي للصالة . ووقف مراد عند أول الكواليس :

- كل شيء جاهز ، سنبدأ .

وقف فخرالدين حاملا ورودة الحمراء عند مدخل خشبة المسرح . موسيقى «مون امور» تعلو رويدا رويدا مع انفتاح الستار . رءوس المتفرجين تبدو شاحبة وصغيرة وكثيفة . أضواء «البروجكتور» تعشى عيني فخرالدين. في الصف الأول في الصالة ، على أقصى اليمين ، لمح فخرالدين مقعدا خاويا ، على ظهره ثُبتت ورقة بيضاء .

- 7 -

ابتسم شوقي كامل في وجهي بنصف شفتيه ، وأردف :

- ياه ، لقد ذكرتني بأجمل الأيام . رحمه الله . كان قلبه ضعيفا ونفسه حساسة أكثر من اللازم . لم يحتمل الصدمة وراح فيها . لو كان تحمل قليلا وبلع الموضوع كان هضمه مع الوقت . كان تعود وعاش وأصبح مثلنا . كلنا قابلنا مشاكل وصدمات لكن استطعنا أن نتكيف معها . خسارة، راحت حياته بلا جدوى .

- ...

- طبعا كنا أصدقاء مقربين جدا ، وأنا أذكر جيدا ليلة وفاته .

بعد المسرحية مباشرة كان في حالة غير طبيعية لكني ظننت أنه الإرهاق من العمل والتوتر في الأيام الثلاثة الأخيرة . كان يشعر بدوخة وبأن ظهره يخبط في صدره من حين لآخر ويضايق تنفسه، وكان يترنح قليلا فسندته حتى وصلنا غرفته بالمدينة الجامعية . تركني في الغرفة وراح دورة المياه . لما تأخر خرجت لأرى أين هو فوجدته ملقى على الأرض في الصالة الرئيسية أمام الباب . جريت ناديت المشرف الذي استدعى الإسعاف بسرعة ونقلوه إلى مستشفى الطلبة . لكن الهبوط الذي أصابه كان حادا جدا لدرجة توقف معها وصول الدم للمخ وهو في سيارة الإسعاف ، وعندما وصل للمستشفى كان الموضوع انتهى . رحمه الله ، كان ممدا بجواري وكنت أرى وجهه ، ويومها بكيت ، وظللت أقول له : لماذا يا فخرالدين، لماذا يا بني ، هل يموت أحد من أجل فتاة تركته؟! يا بني اعقل، يا بني ارجع . لكن طبعا كان كلامي هو الجنون بعينه : لأن الموضوع كان انتهى . الله يرحمه،

كان صديقًا وشابًا ممتازًا ، لكنه كان هشًا زيادة عن اللزوم وكان مثاليًا أيضًا زيادة عن الممكن. تصور أنه أحب البنت لدرجة أنه وضع عليها كل أحلامه وحياته؟ وضعها عليها فعلا وليس بالكلام ، وكم حذرته من ذلك . ولذا لم يحتمل الصدمة عندما تركته . الله يرحمه ، لم تكن له هذه الدنيا .

* * *

- كان اليوم عاصفا . بدأت المظاهرة عند سلم كلية الحقوق أمام مكتب حرس الجامعة ، وكان غضب الله باديا على وجه المقدم ماهر قائد الحرس. والتقت المظاهرة عند تحركها بمظاهرة أخرى قادمة من عند كلية الآداب وسارت باتجاه كلية السياسة والاقتصاد والإعلام حيث انضمت أعداد جديدة لها ، وتجمعت أمام كلية التجارة حيث وقعت أولى المصادمات بين الطلبة وإدارة الجامعة ؛ إذ صفع عميد الكلية قائد المظاهرة على وجهه وشتم بقية الطلبة المشتركين في المظاهرة ناعتا إياهم بألفاظ يحول قانون الآداب العامة دون ذكرها ، فهجم عليه الطلبة وضربوه بالجزم ولم ينقذه سوى عساكر الأمن الذين أخذوه في سيارة الشرطة «النصف نقل» إلى خارج الجامعة . وعند الظهيرة كان فخر الدين قد تولى قيادة المظاهرة ومر بها إلى كليات العلوم والآثار ودار العلوم ثم عاد بها وتجمع كافة الطلبة أمام القبة . كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهرا والهتافات ما زالت مستمرة. وكان فخر الدين قد ترك قيادة المظاهرة بعد أن شكل الطلاب لجنة لمقابلة رئيس الجامعة فآثر ألا يكون من ضمنها ، وتوجه للاطمئنان على سير

الأحوال . وكانت الأمور حتى ذلك الوقت تسير على ما يرام ، فبحلول الثانية ظهرا كان علم اتحاد الطلبة يرتفع فوق برج الساعة التي أخذت تدق دقات متواصلة إيذانا باستيلاء الطلبة عليها ، ووقعت المطبعة أيضًا تحت سيطرة الطلبة وغادرها العمال في هدوء ، ولما رأى رجال الحرس أن الوضع قد تأزم تحصنوا بمكاتبهم ولم يغادروها وظلوا طوال الوقت يتبادلون المكالمات التليفونية مع وزارة الداخلية . وعند الثالثة ظهرا كانت تعزيزات من قوات الأمن قد وصلت وانتشرت بطول شارعي الجامعة وثروت . وكان الطلبة قد ثبتوا بالفعل ميكروفونا أعلى البرج وبدءوا يذيعون منه الأغاني والبيانات .

- وأين كان فخرالدين؟

- كان ينتقل بين الكليات ، وحوالي الساعة الرابعة قابل أول مرة مجموعة الفتيات الآتيات من كلية دار العلوم واللواتي أخبرنه أنهن قد خرجن في المظاهرة ، لأنهن قد سمعن أن ضابطا بالحرس قد اعتدى على إحدى الطالبات ، وقد فزع فخرالدين لما سمع بهذا ، ولما استقصى الأمر تأكد من أن هذه القصة الوهمية منتشرة بين كل طلبة وطالبات دار العلوم وبدأ يحس رائحة خيانة مجموعة دار العلوم للاتفاق الذي توصلوا إليه في اللجنة. وعندما قابل كوادر الجماعات الإسلامية وأخبروه أن الشيخ قد اتفق معهم على تضمين مطالب الحركة فرض الزي الإسلامي بالجامعة تأكد لديه إحساسه ، وقد أصابه ذلك بغضب شديد فطفق يبحث عن أعضاء اللجنة ، ووجد الشيخ ومنيب في المطبعة يتشاجران حول البيانات التي سيطبعونها؛ إذ كان الشيخ مضطرا على حد قوله لتمرير بعض البيانات التي أعدها

شباب الجماعات الإسلامية ، وتطور الأمر إلى الصدام بين أعضاء اللجنة وكوادر الجماعات الذين استخدموا الجنازير في إنهاء الخناقة وانتهى الأمر باستيلائهم على المطبعة كاملة وطرد الباقين منها.

في نفس الوقت كان شباب النادي قد أحكموا قبضتهم على برج الساعة وبدءوا يذيعون أغاني الشيخ إمام .

وبحلول الخامسة كان طلبة دار علوم قد أدركوا أنه لا يوجد ضابط ولا طالبة ولا اعتداء فبدءوا في الخروج من الجامعة .

– وهل ظل فخرالدين في المظاهرة أم خرج؟

– عندما التقيت بفخرالدين كان حزينا للغاية ويكاد الدمع يفر من عينيه وقال لي :

ما العمل مع هؤلاء الهمج؟ كل ما اتفقنا عليه غيروه وبدلوه وفعلوا مثل من كنا نعارضهم .

وكان يريد الخروج من الجامعة وترك المظاهرة ولا يقدر، ويريد البقاء فيها ولا يقوى ، وظل في هذه الحالة حتى اقتحمت قوات الأمن الحرم الجامعي عند منتصف الليل واعتقلته فيمن اعتقلت.

«من أقوال سيد أبو الخير»
في محضر الشرطة

الساعة تشير إلى الواحدة صباحا . لم يبق سوى ساعتين على صلاة الفجر . لملم فخرالدين نفسه في نفسه وهو يلتصق بجدار جامع صلاح الدين . الأرض العشبية في حديقة الجامع مبللة ولكنها أكثر دفئا من سلم الجامع الرخامي . موضع الإصابة في كتفه ينز ألما . وضع ساعده تحت رأسه وغاب شيئًا فشيئًا في بحر البرد اللاسع ووجع الإصابة ونخر العظام من الانثناء في البرد . مدد جسده كله على الفراش الأبيض الوثير وسحب الملاءة البيضاء على جسمه . التدفئة في الغرفة تداعب النوم وتناغيه . مرت الممرضة أمامه وانحنت على وجهه بابتسامتها الحنونة والكاب الأبيض على رأسها . سحبت الغطاء على فخرالدين وربتت على رأسه وأغلقت الضوء الخافت والباب خلفها . دوى صوت المؤذن فجأة فشق الصمت وفضاء الغرفة والملاءة والحلم وجسد فخرالدين المتيبس من البرد . قام للمسجد فغمره دفء الجامع حين دخل وأغراه بالتمدد فورا على هذا السجاد الأخضر الكثيف . اتجه للمراحيض وشمر ساعديه ليتوضأ .

- تقبل الله .

- تقبل الله منا ومنك .

انسحب فخرالدين للوراء وانكمش بجوار أحد الأعمدة . الإصابة في كتفه خفيفة . طلقة رش ليس أكثر . لكنها مؤلمة . خرج المصلون تواترا ولم يبق سواه وسقف الجامع العظيم الزخارف والقباب والاحتواء .

- هيا يا بني .

زعق الرجل الواقف قرب الباب .

- سأجلس قليلا هنا يا عم .
- الجامع سيغلق يا بني ، هيا .

اقترب فخرالدين من الرجل . ضئيل الجسم ، في الخمسينيات من عمره ، يرتدي بدلة زرقاء كعمال السكك الحديدية ، وجهه نحيل يبين فيه الصدغان .

- سأظل هنا للصباح يا حاج فليس لي مكان آخر أبيت فيه .
- ممنوع يا بني . الجامع سيغلق .

* * *

شارع القصر العيني خاو على عروشه . ذهبت السيارات والأوتوبيسات والدخان ومطاعم الفول . مر فخرالدين أمام دار الحكمة . جلس على سلالمها قليلا . يخشى العودة للمدينة الجامعية الآن . لا بد أن رجال الأمن ينتظرونه هناك . مر أمام مبنى الحزب الوطني ودار الشعب وروز اليوسف ومحطة بنزين التعاون . مر أمام المسرح الحديث والبنوك الأجنبية . كل الأبواب والنوافذ مغلقة والأنوار مطفأة . عرج على ميدان سيمون بوليفار وشق الطريق عائدا من جاردن سيتي . المنازل العتيقة مَلْأى بالآباء والأمهات وغرف النوم الدافئة . أضواء خافتة ومتناثرة في أدوار متباعدة تؤكد حقيقة وجود هذه المنازل واحتوائها على حيوات محتواة ومدفئة . بدايات ضوء النهار توجع العين وتُزيد الصداع تمكنًا من الرأس والألم نخرا في الكتف . لحم الجسم يتفتت إلى قطع صغيرة لا نهائية تشتاق إلى الضم والاستراحة . لا ، لا أحد .

* * *

دفع فخرالدين الباب الحديدي الأخضر ودخل . سيارات الإسعاف القديمة تقف مطفأة الأنوار في فناء مستشفى الطلبة . تقدم إلى شباك الاستقبال . لم يكن أحد هناك . انتظر قليلا ثم بدأ ينادي . ظهر من خلف الحاجز وجه مستيقظ من النوم لتوه . نظر فخرالدين إليه ؛ كان وجهه نحيلا يبين فيه الصدغان ، ضئيل الجسم ، في الخمسينات من عمره ، يرتدي بدلة زرقاء كعمال السكك الحديدية . نظر إلى كتفه ثم إليه وقال بارتياب :

- أي خدمة؟

تقدمت سيارة الشرطة «النصف نقل» في شارع الزيات حتى نهايته ثم استدارت يمينا في شارع التحرير ومضت في هدأة الصبح في اتجاه ميدان الدقي . قبيل الميدان انحرفت السيارة يمينا ومرقت من شارع السبكي للشارع المجاور ، اجتازت حاجزا وتوقفت . نزل منها فخرالدين يصحبه رجلان . صعدا السلم الرخامي لمبنى مباحث أمن الدولة ودخلوا من الباب. أعشى عينيه الضوء الأبيض الباهر الذي يملأ الصالة . توقف الرجلان وقال أحدهما :

- لحظة من فضلك .

غاب الرجل وتركه واقفا بالصالة وحده . عاد بعد دقائق:

- تفضل استرح .

جلس فخرالدين على أحد المقاعد الجلدية السوداء . المقعد شديد البرودة . غاص به محدثا صوتا من خروج الهواء منه . الصالة بيضاء الجدران . لا صوت . مرت ربع ساعة ثم عاد الرجل وقاده إلى ممر هادئ الإضاءة قليلا . سجادة حمراء رسمية تمتد على الممر وتمتص أصوات

الخطوات . فتح الرجل بابا في نهاية الممر وضغط على زر النور وأشار لفخرالدين بالدخول . دخل . جذب الرجل الباب فأغلقه وتك المفتاح تكتين في القفل .

الغرفة خالية . كرسي خشب في أحد الأركان . نافذة مغلقة . لوحة زيتية وساعة معلقتان على الحائط . الحوائط بيضاء . الأرض مغطاة بموكيت أخضر . مصباح نيون أبيض قوي في السقف يزّن طوال الوقت . مقعدان جلديان متباعدان بجوار أحد الجدران . لا أحد في الغرفة . جلس فخرالدين على أحد المقاعد .

نظر فخرالدين في الساعة : الثامنة . الساعة تحدث تكات مسموعة . عقرب الثواني يمر ثانية بثانية . تربص فخرالدين بعقرب الدقائق حتى رآه يتحرك . دقيقة . دقيقتين . ثلاث دقائق . كتفه يؤلمه .

نظر فخرالدين في الساعة : العاشرة . كتفه يؤلمه .

انفتح الباب في الثانية عشرة . أطل رجل بدين مربع الوجه ذو نظارة . قال :

– فخرالدين عيسى هاشم ؟

– نعم .

– استرح قليلا .

وأغلق الباب قبل أن يسمع ردا .

في الواحدة ظهرا ، كان الألم في كتفه عميقا ويمنعه من التركيز . جذب المقعد الجلدي الآخر بجوار مقعده وتمدد فوقهما . الجو بارد . انفتح الباب ودخل محمد الشيخ وشوقي وسهير ومنيب وأحمد ومنى حمدي وليلى السرجاني وعبيد وجمال وفطيمة والمخرج المشهور أحمد مراد والفنان إبراهيم عوض وطارق بسيارته البيضاء وأستاذ القانون الدستوري ممسكا

ببيانات النادي ، ومراد يفتش الصالة بحثا عن لبنى ، ويحيى إبراهيم يمسح نظارته ، والسيد أبو الخير يبتسم وعبد الصمد يمسك بتابوت ممتلئ بزجاجات بيرة وبدءوا جميعا في الشرب . خلعت سهير ملابسها ووقفت ترقص بساقيها السمر النحيلتين بينما أخذت منى وليلى تتبادلان قبلات محمومة بجوار المقعد الجلدي . محمد الشيخ قفز إلى الحائط والتصق باللوحة الزيتية وأخذ يخطب على منبر جامع السلطان حسن . شوقي يجذب فطيمة من ذراعها وهي تمد يدها لتطبق على صدر فخرالدين . صوت صلاح الدين يردد في التليفزيون : آن للفارس عيسى أن ينصرف آن للفارس عيسى أن ينصرف ولويزا تنادي : عيسى . يحيى يحمل حقيبته الجلدية ويخرج مودعا إلى قويسنا ، السيد أبو الخير يبتسم للمخرج أحمد مراد وهو ينسحب منحنيا ، الجو يختنق بأنفاس فطيمة الرابضة على صدر فخرالدين وشوقي يجذبها بلا فائدة . طارق يقود سيارته البيضاء في أرض طابور المدرسة ويكسر الإشارات، صوت محمد الشيخ يعلو من فوق المنبر مناديا فخرالدين والسيد أبو الخير ينحني مبتسما ، رأس جمال الصغيرة تهتز بانفعال بين كتفيه الضيقتين وهو يرقب سهير وهي ترقص بين أحمد ومنيب وشوقي. تصاعدت حركات عبيد المجنونة وهو يرقص على أنغام لا يسمعها سواه ، ناصر يحمل حقيبته الجلدية ويخرج مودعا إلى أرض المطار الجديد ، يبتسم للصورة الفوتوغرافية في شهادة الجي سي إيه ، ابتسامة فطيمة تتسع وهي تقرب وجهها من وجه فخرالدين وأنفاسها تخنقه، صوت الشيخ يعلو وهو ينادي : فخرالدين، يا فخرالدين. ابتسامة فطيمة تتسع وتتسع ، ابتسامة رسمية ومهذبة . هز العقيد سمير كتف فخرالدين بقوة ففتح عينيه . وجه العقيد يبتسم ابتسامته الرسمية المهذبة :

- صح النوم ، يبدو أنك مرهق .

اعتدل فخرالدين في جلسته ونظر حوله . اعتدل العقيد سمير في وقفته وواصل الابتسام . نظر فخرالدين إلى الساعة المعلقة في أعلى الغرفة وإلى الفراش الأبيض من تحته . كانت رأسه ما زالت تدور ورائحة الفينيك والبنج تملأ أنفه . نظر إلى الساعة ثانية : السابعة . آلام في ظهره ، وفي كتفه شاش أبيض .

* * *

أعاد العقيد سمير ظهره للوراء . استند لكرسيه الجلدي الفخيم . على مكتبه الفسيح كوب من الشاي يتصاعد منه البخار . صورة رئيس الجمهورية تتوسط الجدار خلفه ولوحة زيتية على اليمين . فرك العقيد سمير عينيه مرة أخرى وثبت نظارته وتوقف عن الابتسام . أخرج من الدرج ملفا ووضعه أمامه على المكتب الخالي . فتح الملف ونظر فيه. رشف رشفة من كوب شايه وأعاد الكوب إلى المكتب . نظر إلى فخرالدين من أعلى النظارة .

- فخرالدين عيسى هاشم . من مواليد 1967م . طالب بكلية الحقوق جامعة القاهرة . السنة الثانية . تقدير عام جيد بالسنة الأولى . تقطن بالمدينة الجامعية .

نظر إليه ثانية من فوق النظارة .

- مضبوط ؟

- مضبوط .

- متى انضممت للنادي ؟

- ...

- انضم لنادي الحركة الطلابية في يناير الماضي وهو طالب بالسنة الأولى . ويمارس نشاطه بشكل منتظم في النادي منذ ذلك التاريخ . وابتداء من أكتوبر الماضي أصبح من قيادات اللجنة الوطنية للدفاع عن حقوق الطلبة والمسئولة عن التنسيق بين التيارات والجماعات المختلفة داخل الجامعة كلها . من مدبري المظاهرات هذا العام (مرفق الصور) وكاتب عدد من منشورات اللجنة وبياناتها . مشترك بفريق المسرح منذ السنة الأولى . من الذي أدخلك النادي ؟

- ...

غمغم العقيد ثم استطرد :

- تم تجنيده عن طريق كل من شوقي كامل الطالب بالسنة الثانية بكلية الحقوق والذي كان يتردد عليه بشكل مستمر في غرفته بالمدينة الجامعية خلال العام الماضي ويحيى إبراهيم الطالب بكلية الآداب والذي يشاركه غرفته هذا العام.

صمت العقيد لحظة ثم نظر إلى فخرالدين :

- اسمع يا فخر . في الحقيقة أنا ليس لدي وقت لأضيعه معك في استجواب لا قيمة له ، فلدي كل المعلومات التي أحتاجها هنا.

- إذن لماذا قبضتم عليَّ؟

زعق العقيد بغتة :

- أنت لا تسأل . أنت هنا لتجيب فقط . فاهم ؟

تناول كوب الشاي ورشف منه رشفة . استطرد بهدوء :

- قل لي إذن ، ما الذي دفعك للانضمام للنادي وتدبير هذه المظاهرة؟

* * *

كان سيد أبو الخير تعيسا وشبه منهار . ربت فخرالدين على كتفه وهما يتجهان ناحية الغيطان خلف أبي قتادة . الشمس تتهيأ للغروب خلف مساكن مدرسي الجامعة العائدين من الخارج وتصيب السماء بحمرة قانية . سارا قليلا حتى بلغا الحقول وجلسا على جذع شجرة ميتة . بكى سيد كثيرا وفخرالدين صامت يرقب الأفق . عندما تمالك سيد نفسه قليلا بدأ يحكي عما حدث له في مباحث أمن الدولة منذ ذهب هناك بناء على تعليمات المقدم ماهر . وكيف ظلوا يضغطون عليه نفسيا وجسديا .

– لا لم يعذبوني مثلما نرى في الأفلام ، ولكن لهم طرق أخرى . مزيج من التخويف والتشكيك والتحقير ، مع إنهاك جسدي ومعنوي يجعلك غير قادر على المقاومة . شيء فظيع .

انهار سيد أبو الخير مرة أخرى في البكاء . وطوال المساء لم يستطع فخرالدين أن يتحدث معه . كان غائبا تماما . فجأة يعود للحديث ويقص مقاطع مما حدث له ثم يجهش بالبكاء لمدة طويلة ويغيب عنه كأنه لا يشعر بوجوده . وفي الصباح لم يجده فخرالدين في غرفته ولا في الكلية ولم يره بعدها لمدة أسبوع علم فيها أنه قد سافر للبرلس .

* * *

– اسمع يا بني ، الساعة الآن الثانية عشرة ، وأنا بصراحة تعبت منك .

– وماذا بيدي يا سيادة العقيد؟

– ماذا بيدك؟ يا بني صار لي خمس ساعات أتكلم معك وأسألك وأنت تلقي عليَّ خُطبًا . حضرتك فاكر نفسك واقف في المظاهرة؟ المظاهرة انتهت يا حبيبي وأنت الآن مقبوض عليك وأنا أحقق معك . جاوبني إجابات

عاقلة . أنا لا أريد سماع خطب عن الحرية والدستور والتعبير عن الرأي . يا بني هناك أساليب أخرى بإشارة واحدة من يدي أستعملها معك ولن يكلفني الموضوع شيئًا .

- أنا أجيب على أسئلتك بصراحة .

- بصراحة؟ حضرتك فاكر نفسك سعد زغلول؟ يا بني أفق وكلمني بلغة أفهمها .

مسح فخرالدين وجهه بيده وأطرق قليلا . ثم نظر للعقيد سمير وقال:

- اسمعني يا سيادة العقيد . أنت تتحدث باسم السلطة وبقوتها . ولذا أنت تعتقد أنك تحتكر الصواب لأنك أقوى ، وهذه هي المشكلة الرئيسية التي تحول دون حدوث تفاهم بيننا . أنا أعلم جيدا أنك أنت الأقوى الآن لأنك تسيطر على وسائل القوة التي تضعها السلطة تحت تصرفك ، وأنك تستطيع فعلا بإشارة منك أن تعرضني لأساليب أبسط ما توصف بها أنها غير إنسانية . أنا أعلم كل ذلك ، ولكن ذلك كله لا يجعلك على صواب . وأنا أعلم جيدا أنك مخطئ لأني أدافع عن حقوقي البسيطة جدا والتي لا يستطيع أحد أن ينكرها . أنا لا أفعل شيئًا يهدد أمن الدولة . أنا معترف أني عضو بالنادي الذي ذكرته ، وبأني عضو باللجنة المسئولة عن تنظيم المظاهرة ، ولكني أقول في نفس الوقت إن ذلك ليس فيه ما يخل بالقانون بل هو من ضمن حقوقي الأصيلة التي يكفلها الدستور لي ولكل مواطن ، ومستعد لأن أقول ذلك في أي محكمة .

فرك العقيد سمير ذقنه بيده وهو ينظر نحو الباب ، خرجت الكلمات ببطء من بين شفتيه :

- هل تعرف ما هي المشكلة؟ المشكلة أنك لا تعيش في الدنيا أساسا. أنت شخص وهمي . لقد قابلت في مهنتي هذه أصنافًا شتى من البشر ،

منهم المغفلون المضحوك عليهم بكلمتين ، ومنهم الأذكياء الذين ضحكوا على المغفلين ، وأنواع كثيرة من هذا على ذاك . أنت شيء مختلف تماما . أنت وهمي . مائة في المائة .

ضغط على جرس بجوار الكرسي فظهر رجل على الباب يرتدي بدلة زرقاء كعمال السكك الحديدية . قال له العقيد سمير دون أن ينظر إليه .

- خذه من هنا . ضعه في الحجز .

* * *

تغير سيد أبو الخير ، تغير كثيرا . لم يرد فخرالدين أن يرجع ذلك إلى رحلته إياها إلى مباحث أمن الدولة وإنما قال ، ربما هو الوقت ، ربما النضج، ربما أدرك عمق الأزمة وتعقيدها ومن ثم استحالة تغيير العالم كله في يومين . ولكن سيد أبو الخير كان قد تغير بأعمق من ذلك. تغير من داخله . أصبح دائم الغياب وبعيدًا ودائم التحجج بمواعيد لديه أو بأناس سيقابلهم أو سيتصل بهم أو بسفر للبرلس أو بأي شيء في الدنيا ليبرر اختفاءه . لم يتوقف عن حضور اجتماعات النادي أو اللجنة ولكنه كان شاردا طوال الوقت . كأن شيئًا ما في روحه انطفأ . صارت عيناه أقل ثباتا، وصار يحدق في الأرض وهو يكلم الناس ولا ينظر أبدا في عيونهم . قَل كلامه وصارت قصائده أكثر إلغازا وضاعت منها رائحة البحر وخشونة الرمل والصدف . تحسنت أحواله المالية وإن كان قد أصبح يبتعد بالحديث عن سيرة أهله أو أحوالهم . نعم ، تغير فعلا سيد أبو الخير .

* * *

في الحجز ، وجد فخرالدين يحيى جالسا على الدكة الخشب مادًا ساقيه أمامه وعاقدا يديه على حجره . نظارته السميكة ملقاة بجواره على الأرض، مهشمة ، وشاربه طال وتدلت شعيراته على شفته . كان ينظر للسقف أو للجدار . وعندما وضع فخرالدين يده على كتفه انتفض ونظر إليه ، دقق النظر فيه فلما تعرف عليه التصق به وركن رأسه إلى صدره في صمت .

- تخيل! لم أعرفك إلا من صوتك.

- هل كسروا لك النظارة؟

تنهد يحيى :

- النظارة؟ وهل لم يكسروا سوى نظاراتنا يا عزيزي ؟

صمت فخرالدين . كانت يده ما زالت على كتف يحيى وشعر بالدفء لأول مرة منذ أيام طويلة يتسلل إليه .

- كيف حالك يا حسام؟ وكيف حال العرب؟

- العرب في أسوأ حال يا مولاي ، لا أمل لهم غيرك . العرب ينتظرون أن تُلبي أخيرًا نداءهم .

- ماذا كان هذا؟

سأل فخرالدين وهو يمعن في التذكر .

- معقول نسيت؟ هذا صلاح الدين .

- نعم إنه هو هو ، اسمعوا ، هذه طبوله ، انظروا هذه بشائره .

ابتسم يحيى إبراهيم لأول مرة منذ عدة ليالي . رفع رأسه ونظر إلى فخرالدين وابتسم ثم ألقى بها ثانية في استسلام :

- أنت أروع شيء في الدنيا يا فخرالدين .

ضحك فخرالدين ونظر إلى يحيى . كان تائها بدون نظارته ولم يكن يرى تقريبا.

* * *

استقبله العقيد سمير بابتسامة واسعة. كان فخر الدين خائر القوى تماما.

- تفضل. استرح. أنا آسف جدا. أتعبناك معنا. تفضل.

جلس فخر الدين على المقعد.

- اسمعني جيدا يا فخر. لقد فحصنا ملفك جيدا، وفحصنا أقوالك، وتناقشنا فيها، وخلصنا إلى شيء واحد، إنك عنصر ممتاز. طالب مجد وممتاز. محب لبلدك وتخاف عليها. وأنا شخصيا سعيد جدا بهذه النتيجة. تشرب شاي؟

- شكرا.

ضغط العقيد على الجرس دون انتظار الرد. ظهر الرجل على الباب:

- واحد شاي بسرعة. اسمعني يا فخر وفتح آذانك جيدا سأدعك الآن تخرج وتعود للمدينة، بعد ما تشرب الشاي طبعا. لكن أريدك أن تتأكد من شيء واحد؛ نحن هنا لسنا أعداءك أبدا، لسنا أعداء للطلبة ولا لأي أحد آخر. نحن كلنا شركاء وهذه بلدنا كلنا، كلنا نتعاون معا ونعمل من أجل مصلحة بلدنا لكن بطرق مختلفة، كل في موقعه.

انفتح الباب ودخل الرجل حاملا كوب الشاي. وضعه أمام فخر الدين. البخار يتصاعد منه دافئا. نظر فخر الدين للكوب. لم يكن قد وضع شيئًا في معدته منذ يومين. تقلصت معدته أمام الشاي الساخن. أكمل العقيد:

- نحن مثلا، عملنا هو الحفاظ على الأمن. على النظام العام. من أجل أن يتاح للجميع فرصة التعبير عن رأيه في نظام ودون تهديد لسلامة الدولة. أرأيت الجماعات الإسلامية وما فعلوا يوم المظاهرة؟ بالجنازير! ضربوكم بالجنازير ليستولوا على المطبعة. هل يرضيك هذا؟

- لا، ولكن ...

- وأصدقاءك الآخرين! الشيوعيين والناصريين وخلافه ، أيضًا استخدموا العنف لمنع الآخرين من الدخول لبرج الساعة . كل هذا خطأ وغلط. نحن لسنا ضد مصلحة البلد؟ طبعا لا ، لكن المشكلة بالنسبة لنا، والتي عادة ما توقعنا في أخطاء مثل خطأ القبض عليك ، والتي تتسبب في تشويه صورة الجهاز لدى الناس ، المشكلة أننا ليست لدينا المعلومات الدقيقة التي تمكننا من التمييز بين الوطنيين وبين المغرضين 100% ، ومن ثم نضطر أحيانا إلى أخذ الطيب مع الرديء للاحتياط . اشرب الشاي اشرب .

- ...

- من ثم فمن مصلحة الجميع ، مصلحة البلد ، ومصلحة الطلبة، والجامعة ، ومصلحتنا ، أن تكون معلوماتنا دقيقة . نحن طبعا لنا عيون وآذان في كل مكان ، بما في ذلك الجامعة والمدينة ، لكن مستوى دقتهم يحتاج دائما إلى تصحيح ، وهذه مهمة تحتاج إلى شباب وطني واع لحقيقة مصلحة بلده وبعيد عن الشعارات الطنانة والغوغائية التي عانيت أنت منها ، شباب متحمس ولكنه بعيد النظر وعاقل ، يقوم بتدقيق معلوماتنا بإخلاص وبفهم ليساعدنا على معرفة الطيب من الرديء . ولن أطلب منك شيئًا محددًا ؛ مجرد اتصال تليفوني مرة كل فترة . رقم تليفوني في هذا الكارت . خذ .

مد العقيد يده ووضع الكارت بجوار كوب الشاي :

- اشرب شايك .

* * *

الجو بارد بالخارج . فخرالدين مندس تحت البطانية على مرتبته

الصغيرة الممدة على الأرض . صوت محمد منير يأتي دافئا من التسجيل الصغير . يحاول أن ينام ساعات قلائل قبل الغد . دق قلبه بعنف عندما فكر في الغد . هل سننجح؟ دق الباب بخفة فدق قلب فخر الدين أكثر . فتح فخر الدين الباب . جمال . يا ساتر! دلف جمال بسرعة وأغلق الباب وراءه :

- اسمع يا فخر الدين ، لا بد من أن أرجع حالا . عبيد وأحمد قُبض عليهما أمس في بنها . كما ذهب عساكر للقبض على الشيخ وعليٍّ ولكننا لم نكن في بنها . يبدو أن البوليس عرف بموضوع مظاهرة باكر .

وجم فخر الدين . تمتم :

- وكيف سيعرف البوليس؟ هذا الموضوع لا يعرفه سوانا نحن العشرة؟

* * *

خلع العقيد نظارته وفرك عينيه . هز رأسه يأسا وهو ينظر للساعة .

- اسمع يا بني . أنت طلعت ديني . وبصراحة ليس لدي وقت أكثر من ذلك لأضيعه معك . أنت فاكر نفسك بطل ونبي . لكن الحقيقة أنك لا شيء إطلاقا . أنت وهمي وغير موجود . ولا قيمة لك . وإن كنت تريد الخروج الآن والذهاب لميدان الدقي لتصرخ بأعلى صوتك وتشتم رئيس الجمهورية فلا مانع لدي . تفضل وأنا أعدك أنه لن يتعرض لك أحد من الشرطة . هل رأيت الرجل المجنون الذي يسير في شارع القصر العيني وهو يربط أعلام أمريكا في قدميه وماشي يدوس عليهم ويسب في أمريكا وفي الحكومة؟ هل تعتقد أني أهتم به؟ أنت مثله بالضبط بل أسوأ . على الأقل هو يقول رأيه بقوة ، أما أنت فتحاول النفخ في ميتين. تفضل . انفخ مثلما تريد . لكن بعيد عن دماغي . أنت لا تصلح لأي شيء في الدنيا . ولا حتى مخبر . لكن أحب

أن أقول لك شيئًا واحدًا قبل ما تخرج . المعلومات تصل إليَّ . ولو حبيت أجيب لك صورتك وأنت في حمام المدينة الجامعية ممكن أجيبها . أنا لا شيء يقف أمامي . أنت الخاسر . وأنت الجاني على نفسك . لو كنت بتفهم كنت تعاونت معي . ولعلمك نصف الجامعة تتعاون معنا. لكن أنت حمار . وأنا لا أحب الحمير .

- ...

- لكن قبل ما تمشي أحب أفرجك على شيء واحد . تعال . قرب . هذه صورك يا بطل الأبطال في المظاهرة . مضبوط؟ وهذه البلاغات؟ أتراها؟ بلاغات من شهر . من ستة شهور . بلاغات من السنة الفائتة .

بخط من هذه؟ عرفت؟ هذا خط حبيبك . شاعر الوطن الممزق . سيد بك أبو الخير .

- 9 -

- كلام غير صحيح طبعا .

ابتسم سيد أبو الخير وهو يهز كتفه هازئا . دفع نظارته بين عينيه وعاد بظهره إلى الوراء في كرسيه الفسيح . خلف المكتب . صورة رئيس الجمهورية تتوسط الجدار وعلى الجانب لوحة زيتية .

- من الذي قال لك هذا الكلام الفارغ؟ فخرالدين مات؟ طبعا كلام فارغ . فخرالدين زميلي وصديقي وأعرفه جيدا . لقد تخرج في الكلية وعمل قليلا بالمحاماة ثم سافر للخارج . هاجر أعتقد . لست متأكدا في الواقع إن كان قد عاد فقد انقطعت صلتي به منذ سافر .

- ولكن لدي شهادات تشير لموته في السجن أو بتعبير أدق في مستشفى

الشرطة أثناء اعتقاله بعد مظاهرات الجامعة .

- غير صحيح . الواقع أن فخرالدين تعب صحيا ونفسيا أيضًا بعد مظاهرات الجامعة هذه . وظل بعدها فترة في حالة اكتئاب ولا يكاد يخرج من غرفته ولا يكلم أحدًا ولا يرد على أحد . حتى عليَّ أنا . وكان مجلس الكلية قد اجتمع وقرر فصله . ولكن بعد وساطات من جانب الزملاء استطاعوا إقناعه . وكان البطل الرئيسي في هذه الوساطات هو ناجح رئيس اتحاد الطلبة والذي أقنع فخرالدين بأن «يلم الدور» . وفعلا ذهب فخرالدين وقابل الدكتور سعيد والدكتور يونس واتفق معهما بمعنى أو بآخر . وعاد للدراسة . لكنه كان قد تغير كثيرا . صار حاد الطباع ، قاسيا. ولم يكن يطيق أحدا أو يكلم أحدا . وكان لا يذهب للكلية إلا نادرا، لبعض المحاضرات أو للامتحانات . ثم أنهى الدراسة وعمل بالمحاماة قليلًا وبعدها سافر . من الذي قال إنه مات ؟

* * *

- كنت جالسا في غرفة الحجز واضعا رأسي بين كفيّ . وكان الدمع يسيل من عيني مدرارا لا أستطيع إيقافه . وكانت الدنيا ظلاما أو شبه ظلام لا أدري ، فلم أكن أرى جيدا منذ كسرت نظارتي . كانت أطياف أبي وخالي وأمي وأخي الصغير تدخل عليَّ الغرفة وتجالسني . كان أبي يقرعني لأني لم أسمع كلامه ولم أصدق أن هذه الرفقة ستعود علي بالضر . وكانت أمي تحضر لي طعاما . وأخي كان يسألني متى آخذه للقاهرة . كنت أنظر إليهم من حولي ولا أراهم ولا أرى غيرهم . فُتح الباب فانبلج ضوء لا أدري كنهه ولا مصدره . ودخل على شبح شخص مترنح ثم انهارت بجواري كتلة بشرية

ومستني فانتفضت . سمعت تنفسا ثقيلا كأنه يخرج من بين رحى وجاء صوت أعرفه يناديني . كان هو . فخرالدين عيسى . التصقت به . كان مريضا . كأن به حمى أو شيئًا كهذا . وينتفض جسمه كله . وكان غزير العرق مبللا بكامله . حدثته فلم يرد عليَّ . وكانت حشرجة أنفاسه تصك أذني . ناديت الحرس فلم أسمع ردا . سألت فخرالدين فلم يرد عليَّ . قمت إلى ما كان مصدر الضوء وتحسسته . هو الباب . خبطت عليه بيدي وقدمي ورأسي وصرخت . لا أحد يرد عليَّ . عدت إلى فخرالدين. وطفقت هكذا أتردد بين الباب وبين فخرالدين حتى الصباح . كان فخرالدين قد بردت حرارته . وسكنت حركته . وذهبت الحمى عنه . وذهب عني. راح . راح الاستثنائي . راح أروع من في حياتي وأهم ما فيها . راح ورحل عني . وتركني أواجه هذا الحزن البغيض وحدي .

«من أقوال يحيى إبراهيم»

حـفر الباطـن

«لا تذكر الموتى فقد ماتوا فرادى
أو ... عواصم
سأراك في قلبي غدا
سأراك في قلبي
وأجهش يا بن أمي باللغة
لغة تفتش عن بنيها ،
عن أراضيها وراويها
تموت ، ككل من فيها ،
وتُرمى في المعاجم»

محمود درويش

- 1 -

لملم فخرالدين نفسه داخل الزنظ الميري الأخضر ، وانكمش في برد الليل على محطة الأوتوبيس واقفًا وحده . تلمع فوانيس السيارات القادمة في عينيه وتمرق مخلفة رذاذ ماء على ملابسه العسكرية . الأضواء الخلفية للسيارات الذاهبة تصبغ ظلمة الطريق بألوان صفراء وحمراء . تحسست نظرات فخرالدين الأوتوبيس القادم . هو ، هو 777 العظيم قادم . مد قدمه المحاطة بأربطة البيادة الثقيلة تحت الكرسي . أخرج محفظته البنية وشد الكارنيه والتصريح وتأملها . «العودة سعت 2200» . باق خمس دقائق . كان 777 يمرق في الظلام مسرعا . مقابر الإمام الشافعي ، مقابر الدراسة ، كل شيء يمر في الظلام السريع للأوتوبيس . دقات حذائه العسكري ترن وسط صمت القبور في مدافن الأباجية . يلتوي الطريق الأسفلتي الضيق أسفل كوبري الأباجية ويصعد وفخرالدين ناحية البوابة الحصينة . يلقى السلام واضحا على جندي الشرطة العسكرية المتأفف من البرد ويمضي داخلا . يستوقفه النداء المتأخر للجندي :

- الكرنيه والتصريح .

- تفضل .

جندي الشرطة ينظر في الأوراق بلا اهتمام ثم يمد يده ويخلع طاقية فخرالدين الخضراء . يجذب شعره بيده :

- شعرك طويل .

- ...

يتأمله الجندي لحظات ثم يعطيه الكارنيه والتصريح ، ويلقي بالطاقية إلى الأرض . ينحني فخر الدين ويلتقطها ، يضعها على رأسه ويمضي صاعدا المنحدر الأسفلتي القوي . ماء المطر المتجمع يسقط في خطوط متعرجة على الأسفلت المبلل مُشَكِّلا أنهارا وترعا وبحيرات صغيرة وباردة. يمر الماء أسفل حذاء فخر الدين دون توقف . يواصل فخرالدين الصعود. قلبه يدق بسرعة مع ازدياد حدة انحدار الطريق . تلوح له قبتا الشيخ المدفون بالوحدة . يصعد السلالم الحجرية العتيقة ، إلى مكتب الرسم .

* * *

ابتسم جاد ابتسامة صفراء فزاد وجهه الكالح بياضًا . وضع يديه في بنطاله الأخضر ودفع قدميه في الشبشب البلاستيك الأصفر الميري . في يده اليسرى علبة سمن قديمة ملأى بالماء وعلى كتفه فوطة صفراء ملتفة حول رقبته .

- أهلا وسهلا ، بدري يا أستاذ فخر!

- الساعة لا تزال العاشرة .

- العاشرة ؟ بأي توقيت يا عسكري ؟ توقيت فخر الدين ؟

التفت إلى يونس وسأله بحدة :

- كم الساعة الآن يا عسكري؟

غمغم يونس :

- ليس معي ساعة .

دلف فخر الدين إلى الغرفة الداخلية للمكتب .

جلس على حافة الفراش الحديدي . قوائمه تستند إلى قوالب من الطوب الأحمر لتحفظ توازنه . دولاب من الصاج مائل قليلا للأمام . انفتحت إحدى ضلفتيه فأحدثت أزيزًا قطع الصمت بالمكتب . قطرات

الماء تتساقط من السقف المعدني على الحائط الذي يكسوه الصدأ . سخان الشاي يثير فقاعات الماء في الكوب الزجاجي السميك الموضوع على سطح دولاب خشبي صغير . مفتاح النور مثبت بشريط لاصق أزرق . طنين المصباح النيون يرد على صفير صراصير الليل الآتي من الجبل . النافذة الزجاجية المكسورة يغطي كسورها لوح كرتون عليه بقايا تجارب خط وللذكرى الخالدة عبد السميع بدر . كتابات الخطاطين تغطي الجدار الفاصل بين غرفتي المكتب . «أين أنت يا علي» مد فخرالدين يده إلى جالون الماء وأماله . لا ماء بالجالون . جاء صوت جاد من الغرفة الخارجية :

- الجالونات فارغة . شيء طبيعي طالما سيادتك قضيت السهرة بالخارج .

عاد فخرالدين لحافة السرير ، وبدأ في خلع حذائه .

- خذ الجالونات واملأها ، الماء موجود في حنفية البوابة .

أكمل فخرالدين خلع حذائه وأسلم جسمه إلى الفراش . لأول مرة يتمدد على فراش منذ أربعين يوما . أرخى عضلات جسمه المشدودة وفرد كتفيه أسفل الوسادة . أربعون يوما من النوم على الأرض الحجرية ويومين بلا نوم إطلاقا . مدد جسمه وأغمض عينيه . أطل جاد بوجهه الكريه :

- ألا تسمعني يا عسكري ؟ قف انتباه!

* * *

جلس جاد على حافة السلم الحجرية . على بعد أربعة أمتار وقف فخرالدين . يداه مغروزتان بجوار ساقيه ورأسه إلى الأمام ، مرتديا كافة ملابسه العسكرية . نفخ جاد دخان سيجارته بينما تجمع الجنود في حلقات صغيرة في أرض الطابور . خلف فخرالدين بدت أضواء قلعة صلاح الدين .

- يا عسكري اسمع الكلام! قلت لك ارفع المخلة على ظهرك وازحف .

- آسف .

- أفندم! آسف؟ ما معنى آسف هذه ؟ أنت فاكر نفسك في شركة ؟ أنت في الجيش يا عسكري .

- إذن دورني مكتب للضابط النوبتجي .

- الضابط النوبتجي مرة واحدة ؟ تريد إزعاج الضابط النوبتجي في منتصف الليل ؟ ازحف يا عسكري .

وضع فخرالدين يديه في جيبه وبدأ يتحرك في اتجاه المكتب .

- قف يا عسكري . قف انتباه محلك .

واصل فخرالدين السير في اتجاه المكتب . دخل من الباب الصاج . قفز جاد وراءه . دلف فخرالدين للغرفة الداخلية وتمدد على حافة السرير . سمع صوت جاد يدخل للمكتب وهو يسب بصوت عال . مدد جسده على الفراش الوحيد . أربعين يوما لم أنم على فراش . فتح عينيه فوجد وجه جاد الكالح محمرا من الغضب . جذب فخرالدين من سترته فأوقعه على الأرض . ركله بقدمه ورفعه بيده ورفع يده الأخرى وهوى بها على خد فخرالدين فانبثق الدم من فمه .

لا أحد يعرف ما الذي حدث بعد ذلك بالضبط . قال لي عبد الحميد إن فخرالدين بصق الدم في وجه العريف جاد ثم ضربه ضربا مبرحا ولم

ينقذه من يده سوى تدخل يونس وحامد اللذين أمسكا بفخر الدين وجذباه بعيدا عن المكتب . وقال لي يونس إن جاد وفخر الدين كانا يتبادلان الضربات بقسوة وهو ما جرأه على التدخل . أما تقرير الشرطة العسكرية فيذكر أن فخر الدين اعتدى على العريف جاد بالضرب وأحدث بوجهه جرحًا قطعيًا كما حطم أثاث مكتب الرسم برمته .

* * *

ابتلع الملازم أول شرف حسن الغرباوي بذرة بنية اللون مع الشاي :

– هذا قرض . والبيت الذي يدخله القرض لا يدخله المرض .

ضحك ضحكة زاعقة فظهرت التجاعيد في بشرته السمراء .

– هذا القرض أحضره خصيصا من بلدنا . بلد صغيرة بعد كوم امبو . وهو بذر يطرحه شجر معين عندنا ، إذا استخدمه الإنسان لا يصاب بأي مرض . المهم. نعود إلى موضوعنا . فخر الدين هذا كان «عسكري» غير منضبط ، لم أر في حياتي مثله . كان «عسكري موهوب» لكنه يضن بموهبته على المكتب ، لا يضع رأسه في الشغل ، وسيادتك تعلم أن شغلنا حساس جدا . لكن ، ماذا أقول لك؟ لا يوجد انتماء . كل واحد لا يرى سوى مصلحة نفسه ، وليحدث ما يحدث طالما كان بعيدا عن قفاه .

رشف الضابط حسن رشفة من كوب الشاي الموضوع أمامه ، ومن خلفه بدت صورة رئيس الجمهورية .

– لقد حاربت في اليمن . كنت أدخل – بلا مؤاخذة – في ماسورة المجاري لأَمُرَّ من ناحية لأخرى ، وكان الرصاص لا ينقطع من فوقنا ، لو رفعت رأسك يا حلو لا تجد نفسك . أهذه عسكرية هذه؟ هؤلاء العساكر في نعمة لا يشعرون بها . أجازة كل 45 يوم ولا عاجبهم . يا فندم الإنسان لا

يملأ عينه سوى التراب . مثلا فخرالدين هذا كان يأتي إلى ويقول يا فندم لديّ امتحان ، يا فندم لديّ مصلحة ، أنا عارف كل هذه الأساليب ، لكن كنت أتركه ينزل البلد ، ومع ذلك حدث ما حدث ؛ لأنه عسكري ليس لديه انتماء . ماذا أفعل ؟

مثلا جاد هذا الذي حدثت المشكلة معه ، جاد هذا يمثلني أنا شخصيا في المكتب . يعني في غيابي جاد هذا كأنه أنا . ثم ما المشكلة في أن يضربه على وجهه؟ أنا في الخدمة منذ ثلاثين سنة ولو عددت المرات التي ضُربت فيها على وجههي ما استطعت حصرها . يعتبره مثل أخوه . الجيش يعلمك الذي لم يعلمه لك أبوك وأمك . الجيش مدرسة يا فندم ولا بد كل عسكري يتعلم .

* * *

مد فخرالدين ساقيه منهكا . الليل يطبق على الجبل الشاهق في مواجهته . المغارة تبدو شديدة الظلمة . ينحدر الطريق حادا من تحت قدميه في منحنى نحو باب خشبي صغير في آخر السور الشائك .

من خلفه تبدو خزانات الماء التي تؤدي إلى استراحة الضباط . خرير الماء المتساقط من الخزانات غير المُحكمة الإغلاق ، يتواصل خلف أذنيه. تتساقط قطرات الماء في جداول رفيعة تجري بسرعة على المنحدر الرملي. صخور الجبل التي سقطت يوما ما هنا تملأ المشهد أمام عينيه المتعبتين. مسح فخرالدين جبينه المتغضن بالألم وبالحزن المغروس . كيف يمسح القلب ؟ قام وسار قليلا باتجاه الباب الخشبي. هاجمته ظلمة الجبل وروائحه الكريهة . سار باتجاه الخزانات صاعدا . بدت له في الأفق القلعة مغسولة بالماء وبالضوء المنهمر . استند لصخرة مربعة وجلس على حافتها .

- أين أنت يا علي؟ أين اختفيت كل هذه المدة ؟

مد يده إلى حيث يتسرب الماء وملأ كفيه منه ، رفع يديه إلى وجهه وغسل الدم المتساقط من فمه .

* * *

- كان «عسكري» غير منضبط .

أسر إليَّ الضابط حسن في هدوء يقيني :

- هذا المكتب له نظام لو اختل تخرب القاعدة كلها . هنا كل الجنود أولادي ، والله أنا أراهم أكثر مما أرى أولادي ، ومن ثم لا يوجد لدي خيار وفاقوس . كل على حسب عمله . عملك جيد تأخذ مكافأة ، عملك أسود تروح يا حلو مع السلامة .

أما حكاية أننا كنا نجبره على خدمة الجنود فحكاية بلا معنى . ماذا تريد مني أن أفعل ؟ من يعد الطعام ؟ العسكري القديم أم الجديد؟ الجديد طبعا . ثم إن سيد القوم خادمهم . من ينام على الأرض ؟ الجديد أم القديم؟ الجديد طبعا ، ثم إن النوم على الأرض صحة . أيام اليمن لم نكن نجد الأرض لننام عليها . كنا ننام واقفين . أيامها كنت لا أزال جنديًّا ، كنا نعمل الخبز على الشمس ، على الحجر الصوان .

نظر الضابط حسن إليَّ ثم التفت للغرفة الداخلية :

- هات الشبشب يا عسكري . بعد إذنك يا فندم سأقوم للوضوء .

قام الضابط حسن ووضع قدميه في الشبشب الذي أحضره يونس . تحرك باتجاه الباب الصاج . أمسك بعلبة السمن القديمة وملأها بالماء من الجالون الأزرق الكبير الموضوع بجوار الباب . خطا للخارج خطوة ثم عاد ونظر إليَّ :

- آخر تقليعة . فخر الدين كان يريد المكتب كله يشتغل . كيف يا سيد كل المكتب سواسية؟ القديم كالجديد؟ والله شيء يضحك . العسكري يا فندم له ثلاثة أشياء فقط : شرفه ومهماته وفلوسه ، غير ذلك ينفذ الأوامر.

* * *

عند باب المكتب كان جاد لا يزال واقفا . أمامه وقف يونس وحامد مرتديْن كامل الزي العسكري .

- انتباه! ارقد .

زحف الاثنان في الأرض الطينية . تمتم أحد الجنود الواقفين في آخر أرض الطابور بشيء ما ومضى . مر فخر الدين من أرض الطابور كانت رأسا يونس وحامد تبدوان من وسط الطين . وقف فخرالدين أمامهم وتبادلوا النظرات .

* * *

- لا يا سيدي ، هذه النقود نجمعها للمكتب . أنا أيضًا أدفع . وهل أضع شيئًا في جيبي؟ هذه نقود المكتب . سخان الشاي مثلا ، الشاي الذي تشربه حضرتك ، كل هذا بفلوس المكتب . الأكل ، بدلا من التعيين الذي لا يؤكل نشتري طعامًا للمكتب كله . ثم إن هذا شيء اختياري وليس إجباريًّا .

أنا أقول للعسكري ادفع يدفع باختياره . في اليمن يا فندم كنا مستعدين ندفع أي شيء من أجل كوب الشاي . كنا نظل بالأربعين يومًا بدون تعيين ، ولو رفعت رأسك يا حلو لا تجد نفسك . هذه العساكر في نعمة . عسكري لا يقدر هذه النعمة لا يستحق الإجازة . عسكري ليس لديه انتماء للمكتب ولا لأسرة المكتب لا يستحق الإجازة .

مسح الضابط حسن عرقه المتصبب على جبينه الأسمر بمنديل قماش

أبيض به خطان أزرقان .

- هذا العسكري المسمى فخرالدين ، كان دائما يشتكي . طيب قل لي حضرتك من يأكل الأول، القديم أم الجديد؟ من يشرب الشاي القديم أم الجديد؟ القديم طبعا . ثم إن هذه مسألة ذوقية ، ونحن هنا أسرة واحدة . أنا مثل أبيه . لو الأكل قليل هل سيأكل هوويترك أباه ؟ طبعا لا . نفس الشيء هنا . عسكري أقدم منك قال لك تحضر الأكل تنفذ . مثل أخيك . لكن فخرالدين كان متكبرًا . على العموم لقد نال جزاءه . ولعلمك يا فندم هذا أول عسكري من المكتب يدخل السجن .

* * *

في مبنى القيادة يحيط جنود الشرطة العسكرية بالمداخل والمخارج والنوافذ . سجادة حمراء تمتد في الممر وحتى السلالم الرخامية اللامعة التي تقود لمدخل القاعدة . جنود «وردية النظافة» أنهوا أعمالهم ويعودون لثكنات الجنود حاملين الجرادل والمقشات . آخرهم يحمل سلة مهملات ويمضي باتجاه الجبل ليفرغها هناك . في الطابق الثاني وقف فخرالدين وجاد أمام غرفة الضابط النوبتجي . الصول حلبي بعينيه الزائغتين يحمل ملفا وأوراقا ويروح ويجيء في توتر . ظهر العسكري مراسلة الضابط النوبتجي من الباب وأسر للصول حلبي بكلمتين . تبادل الصول وجاد نظرتين . مضى الصول للداخل خلف المراسلة . خرج المراسلة بعدها بقليل حاملا صينية عليها بقايا إفطار وشاي . لحظات ثم ظهر الصول حلبي برأسه ونادى على جاد . نظر فخرالدين لحلمي وقال :

- ألن أدخل للضابط ؟

- طبعا لا!

وأغلق الباب . أطل فخرالدين من نافذة الممر . يبدو مكتب الرسم بعيدا وصغيرا . بدت رأس الضابط حسن من وسط الصخور وهو خارج من الجبل حاملًا علبة السمن القديمة . «أين أنت الآن يا علي!» خرج جاد من الغرفة مبتسما . وجنتاه الكالحتان منتفختان . مر أمام فخرالدين دون أن ينبس ببنت شفة. تبعه الصول حلبي بعدها بدقيقة ، نظر إلى فخرالدين بعينيه الزائغتين من بين أوراقه وتمتم :

– عشرة أيام حبس .

* * *

رفض حكمدار السجن الحديث معي . قال إنه لا يذكر شيئا عن شخص اسمه فخرالدين ، وعندما سألته عن سجلات السجن قال : إنه لا توجد سجلات :

– هذا سجن الوحدة وليس له سجلات ، فمن الممكن أن يدخله أي جندي في أي وقت . هذا ليس سجنا حربيا ، مجرد حجز .

* * *

«حبيبتي

الآن تركوني . الساعة تقترب من منتصف الليل ولديَّ شعور فظيع بالمرارة ، كأن حلقي علقم . بالأمس كنت أود الكتابة إليك ولكنهم لم يتركوني قبل الفجر . كنت قد وصلت لدرجة من الإنهاك حالت بيني وبين نفسي . ما يحدث هنا شديد الكآبة والعبوس . لا أكاد أحتمل . بالأمس بكيت. بكيت وسال الدمع من عيني ولم أستطع منعه . بكيت وأنا أقاوم البكاء وأبكي وأقاوم . إنهم يهيننوننا يا حبيبتي . يدوسون كرامتنا وإنسانيتنا وكل شيء طيب بداخلنا . يتعمدون إهانتنا ، ولا أستطيع الاحتمال .

الزملاء هنا طيبون ، وهم جميعا يعانون ولكنهم يتأقلمون مع الوضع ويعتادونه مع الوقت . لقد حاولت أن أفعل ذلك ولكني لم أستطع . شعرت أني لو تأقلمت على هذا السوء سأفقد كل ما قد يكون جميلا بداخلي . كما رفضت وثرت في مرات لكني وجدت النتيجة واحدة ، إما أن تنفذي الأمر ، أي أمر ، أو تعصينه ومن ثم تُجازي بأوامر من نفس النوع ولكن أقسى وأشد إهانة للنفس.

لا أستطيع أن أضمن احتمالي لهذا الوضع أكثر من ذلك . لا أستطيع أن أضمن احتمالي لمسألة الطاعة العمياء وتقبل هذه المهانة المخزية أكثر من ذلك . إنني أحاول تفادي المواجهة ولكني كثيرا ما أشرف على الانفجار.

معي هنا عَلي ، وهو العزاء الوحيد لي ، ولكنه يغيب كثيرا ؛ لأنهم يرسلونه في مهمات كثيرة . ربما أنفجر يا حبيبتي ، ربما أنفجر وعندها لا أدري ماذا ستكون النتائج . لكنهم يدوسون قلبي .

«قصاصة من خطاب

كتبه فخرالدين إلى شيرين»

- 2 -

كانت الشمس قائظة عندما جاء جنود السجن ليأخذوه . الحرارة تلهب أسقف المكاتب الصاج وتحيل بطونها إلى جهنم لزجة . السلالم الحجرية تزيد من توهج الشمس وتضاعف حرارة المكان . ما هذا الحر في قلب الشتاء؟ تقدم جنود السجن على السلالم الحجرية باتجاه مكتب الرسم. تجمع الجنود داخل المكاتب . لا أحد في أرض الطابور . دقات الأحذية العسكرية المنتظمة لجنود السجن ترن على حجر السلالم . كان باب مكتب الرسم مفتوحا . بالداخل وقف جاد مرتديا ملابسه العسكرية كاملة . أمامه جلس فخرالدين . بدون طاقية . حليق الرأس . لملم الحلاق أدواته وخرج من المكتب . دخل حكمدار السجن إلى المكتب . أمسك بيدي فخرالدين وقيدهما . تقدم فخرالدين وسط جنود الحراسة إلى منتصف أرض الطابور إلى السلم الحجري . يداه مقيدتان خلف ظهره ، مضمومتان ومغلقتان ، عيناه خاليتان من أي تعبير ووجهه منبسط تماما . شمس حارقة تصب في قلب ظهيرة الشتاء . انتظم طابور السجن . فخرالدين في الوسط وصفى الجنود يهبطون المنحدر ويغيبون شيئًا فشيئًا . زعق جاد فجأة :

- أين طاقية علي؟

رد يونس في انكسار :

- أخذها فخرالدين معه .

* * *

رائحة عطنة تفوح من الممر . بقايا الطعام تتجمع في برميل أسود كبير، ومن حوله الأرض مبللة من بقايا سوائل تتسرب من أرضية المطبخ.

باب المطبخ مغلق برتاج ضخم ولزج الملمس . الجدار الخارجي متكلس وحول النافذة الوحيدة هالة من السواد . أمام باب المطبخ مباشرة باب السجن المدفون في قلب المقطم . من نافذة الباب الحديدي تتكدس عيون محدقة . حكمدار السجن مستلق أمام الباب بجوار سلاحه القديم . أصوات تطقطق في المطبخ ثم ينفتح الباب . يخرج جنديان يحملان إناء أسود ضخمًا . كلب أسود مقطوع الذيل يعبث في زاوية المطبخ . تموء قطة في البرميل وتطل برأسها ناحية باب المطبخ المفتوح . ينصفق الباب ويتجمهر الجنود حول الإناء الضخم .

- محلك اقعد!

حامل الإناء ينظر حوله في تحد . تجلس الجنود شيئًا فشيئًا . يخرج حكمدار المطبخ من جيبه ورقة مطوية . يفردها ببطء وهو ينظر للجنود . يبدأ في المناداة . يدخل يونس حاملا إناء التعيين يتبعه حامد . حكمدار المطبخ ينادي :

- السواقين ، السكرتارية ، العمليات .

يتقدم يونس وحامد . زعق حكمدار المطبخ :

- سلمه فرختين ونصف .

سار يونس وحامد يحملان الفراخ والأرز . توقف يونس ونظر إلى حامد في خبث .

- اسمع! أنت ناوي تعمل عبيط ؟ فرختين ونصف لثلاثين نفر لا تختلف عن فرختين لثلاثين نفر . ثم إنهم كلهم يفعلون ذلك .

وضع يونس فص الدجاجة في فمه وأخذ يمضغ بتلذذ مسموع الصوت. ناول حامد المتردد ربع الفرخة وابتسم له فبانت بقايا الدجاج في فمه .

سالت بقايا السمن العالقة بالدجاجة على شفته السفلى المنفرجة . مسح يونس فمه بظهر يده ثم ضرب كف يده في إناء الأرز وغرف .

- كل ، الرسول كان يأكل بيده ، كل .

على جدار السلم الحجري كان فخرالدين جالسا مع علي في انتظار التعيين . لاحت رأس يونس في أسفل السلم وهو يضحك هاتفا : فراخ . تجمهر الجنود على امتداد السلالم معترضين طريق يونس الذي أخذ يراوغهم وهو يسب ويلعن حتى وصل إلى علي الجالس أعلى السلم ووضع الإناء أمامه والدجاجتين . نظر علي إلى الإناء والدجاجتين . رفع رأسه وطاف بعينيه على الجنود المتجمعين حوله . عاد بعينيه إلى الإناء وهو يزوم ويهز رأسه . نظر إلى فخرالدين وقال بلهجته الصعيدية :

- وكيف أقسم فرختين على ثلاثين نفر بإذن الله ؟

مسح الضابط حسن جبينه بالمنديل :

- لا يا فندم ، بعد خروجه من السجن مباشرة تم إلغاء إلحاقه هنا باعتباره غير صالح للخدمة في مكان حساس كهذا ، وأعيد إلى كتيبته في قلب الصحراء عند البحيرات المرة ، عله يتعلم الأدب ويعرف الجيش على أصوله .

* * *

أز باب السجن الضخم وهو ينفتح . دفع الصول بفخرالدين من ظهره إلى داخل الظلمة السيئة . رائحة عطنة تفوح من المكان ورطوبة مشبعة تطبعه . استدار فلم ير شيئًا . انغلق الباب فازداد الظلام حلكة . خرج شبح ضخم من خلفه وفح بصوته المبحوح :

- اخلع الحزام والأفرول والبيادة والطاقية والساعة وأي فلوس تكون معك .

قبل أن يُتم جملته هوت صفعة على خد فخرالدين من الخلف . استدار وهو يزعق فجذبه الشبح من أمام :

- نفذ يا عسكري . لا تلتفت بدون إذن .

بدأت عينا فخرالدين تعتاد الظلمة . خلع ساعته ومتعلقاته ووقف بملابسه الداخلية البيضاء في ظلمة السجن .

ربطها وجذبها منه شخص في الظلام . كان الشبح واقفا أمام نافذة الباب الوحيدة .

- تسعة استعد .

وضع فخرالدين يديه خلف رأسه وهبط بنصف ساقيه إلى الأرض حتى لامسها بركبتيه . عاد إلى الوقوف .

- عد .

عاود فخرالدين الهبوط والوقوف .

- واحد ، اثنان ، ثلاثة .

عاجلته صفعة أخرى من الخلف فالتفت ضاربا بقبضته المجهول في الهواء . جذبه الشبح من فانلته :

- أتوقف التمرين بدون إذن يا عسكري يا منحل ؟

جاء صوت من النافذة :

- التعيين يا حكمدار السجن .

تراجع وهو يسب ودفع الباب فبانت لوحة من الضوء غشيت عيني فخرالدين ثم اختفت . جلس إلى الأرض ، رطبة وغير مستوية . طقطقت عظام ساقه وهو يجلس على الأرض . على جدار السجن المبلل بدت رسومات بالطباشير الأبيض ، نخلة وتليفزيون وإيريال وأسماء ، سامية وعلية وجمالات وفتحية ، وأبيات شعر ركيك وعبارات خارجة . في زاوية الغرفة بدت رأس صلعاء وعينان نصف مفتوحة مثبتة على فخرالدين . نظرة باردة. ميتة . الوجه متراخ العضلات. ذراعان مسدلتان بجوار جسده المرخي المستند إلى الجدار . في الزاوية الأخرى اثنان بملابسهما الداخلية ، وثالث بملابسه كاملة يدخن سيجارة بتلذذ . أظلمت نافذة الباب ثم صر القفل وانفتح الباب وبدا شبح الحكمدار مرة أخرى في فلقة الضوء المنبعث من الباب . أز الباب وصر القفل مرة أخرى .

- أين الجديد ؟

وقف فخرالدين .

- لماذا لا ترد يا مسجون ؟ قم اطلع النخلة هات البلح .

- أي نخلة ؟

- النخلة المرسومة على الحائط يا روح أمك .

- دع أمي في حالها .

أحمر الحكمدار :

- اجننت يا عسكري ؟ ترد على حكمدارك ؟

وهوت يده الغليظة على خد فخرالدين فسال دم خفيف من فمه .

نظر فخرالدين إليه في وجهه ، وبصق الدم عليه . صمت السجن لحظة

وحدقت العيون في رعب . مد الحكمدار يده ومسح الدم ببطء من على وجهه ، نظر في يده ، ارتعشت قليلا ، ثم رفعها وهوى بها في غضب جنوني على وجه فخرالدين في صفعات متتالية . أمسكه من وسطه ثم قذف به إلى الجدار ركلا في بطنه . ارتطم فخرالدين بالجدار ووقع على الأرض. لملم جسده واستند إلى الحائط وقام، نظر للحكمدار ثم بصق الدم في وجهه . استشاط السجن جنونا ، علت صيحات الحكمدار على ضربات وركلات الباقين الذين هجموا جميعا على فخرالدين . تفجر الدم من وجه فخرالدين وخفت حركته شيئًا فشيئًا . صاح الحكمدار في الجندي ذي السيجارة :

- ولد يا قطة! علمه!

- 3 -

قال لي الجندي وهو يرفع حقيبته على كتفه :

- كسفريت ؟ تأخذ هذا الطريق حتى الدوران . ستجد تمثالا عنده ، تمثالاً أبيض . تدخل شمال . هذه هي كسفريت .

أغلقت زجاج سيارتي وواصلت المسير . هذه إذن هي مدينة فايد . صغيرة . الرمال تمتد من حولي وحتى مرمى البصر . مضيت في الطريق الذي أشار علي به الجندي . بدت لي في الأفق ملامح لنصب تذكاري مجهول. لابد أن ذلك هو الدوران . سيارات نصف نقل معبأة بالجنود الراحلين إلى معسكراتهم . مضيت عبر الطريق فوصلت إلى درب نصف ممهد . مضيت فيه حتى نهايته .

لاحت لي في الأفق معسكرات للجيش ورادارات بادية للعيان . لابد أن هذه هي كتيبة فخرالدين. ركنت السيارة على جانب الطريق وأغلقت أبوابها ونزلت.

الرمال تعلو وتهبط في الطريق إلى مدخل الكتيبة . وتجد الطريق أطول مما يبدو. مشيت قرابة نصف ساعة في تلال من الرمال والشمس تسطع فوقي . بقايا ومخلفات متنوعة متناثرة خلف التلال . قطع من أسلاك شائكة وخوذة قديمة مخرومة ملقاة . اقتربت من الكتيبة أكثر . غرفة مبنية من الطوب والصاج وبها نافذة وحيدة . أمامها قدر طعام كبيرة . نظر إليّ الجندي الواقف بالباب . حييته برأسي فأجاب التحية وهو يتبعني بعينيه . ملابسه الممزقة مكسوة ببقع من الزيت. مضيت أكثر داخل الكتيبة . مبان متناثرة من الطوب ومغطاة كلها بأسطح من الصاج . رمال واسعة تفصل بينها . قواعد الصواريخ تبدو شامخة وسط هذه المباني المنخفضة . فوق التلال الصخرية ثبتت أجهزة رادار مختلفة الأشكال . اقتربت من أحد المباني . طرقت الباب الموارب ودفعته . نظر إلى الصول الجالس خلف المكتب في تساؤل :

- السلام عليكم .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

- أنا عمر فارس ، وكيل نيابة .

- أهلا وسهلا .

- كنت أبحث عن الرائد عصفور .

انبسطت أسارير الصول وقام :

- أهلا وسهلا ، أهلا .

مد يده مسلما فسلمت .

- حضرتك تريد الرائد عصفور ؟ تفضل معي ، من هنا ، تفضل . سرت خلفه خارجا من المكتب . مررنا بين المباني . التفت إلي :

- ولكن كيف دخلت ؟ لم يبلغني أحد من البوابة بوصول زوار .

- الحقيقة أني لم أعرف أين البوابة بالضبط . لقد دخلت من هنا .

وأشرت بيدي باتجاه المطبخ ، نظر إلى حيث أشرت ثم نظر إليَّ وابتسم:

- أهلا وسهلا .

* * *

- وما العمل الآن بعد أن صرنا قلائل ؟

- قلائل ؟ اتسمي جيوش فرنسا وصقلية وجيش ملك إنجلترا وفرسان المعبد وفرسان الصليب معًا ، قلائل ؟ إنك خائف يا عزيزي!

أطفأ الجندي التليفزيون فقطع حبل أحلام الجنود المتحلقين أمامه . علت صيحات الاستنكار من الجنود لكنه لم يأبه . صفق بيديه معلنا انتهاء السهرة وبدأ في إغلاق الأبواب . تحرك فخرالدين من على الدكة الخشبية واضعا قدميه في الحذاء الكاوتشوك الأبيض . خرج من البوفيه وسط أفواج الجنود الخارجين وهم يستعيدون مقاطع فيلم الناصر صلاح الدين . كانت الليلة رائقة السماء ، ونسمات منعشة من الهواء تهب من ناحية البحيرات فتلطف من حرارة أغسطس القائظة .

سار فخرالدين باتجاه السور في آخر الكتيبة . لم يكن يستطيع أن ينام الآن . بعد ساعة لديه مناوبة على جهاز الإشارة . مضى باتجاه السور فوجد عددًا من الجنود جالسين أسفل النخلة القصيرة الواقفة وحدها هناك . ألقى السلام وجلس فأفسحوا له المكان . ابتسم له أشرف وسأله إن كان لديه مناوبة هو الآخر . أومأ فخرالدين برأسه . ابتسم أشرف وأردف :

- إذن كلنا لدينا مناوبة جماعة .

كان الجالسون كلهم ساهمين . منذ أول أغسطس لم يستطع أحد منهم

أن ينزل في أجازته . حتى أشرف لم يستطع حضور إكليل أخته الذي تم من أسبوعين . مع أنه من الزقازيق إلا أن القائد رفض بتاتا إعطاءه أي أجازة ولو ليوم واحد . حافظ لم يعد يعرف شيئًا عن أرضه ولا عن النزاع الدائر بينهم وبين عمه حول حدود الأرض من ناحية المصرف في قريته بديرب نجم . عماد ساهم كعادته ومنطو على نفسه . تنهد سلامة وتمتم :

- حالة الطوارئ هذه جاءت على دماغنا .

- ومن يعلم إلى متى يستمر وقف الأجازات!

قال أشرف وهو يعبث بعصا قصيرة في الرمل :

- وصدام حسين هذا ألم يستطع الانتظار أسبوعًا واحدًا ؟ كنت حضرت زواج أختي!

ساد صمت حزين . وكان موعد المناوبة يقترب .

* * *

سألت :

- هل كان جنديا مشاغبا؟

خلع الرائد عصفور البيريه الأسود ومسح بيده اليسرى صلعة رأسه وابتسم من خلف نظارته الرقيقة :

- فخر الدين عيسى يا سيدي كان ككل جنود المؤهلات العليا ، كثير الكلام والرد . لكن الميري ميري ولا يمكن السماح بذلك في الجيش . كل المجندين عادة ما يسببون نفس المشاكل في أول فترة تجنيدهم ثم يتأقلمون مع وضع الجيش مع الوقت . لكن فخر الدين هذا كان عجيب الشأن ؛ كان كل يوم كأنه أول يوم له بالخدمة ، وكان عنيدا أيضًا وهذا هو سبب المشكلة . صدقني يا فندم ، وأنا هنا أحدثك بصفة غير رسمية وليس لدي - بلا مؤاخذة - ما

يجبرني على الحديث إليك . إن المسألة برمتها مسألة عند . لولا عنده هذا لتم حل المشكلة بمنتهى البساطة . وحتى آخر لحظة كانت المحكمة العسكرية مستعدة ترجع في قرارها أخذا في الاعتبار حالته النفسية أو أية حجة أخرى لو كان هو قَبِل التراجع عن عِنده . لكنه لم يقبل . رحمه الله لم يكن طبيعيا . أليس كذلك يا حضرة الصول ؟

ثم نظر إلى موضحا :

- الصول إبراهيم كان معنا خطوة بخطوة .

- تمام يا فندم ، تمام . كنت دائما أقول لسيادة الرائد إن فخرالدين ولد طيب لكن دماغه هي المشكلة .

ابتسم الصول إبراهيم فبانت أسنانه البيضاء اللامعة . ظل مبتسما لحظة حتى التفت إليه الرائد عصفور :

- تمام يا إبراهيم .

الصول إبراهيم نفسه كلم فخرالدين عدة مرات وحاول معه ، سواء هنا قبل أن نتحرك أو في الميدان . لكن فخرالدين كان دائما ما يخيب أمله .

- بعد إذنك يا سيادة الرائد ، أشرح لسيادة الوكيل . يا فندم والله لقد كلمته أكثر من عشر مرات ، وكنت أقول له إن الجيش هو الجيش والأوامر هي الأوامر وإن الطاعة يجب أن تسود وإلا ينقلب الجيش لفوضى . كان يسمعني وهو ساكت ثم يرد علي ردودًا غريبة . لم أكن أفهم ماذا يقصد ، ولكني مع ذلك قلت له . قلت له : إنه مثل ابني ، وإنه مهما كان عنده من آراء فهو حر ، لكن يعصي الأوامر ؟ وهذه حرب يا فندم وليست هذار . ياالله ، الله يرحمه . كان السبب في كل هذه المشكلة .

ضغط الرائد عصفور على زر أحمر مثبت في الحائط بشريط لاصق

أزرق . ظل ضاغطا حتى ظهر على الباب جندي قصير القامة :

- الشاي بسرعة يا دفعة .

* * *

خلع فخر الدين السماعة من على أذنيه وبدأ في فك الشفرة . كان قلبه يدق بشدة وهو يفك رموز الرسالة التي جاءته . عيون أشرف وحافظ وسلامة وعماد مغلقة في نومهم القلق في انتظار دورهم في المناوبة . فخر الدين عيونه تتسع وقلبه يدق وهو يمضي عبر السطور . عندما أنهى فك الرسالة كلها اجتاحته رعشة وبرد. أعاد قراءة الرسالة مرات .

وضعها أمامه على المنضدة والتفت إلى زملائه أيقظ أشرف أولا ووضع الرسالة في يده دون كلمة واحدة ، وبينما كان أشرف يقرؤها أيقظ الباقين.

جلس الخمسة حول الجهاز ينظرون للرسالة دون أن يجرؤ أي منهم على الكلام . ساد صمت وقلق عميق . نظر فخر الدين للورقة الملقاة بينهم على المنضدة . مد يده ولمسها . ارتعشت يده وهو يمسكها وقام واقفا :

- لا بد من أن أسلمها لقائد الكتيبة .

* * *

- يا سيدي المسألة لم يكن فيها تحريض سياسي ولا يحزنون .

رشف الرائد عصفور رشفة من شايه الأسود وأستطرد :

- كل ما في الأمر أن فخر الدين عسكري غير منضبط . لم يعرفوا لا في مركز التدريب ولا في القيادة في القاهرة كيف يُكسبونه الروح العسكرية . روح الطاعة والنظام . الموضوع كله أنه رفض تنفيذ الأوامر وهذه جريمة يعاقب عليها القانون العسكري . مسألة التحريض هذه مسألة ثانوية .

قاطعه الصول إبراهيم بابتسامته بيضاء الأسنان :

- بعد إذنك يا فندم . في الحقيقة أن أول الشغب بدأ هنا في الكتيبة عندما وصل أمر التحرك ؛ لأن فخرالدين ساعتها رفض تنفيذ الأمر ، وكان يمكننا قانونا محاكمته عندئذ ، إلا أننا ولتسامحنا معه ، وهذا خطأ يجب أن نعترف به ، تحاورنا معه واستطعنا إقناعه بأن يلم الدور وأن ينفذ الأوامر ويرحل مع الكتيبة . والحقيقة أننا كنا نظن أننا بذلك قد حللنا المشكلة على أساس أنه لعب عيال أو عند شباب ويأخذ وقته ومجراه وينتهي ، ولكن مثلما قال سيادة الرائد لسعادتك فإن فخرالدين كان كل يوم كأنه عسكري جديد، لم يكن يتعلم أبدا .

- ثم إني تصرفت طبقا للقانون . ولم يكن هناك حل آخر وإلا تحولت العملية لفوضى . نحن في جيش هنا ولسنا في جامعة . وبموافقة قائد القوات المنوب تم تحويله لمحكمة عسكرية ميدانية ، وهذه المحكمة هي التي أصدرت الحكم ولست أنا!

- بالضبط يا فندم .

* * *

بدأت الأضواء تنير المكاتب المظلمة شيئًا فشيئًا . ووسط ظلمة الصحراء الشرقية ، على حافة البحيرات المرة ، ظهرت بقع متناثرة من الضوء الخافت . استيقظ قائد الكتيبة على صوت فخرالدين واتسعت حدقتا عينيه عندما رأى الرسالة . وفي المكاتب الأخرى كان النبأ يسري سريعا فيوقظ النائمين ويكركب عنابر الجنود . وعند الفجر كانت كل الكتيبة تعلم أنها تلقت أمرا بالتحرك إلى الظهران . مال أشرف على فخرالدين وسأله والقلق يعصر وجهه :

- ما العمل ؟

عبس عماد ونظر بعيدا . التفت إلى حافظ في ضيق وقال له :

- أنت لا تفكر إلا في النزاع اللعين بينك وبين عمك!

ارتدى طاقيته وسار بعيدا ناحية قواعد الصواريخ . هرش سلامة رأسه وشرد وهو ينظر إلى حافظ :

- هل تعتقد أننا سنحارب فعلا ؟

نظر إليه حافظ :

- نحارب ؟ نحارب من ؟

لم يرد سلامة وواصل الهرش في رأسه .

- تعال نصلي الفجر .

مضيا ناحية المسجد . مال أشرف على فخرالدين وسأله :

- ما العمل ؟

نظر فخرالدين بعيدا ولم يرد . القائد ممسك بسماعة التليفون منذ نصف ساعة . ينظر إليها ولا يجرؤ على الاتصال . «هل أوقظه؟» . وقف عماد عابسا وهو ينظر إلى الصواريخ الشاهقة في غبش الفجر . كانت رأسه تكاد تنفجر من ارتفاع ضغط الدم . لا فائدة ، لا يجرؤ على إيقاظ قائد اللواء . مد يده ووضع السماعة وهو ينظر مجددا إلى الرسالة . دق جرس التليفون فانتفض ورفعها فورا ، جاءه الصوت حادا :

- أين أنت يا سيادة العقيد ؟

- تمام يا فندم . العفو . كنت . كنت أحاول الاتصال بسعادتك ، لكني كنت أخشى إزعاجك .

- إزعاجي؟ يا بني أنا أكلمك من القيادة من القاهرة . ألم تستلم الإشارة؟

- تمام يا فندم . استلمتها وهي في يدي .

- التفاصيل الخاصة بالتنفيذ ستصلك غدا صباحا مع مخصوص. رئيس الأركان موجود الآن بقيادة اللواء ومعه كافة التعليمات الخاصة بالعمليات . تتوجه إلى هناك فورا ومعك ضابط العمليات بالكتيبة .

تمام يا فندم .

وضع العقيد سماعة التليفون . «إذن الموضوع بجد . كنت أود لو سألته إن كان الموضوع بجد أم تهويش» . خبط العقيد رأسه بيده وقام من على مقعده .

-- هل سأحارب فعلا ؟ وأين ؟

- يا أشرف! أنا لن أتحرك من هنا .

نظر أشرف إلى فخرالدين واتسعت عيناه :

- ماذا ؟ لن تتحرك ؟ كيف ؟

- مثلما أقول لك . أنا لن أتحرك من هنا .

- تحرك بسرعة يا غبي .

دفع العقيد بقدمه عسكري المراسلة وأكمل ارتداء ملابسه . لاح له ضابط العمليات قادما من وراء الباب :

- سيادة المقدم جاهز ؟

- تمام يا فندم .

أدى حافظ التحية وهو يسلم الوردية . كان النقيب رأفت يقف في مواجهته :

- هل تعرف موعد التنفيذ ؟

- لا يا فندم .

- وأين سيذهب القائد وضابط العمليات الآن ؟

- لا أعرف يا فندم ؟

- طيب انصراف يا عسكري .

مضى فخرالدين سائرا نحو السور . من بعيد بدت له مياه البحيرات المرة شديدة الزرقة .

* * *

الممر ضيق . على الجانبين بقع عشوائية من أشجار الخروع ونباتات الصبار . نافورة قديمة متهالكة يسبح ورق الشجر المتساقط في مائها . كلب بني اللون يعبث بشيء في فمه على حافة النافورة . جنود تجري من حين لآخر بين أبواب المباني . كاب أحد الضباط يطل من نافذة حديدية ، ينظر إلي ثم يختفي . يتسع الممر أكثر ويزداد تعرج الأرض . بضعة سلالم متآكلة تقود إلى كشك صغير على اليمين. مررت بجوار الكشك في اتجاه العيادة . عسكري ضئيل الجسم واقف في الكشك يقلي بطاطس . بخار الزيت يكون حلقات مصفرة ملتصقة بجدار الكشك . مبنى مستطيل من الصاج . هذه هي العيادة .

كان خليل نائما عندما دخلت . منذ عودته من حرب الخليج وهو محجوز بالمستشفى العسكري . الطبيب المناوب شاب مُجند . أكد لي أنه سليم ولا يشكو من مرض عضوي ولكنه مصاب بلُوثة وضلالات ومحجوز هنا لحين انتهاء مدة تجنيده . عندما أغلقت الباب خلفي فتح عينيه ثم أغلقهما بسرعة . تقلب على جانبه الأيسر . ظللت واقفا في صمت . ظل في مكانه لحظات ثم هز رأسه وقام .

- نعم كنت موجودا يومها . وسأروى لك الحقيقة كلها فلا تسمتع إليهم. هم يقولون عني إني مجنون ؛ لأنهم يخافون مما أقول . أنا لست مجنونا ولكني رأيت ما حدث وأقول الحق ولو على رقبتي . ولهذا حجزوني هنا

رغم انتهاء مدة تجنيدي . نعم لقد انتهت مدة تجنيدي . انتهت منذ سبعة شهور وثلاثة أيام . ولكنهم لا يريدون تسريحي . كانوا في البداية يطلبون مني أن أسكت وبعد ذلك قالوا عني إني مجنون . حرام . ربنا لا يرضى بالظلم أبدا وما حدث لفخرالدين كان ظلما وقد رأيته بعيني . كنا جميعا أعصابنا تعبانة وكانت العساكر متضايقة وعلى آخرها. لم يكن أحد فينا يريد أن يذهب للسعودية . ما لنا نحن وهذا الكلام . لقد دخلنا الجيش نؤدي الخدمة سنة أو سنتين وننتهي . كل واحد منا عنده مشاكل ومشاغل لو لم ينتبه لها يجوع فيها ناس . هم كانوا سألونا إن كنا نريد دخول الجيش أم لا ؟ سألونا إن كنا نريد أن نحارب في السعودية أم لا؟ ثم نحارب من؟ نحارب ولاد عرب مسلمين ؟ هي الدنيا جرى فيها حاجة؟ المهم ، العساكر كلها كانت في حالة غير طبيعية . وكنا خايفين بصراحة. حتى الصولات والضباط كانوا خايفين . والله كانوا خايفين . أنا شفت بعيني المقدم رأفت يبكي بالدموع في مكتبه يوما ، لكنه لما شافني دارى وجهه .

صمت خليل لحظة . ثم استطرد :

– يومها ، حوالي الخامسة مساء ، فخرالدين دخل لحكمدار مكتب الأفراد وقال له إنه لن يغادر الكتيبة ولن يذهب للظهران . حكمدار الأفراد ظل يتكلم معه حوالي ساعة . في البداية كان فاكر أنه بيقول أي كلام أو أنه خايف ، لكن لما وجد الموضوع كبير قام أخذه لقائد الكتيبة . بقية العساكر لما سمعوا بالموضوع هاجوا ، وخرج كثير منهم ناحية مكتب القائد وقالوا إنهم هم أيضًا لن يغادروا الكتيبة . الرائد عصفور هو الذي كان مناوبا يومها لأن القائد وضابط العمليات كانوا في مأمورية في قيادة اللواء. ظل الرائد عصفور والصول إبراهيم يهدوا في العساكر ويتكلموا مع فخرالدين،

وفي الآخر حلفوا على المصحف أمام العساكر أجمعين أن الموضوع لا فيه حرب ولا يحزنون وأن الموضوع حاجات في السياسة وتخويف للعراق حتى ينسحب ، وقالوا لنا أيضًا إنه لا توجد أصلًا جبهة أو أراضي أو إمدادات تصلح للمعركة . بعدها الجنود هدأت وبدأت تجمع مهماتها استعدادا للرحيل .

– وفخرالدين ؟

– فخرالدين قال إنه سينفذ الأوامر ويرحل مع الكتيبة بناء على هذا الكلام . وقال لي – والله مازلت أذكر كلامه كأنه كان بالأمس – إن الذهاب للظهران في حد ذاته ليس مشكلة ، لكنه لن يشارك في قتال هو ليس طرفًا فيه ، وأقسم لي على ذلك ، وكان معنا بقية العساكر .

* * *

البحر أزرق . فتح فخرالدين عينيه على اتساعهما ليملأهما بزرقة البحر . طير أبيض بعيد يهبط نحو الماء مرفرفا ، يلتقط بمنقاره شيئًا من الماء ، ثم يخفق جناحيه ويعلو في الهواء متباعدا . البحر أزرق من أمام ومن خلف ومن الأجناب . كله أزرق . وهذه السفينة تزحف على بطن البحر كأنها لا تتحرك . منذ ليل الأمس المظلم بميناء السويس الكئيب وزحام شحن المهمات والمعدات على ظهر هذه السفينة العمياء وأنا يقظ . كأني أنتظر تنفيذ حكم إعدامي في صباح بطيء المجيء وقاتل . لا حزن مثل هذا الحزن الذي يكتم أنفاس البحر وأنفاسي . يا ليتني طير ، يا ليتني بحر. نظر فخرالدين إلى جسم السفينة الحديدي . قديم ومتآكل . على ظهر السفينة بدت العربات المصفحة المتراصة كأنها توابيت . من يهادي من بموتى ؟ ترك الجنود حر الأسرة المزيفة في بطن السفينة الخانق واستلقوا على السطح فوق وبين العربات والمعدات . عربات مصفحة وعربات نقل.

ماذا سننقل يا ترى ؟ جثثنا أم جثث الأعداء ؟ الأعداء! نظر فخرالدين مليا للعربات. الصول إبراهيم والرائد عصفور والمقدم رأفت ينامون في كباتهم . فيم يفكرون الآن ؟ قائد الكتيبة وضابط العمليات رحلا مع قائد اللواء في الطائرات العسكرية . بالأمس رأيتهم في نشرة الأخبار يصافحون الرئيس . ألف مبروك . أسند فخرالدين رأسه إلى السور الحديدي البارد. السور بارد ويلسع جنبه كله . تقلب في نومته على الأرض . لا فائدة . قام عماد وجلس على الأرض مبتعدا عن هذا السور الذي ظل يشق جنبه طول الليل كسيف . فتح عينيه نصف فتحة . كان الضوء حادا كأنه دبابيس داخل جفنه . أزاح الغطاء من عليه . بطاطين بطاطين . من قال : إن الجو برد كي أتغطى ببطاطين ؟ منذ دخلت الجيش وأعطوني هذه البطاطين وصارت عادة لدي أن أتغطى بها ، حتى في الصيف . هل لأنها الشيء الوحيد الذي أملكه في هذا الجيش ؟ الشيء الوحيد الذي أنا حر فيه؟ فتح عماد عينيه ونظر عبر السور . البحر! كان عماد يعشق البحر . منذ طفولته وهو يهرب من المدرسة ليذهب ويجلس على كورنيش الشاطبي . ما أجمل البحر يا إسكندرية! ما أجمل بحرك ، وما أقبح هذا البحر الإجباري الذي يحاصرني! فرك عماد عينيه . حلمت أني أغرق في بحر عميق وكنت مربوطا برمح حديدي يشدني إلى القاع . إذا كان هذا السور هو الرمح! نظر عماد إلى كاوتش المصفحة الرابضة إلى يمينه . ما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟ كنت أعاكس الفتيات السمر الجميلات على الكورنيش . وكانت أمي تطاردني بالعرائس كي تزوجني . وكان أخي يواصل رسوبه بالجامعة وكان التأجيل يستمر . صار عمري 29 عاما . وكنت قد قبلت في الدراسات العليا في باريس . كان جواز السفر في يدي ، والفلوس في البنك ، وكان

ينقصني ختم التجنيد . ما الذي جعل أخي ينجح هذا العام ؟ فرقت عدة شهور فقط! وكنت أحلق الآن في الطائرة إلى باريس ، إلى مونبارناس وسان ميشيل . نجح أخي البليد أخيرا ووجدت نفسي ملء الجيش . ووجدت نفسي في هذه السفينة الحمقاء أذهب إلى أرض لم أحبها أبدا ولم أتصور أن تطأها قدمي يوما.

- قالوا لي إنهم لا يقبلون المسيحيين فيها!

أكمل أشرف حديثه إلى سلامة :

- أعني قالوا لي إنهم لا يفضلون المسيحيين ، وقالوا لي إنه ممنوع على المسيحيين المقيمين هناك دخول الأراضي المقدسة . قلت لهم : موافق ، ومن قال لكم إني أريد دخول الأراضي المقدسة ؟ أنا أريد عقد عمل . أريد أن أعمل فقط . لكن الرجل في مكتب التسفير نصحني بأن أبحث في بلد أخرى أفضل . قال لي ربما الإمارات أو الكويت ، هناك لا يدققون في مسألة الدين هذه . الآن أنا ذاهب إلى هناك لكن بدون عقد . أذهب هكذا! هل تعتقد أننا سنمر على الأماكن المقدسة ؟

«لا ، لا يمكن» تمتم حافظ وهو ينظر حوله ليتأكد ألا أحد يرى دموعه. بالأمس قالت له أمه في التليفون إن عمه قطع الماء عن أرضهم ، وإنها ستضطر لتركه يأخذ القيراطين المتنازع عليهما بدل المشاكل ، وخاصة وأنها وحدها مع أخيه الصغير وأخواته البنات منذ سفر أخيه للعراق في الصيف الماضي . أين أنت يا أبي لترى أفعال أخيك فينا! انتهز فرصة غيابي واستولى على أرضنا بالعافية! وأنا أترك أرضي تؤخذ وأرحل إلى أين؟

دقق البدوي النظر باتجاه البحر وهو يحمي عينيه من ضوء الشمس . أمعن النظر لحظات ثم خفض يده إلى جواره . نظر إلى ابنه الذي كان

يسحب الجمل بعيدا :

- ما الخبر يا جاسم؟ هذه عاشر سفينة أراها اليوم تمر من أمام الشاطيء!

ربط جاسم الجمل وجاء إلى أبيه ونظر إلى حيث يشير . أمعن النظر لحظات ؛ كانت هناك سفينة صغيرة تمخر عباب البحر باتجاه الشاطيء .

- 4 -

«والآن والأشياء سيدة ، وهذا الصمت يأتينا سهاما
هل ندرك المجهول فينا . هل نغني مثلما كنا نغني ؟
آه يا دمنا الفضيحة ،
هذه أمم تمر وتطبخ الأزهار في دمنا
وتزداد انقساما .
هذه أمم تفتش عن أجازتها من الجمل المزخرف .
هذه الصحراء تكبر حولنا
صحراء من كل الجهات
صحراء تأتينا لتلتهم القصيدة والحساما .
هل نختفي فيما يفسرنا ويشبهنا
وهل نستطيع الموت في ميلادنا الكحلي
أم
نحتل مئذنة ونعلن في القبائل أن يثرب أجرت قرآنها ليهود خيبر ؟
الله أكبر
هذه آياتنا ، فاقرأ»

طوى فخر الدين ديوان محمود درويش . نظر إلى الغلاف ؛ مديح الظل

العالي . نظر إلى الصحراء من حوله ؛ لا ظل هناك . فتح الديوان وأكمل القراءة . كانت الشمس حارقة ، وداخل الخيمة كان الحر خانقا . طوى فخرالدين الكتاب وحمله إلى داخل الخيمة . كانت الجنود ممدة على الأرض من الحر . وضع في مخلته وسحب زمزمية الماء . رفعها وشرب جرعتين. أغلقها وردها . مرت علينا خمس عشرة ليلة هنا . ثم ماذا ؟ كان الطعام يأتينا كل ثلاثة أيام ، يوزعه علينا الصول إبراهيم ونحتفظ به في المخالي. أما الماء فكان يأتي كل يومين . ومنذ ثلاثة أيام صار يأتي كل يوم . كانت مدينة الظهران على بعد نصف ساعة بالسيارة . لكن البنزين الموجود معنا محدود ولا توجد أوامر تحرك للسيارات . لاح أشرف قادما من خلف السيارات الواقفة ، يلهث . انكب على مخلته وأخرج الزمزمية وأفرغها في فمه . جلس لحظات ثم اقترب من فخرالدين :

- هل تعرف ماذا رأيت هناك خلف السيارات على بعد ربع ساعة سيرا على الأقدام ؟

- وما الذي جعلك تسير ربع ساعة في الصحراء ؟

ابتسم أشرف :

- لا يهم الآن ، سأقول لك فيما بعد . المهم أتعرف ماذا رأيت ؟

- ماذا ؟

- أجانب!

- ماذا ؟

- أجانب . وغالبا أمريكان ، يأتون بالسيارات وينزلون معدات وخراطيم وخزانات وأشياء كثيرة أخرى ، ثم يتركوها ويذهبون ويعودون ثانية وهكذا . وعلى فكرة ، فيهم نسوان لابسين ميري .

رفع عماد رأسه وأصاخ السمع ، ثم سأله :

- نسوان! هل تحدثت معهم ؟

- لا .

- وكيف عرفت أنهم أمريكان ؟

- شكلهم أمريكان ، طوال وبيض ووجوههم محمرة ، ثم من سيأتي هنا غير الأمريكان ؟

- نحن!

قال فخرالدين :

- ربما يجهزون لهم معسكرا .

- في هذه الحالة سيكون معسكرا كبيرا ، لو رأيت كمية المعدات التي يفرغونها ، تكفي بلد ، سأذهب ليلا مرة ثانية ، هل تأتي معي ؟

نظر إليه فخرالدين وقال لا برأسه ، رفع عماد عينيه إلى أشرف وقال:

- أنا آتي معك .

* * *

خلع الرائد عصفور نظارته ووضعها على الدفتر المفتوح أمامه ، مسح عينيه بيديه ، عصرهما ، كانت وجنتاه منتفختين ومحمرتين قليلا :

- موضوع حفر الباطن هذا كان مختلفًا ، فقد كنا في الظهران منذ أواخر أغسطس تقريبا ، وكانت الأحوال في البداية صعبة لأنه لم يكن هناك استعدادات، لكن مع الوقت تحسنت الأمور وخاصة أننا كنا بجانب معسكر للجنود الأمريكيين وكنا نحصل على الطعام والماء من عندهم . المهم لا أطيل عليك ، ظللنا في الظهران حتى أول يناير ، وكنا قد بدأنا نمل وخاصة أنه لم يكن هناك أجازات أو أي اتصالات بأهلنا ، خاصة بالنسبة

للجنود . في هذا الوقت صدرت لنا الأوامر بالتحرك إلى حفر الباطن . الجندي فخرالدين أثار شغبًا بالميدان . رفض التحرك . رفض تنفيذ الأمر وحرض بقية زملائه على رفض التنفيذ . الوضع أصبح سيئًا جدا وخطير . وبصراحة الموقف لم يكن يحتمل أي لعب من هذا النوع، هذه حرب ونحن لم نكن وحدنا والدنيا كلها متوترة . قائد الكتيبة لما شاف الموقف اتصل مباشرة بقائد القوات ، وجاءت الأوامر صريحة ، أي شغب أو عصيان يواجه بأقصى درجات الحزم . وهذا ما تم .

* * *

النجوم تلمع في سماء الصحراء المظلمة . لم فخرالدين نفسه في الزنط الميري الأخضر . أحكم إغلاق أزراره . البرد ينخر في العظام مباشرة . كان الصوت لا يزال يأتي من ناحية معسكر الأمريكان . منذ الغروب أمس والاحتفال مستمر . ذهب عماد ليقضي السهرة مع صديقته التي تعرف عليها . أشرف أيضًا ذهب معه ليشرب بيرة ويحتفل برأس السنة . من خمسة أيام ذهب ليحضر عيد الميلاد . مع أنه أرثوذكسي وليس كاثوليكي ولكنه قال : إن أي شيء أفضل من لا شيء إلى متى سيستمر هذا الاحتفال ؟ إلى متى سنستمر هنا ؟

* * *

- سعادتك نحن كنا في يناير ، وصدرت لنا الأوامر بالتحرك إلى حفر الباطن . وهذا كان معناه الاشتراك عمليا في القتال .

- وهل كان القتال قد بدأ ؟

- لا ، ولكن كانت هناك عمليات استطلاع وألغام وخلافه تتم . وكانت الأوامر أن نتوجه للمنطقة ، وهذا معناه أننا لن نقوم بحماية السعودية مثلما

قالوا لنا في البداية وإنما سنشترك في القتال . وهذا هو ما قاله لنا فخر الدين عندما أبلغونا بالأوامر . ومن ثم رفضنا جميعا التنفيذ . يومها كانت هوجة كبيرة ، وبعد حوالي ساعة كان جنود الشرطة العسكرية قد جاءوا وطوقوا الكتيبة بحالها ، وقبضوا على فخرالدين . عندما حدث ذلك بقية العساكر خافت وكله جمع مهماته استعداد لتنفيذ الأوامر والتحرك لحفر الباطن .

- وأنت .

- وأنا أيضًا يا فندم . نعم أقولها بصراحة . أنا أحب فخرالدين وكل شيء ، لكن هذه مسألة حياة أو موت . وإذا كنا لا نريد أن نموت في الحرب فمن باب أولى ألا نموت مضروبين بالنار . بصراحة أنا أيضًا خفت . أنا مثل كل العساكر ؛ بني آدم . خفت ونفذت الأوامر .

- وأين ذهب فخرالدين ؟

- على حسب الكلام الذي سمعناه ، فإن الشرطة العسكرية أخذته إلى معسكرها في الظهران حيث ظل محبوسا فيها لفترة . وبعد ذلك نقلوه لحفر الباطن للمحاكمة .

- والتنفيذ ؟

- التنفيذ كان في الظهران .

* * *

ابتسم الصول إبراهيم فبانت أسنانه البيضاء :

- نعم يا فندم حضرت المحاكمة . أنا كنت كاتب الجلسة ، وما زلت أذكرها وكأنها كانت بالأمس .

- هل لديك صورة من المحضر ؟

- نعم يا فندم . توجد صورة منه في مكتب السجلات هنا ، والأصل

موجود في القضاء العسكري . والحقيقة أنه لم يكن هناك أحد من القضاء العسكري موجودا ؛ لأنها محكمة ميدانية لها قاض واحد هو قائد القوة . ولكننا أرسلنا أصل المحضر بعد ذلك للقضاء العسكري وفقا للقواعد .

* * *

- أنت متهم بعصيان أوامر القائد في ميدان المعركة ، وبتحريض زملائك الجنود على العصيان . هل تقر بارتكاب هذه الجرائم ؟

- أنا لم أحرض أحدا . لقد رفضت المساهمة في عملية قتل جماعية ، ولما سئلت عن السبب أجبت .

- إذن أنت معترف بعصيانك للأوامر .

- أنا مقر بعصياني لأمر التحرك إلى حفر الباطن .

- هل تعرف عقوبة هذه الجريمة ؟

- هذه ليست جريمة .

- هل تعرف عقوبة هذا العصيان ؟

- لا .

- الإعدام رميا بالرصاص .

- .....

- هذه خيانة عظمى .

- أنا لم أخن أحدا .

- ورفضك التحرك ؟

- التحرك لحفر الباطن هو الخيانة بعينها .

- التحرك لحفر الباطن كان أمرا عسكريا يا جندي .

- كونه أمرا لا يجعله حقا .

- ليست مهمتك أنت أن تحدد الحق من الباطل .

- أنا لم أحدد شيئًا لأحد . أنا رأيت الحق حقا فاتبعته ، ورأيت الباطل باطلا فاجتنبته .

- وهل من الحق أن تعصي أمر قيادتك في ميدان حرب ؟

- أمر قيادتي باطل ، وهذا ليس ميدان حرب .

- كيف لا يكون ميدان حرب ؟ وفيم كل هذا القتال إذن ؟

- هذا القتال أنتم المسئولون عنه .

- نحن المسئولون عنه؟!هل نحن الذين جعلنا العراق يعتدي على الكويت؟

- هذه سياسة ،وأنا لم اشترك في السياسة من قبل كي أتحمل الآن عواقبها .

- ماذا تقصد ؟

- أقصد أنكم أنتم المسئولون عن السياسة . أنتم وحدكم . لم تسألوني من قبل عن رأيي ، لم تستشيروني ، ولم أشترك معكم في قرار . أنتم تفعلون ما تشاءون ، ومن ثم فليس من حقكم أن تُحملوني تبعة أفعالكم .

- ولكنك مواطن في هذه الدولة . أنت لا تعيش وحدك في الفراغ . أنت مواطن في دولة لها مصالح وسياسة ، ولا يعقل أن تنتظر الدولة موافقة الأفراد واحدًا واحدًا لكي تأخذ قرارا!

- أولا أنا لست مواطنا ، أنا رعية . المواطن يشارك في إدارة وطنه ، وأنا لم أشارك . وبالتالي لا أتحمل مسئولية أخطاء من أدار . المواطن له حقوق وعليه واجبات . وأنا لم أسمعكم تتحدثون عن الوطن إلا ساعة تقديم الواجبات فقط . المواطن عضو في جماعة ، لها مصالح مشتركة ، ولكنكم تُخضعون الجماعة ومصالحها لمصلحتكم أنتم وتجعلون منها مجرد رعية لأوامركم . أنا لم أختركم وليس بيني وبينكم عهد كي أصونه . ثانيا سياسة

الدولة ومصالحها التي تتحدث عنها ما هي إلا سياستكم أنتم ومصالحكم أنتم ، وهي تقود إلى الحرب وإلى الخراب مثلما ترى . وليس لكم أن تُخضعوا الناس لمصائب تجنون أنتم من ورائها المصالح .

- أليست مصلحة الجميع في ردع المعتدى ؟ في إقرار العدل ؟

- العدل كل لا يتجزأ . ولا يمكن أن تقيم العدل في دار وتترك الظلم في بقية الديار سائدا . إن كان الموضوع موضوع عدل ، فلنبدأ بإقامة العدل في كل مكان وعلى قدم المساواة .

- ولكن لا بد من البدء في مكان ما .

- ولم هنا ؟ ولم هكذا ؟

- هذه سياسة الدولة .

- تماما مثلما تقول ، هذه سياسة ، وسياسة الدولة ليست حقا أو عدلا. وليست واجبي .

- ولكنك جندي في جيش هذه الدولة ، ولا تستطيع التحلل من واجبات الجندية .

- مكره أخاك لا بطل . ثم إني لم أُجَند للدفاع عن ملكية آبار النفط .

- أنت تتدخل الآن في السياسة!

- هي التي تتدخل في حياتي ، أنا لم أطلب أن أدخل الجيش ولا أن أرحل لحماية النفط .

- ولكن ألا ترى أن الدفاع عن هذا الذي تسميه ملكية آبار النفط قد يكون دفاعا عن الوطن ككل ؟

- هذا دفاع عن وطنكم أنتم ، عن نفطكم أنتم ، عن سياراتكم وقصوركم وراحتكم ، عن مناصبكم وسلطة نفوذكم وفسادكم ، ليس عن وطني ولا

راحة بالي ولا حرمة بيتي ولا قدسية كرامتي وحقي .

- ولكن الوطن لا يتجزأ ، الوطن كل هذا .

- أنتم الذين جزأتموه .

- أنت تُدخل نفسك هكذا في طريق مسدود .

- وهل أمامي طريق مفتوح وتركته ؟

- نعم أمامك . اسمعني يا بني ، نحن هنا جميعا إخوة . نحن لا نُضمر لك أي عداوة بل على العكس . هل تعتقد أنه من السهل على أن أقف في الميدان وأحاكم جنديًّا من جنودنا ؟ هل تعتقد أنه من السهل عليّ أن أصدر ضدك حكما ؟ هل تعتقد أنه من السهل على أي منا أن ينفذ فيك هذا الحكم ؟ طبعا لا . أنت هنا بالصدفة . لقد جُندت مثل آلاف غيرك ، ولكن الصدفة شاءت أن تُوزع أنت بالذات على هذه الكتيبة وأن تكون تلك الكتيبة دون غيرها التي يتم انتقاؤها للتحرك إلى الظهران . لو كنت تأخرت في الدراسة قليلا ، لو كان اسمك يبدأ بحرف آخر ، لو كان عسكري آخر قد جُند أو سُرح ، ما كنت أنت الآن هنا ، وما كان الأمر قد صدر إليك ولكانت حياتك قد سارت بشكل عادي جدا . هل توقف حياتك من أجل صدفة ؟ دعها تمر . فقط اعترف بأنك أخطأت ، سنقول إن أعصابك كانت تعبانة من طول الإقامة في الصحراء . وتنفذ الأمر ، وينتهي كل شيء .

- أنت تريد مني أن أقتل نفسي بيدي لتوفر على نفسك وخز الضمير لو حكمت بقتلي .

- من الذي طلب منك أن تقتل نفسك ؟ نفذ الأمر وكن على ثقة من النصر . هل تظن أن العراقيين يستطيعون إصابتنا بخسائر ؟ نحن لسنا وحددنا . ألا ترى كيف أن قوتنا جميعا ، نحن والحلفاء ، لا تضارع ؟ هل

لديك شك في النصر ؟
- أنا لا أرى نصرا على الإطلاق ، لا في كسب القتال ولا في خسارته . كله هزيمة .
- إنك بذلك تحكم على نفسك بنفسك . ماذا ستخسر لو حاربت ؟
- إنسانيتي واحترامي لنفسي .
- لكنك ستخسر حياتك كلها لو لم تحارب .
- على العكس ، سأخسرها لو حاربت معكم . لو مضيت معكم في هذا الغي أموت . أموت في نفس اللحظة التي أوافقك فيها ، حتى لو ظل جسدي ينبض .
- ألا تفهم أن عصيانك هذا هو موت بلا فائدة ؟ هل تظن أنك ستمنعنا؟
- لن أشترك معكم على الأقل .
- أنت بذلك تنتحر .
- بل أسترد حياتي منكم ، وأعلق دمي في أعناقكم .
- أنت لا تفهم . نحن على استعداد لفعل أي شيء ممكن لإنقاذك . أنت لا تتصور صعوبة إصدار حكم بإعدام جندي .
- وأنت لا تتصور صعوبة تنفيذي أمرًا يحولني إلى قاتل مأجور . أنت تجد من الصعب قتلي ، ولكنك تجد من السهل قتل الآلاف ممن لا تعرفهم.
- هذا أمر لا اختيار لي فيه .
- ولكني أنا أستطيع الاختيار ، وقد اخترت .
- اسمعني جيدا يا بني ، سأقول لك هذا الكلام للمرة الأخيرة ، فاسمعه جيدا وفكر فيه قبل أن تردد على إجاباتك العنيدة هذه . أنت شاب صغير، وأمامك الحياة بأكملها . الحياة عريضة وغنية . الحياة أغنى مما تظن. الحياة ليست سندوتش تأخذه أو تتركه ، إنها بحر طويل وعريض مليء

بالمواقف وبالعواطف والاختيارات . في البداية وأنت شاب يخيل إليك عند كل موقف أن الحياة ستتوقف هنا ، وأنه إما كذا أو الموت . لكنك عندما تمر من الموقف تكتشف أن ذلك كان شيئًا تافها ، كان مرحلة ، عتبة في سلم طويل . ومع اجتيازك للمواقف بحلوها ومرها ، مع مرور الأوقات العصيبة والأوقات السعيدة ، تتسع روحك وأفقك وتضم كل شيء وتعلم كم هي جميلة وغالية . الحياة هي كل شيء ، وأنت لا تملك حق التفريط فيها لأنها بلا رجعة ، ولا شيء يستحق أن تضحي بحياتك من أجله لأنها هي أغلى وأشمل من أي شيء . هذا هو النضج . وعندها تعرف أن هناك مواقف ينبغي أن تحني لها رأسك حتى تمر . كلنا يجب أن نحني رءوسنا كي يمر هذا الوقت العصيب . وبعدها نرفع رءوسنا مرة أخرى ونفكر فيما العمل .

هل تظن أني سعيد بهذه الحرب ؟ هل تظن أن أحدا منا سعيد هنا؟ هل تظن أن القيادة التي أرسلتنا جميعًا هنا سعيدة ؟ كلنا مضطرون . وكلنا نحني رأسنا للعاصفة كي نعيش وننقذ ما يمكن إنقاذه . هل تعتقد أننا نريد قتال العراقيين ؟ بالقطع لا . نحن نقاتل ليس فقط العراقيين ولكن عشرات وعشرات من زملائنا السابقين ممن التحقوا بالجيش العراقي بعد تقاعدهم . نحن نعلم هذا . ولكننا جميعا مضطرون. نحن نشق بأيدينا في لحمنا ، ولكنه الحل الوحيد وإلا ذهبنا كلنا . هذا المجنون المسمى صدام حسين هو الذي وضعنا جميعا أمام هذا الاختيار المستحيل . ماذا تنتظر منا أن نفعل ؟ هل تعلم ما معنى أن تقطع الماء عن ناس في صحراء ؟ كأنك تضربهم بالرصاص . وهو يريد قطع الماء عن الأمريكان والغرب . النفط لهم كالماء لنا . هل تتصور أنهم سيسمحون له بالسيطرة على شريان حياتهم ؟ هل تعرف ما معنى الأمريكان والغرب؟ هل تعرف ما هي قوتهم ؟ إن لديهم ما يكفي لتدمير الأرض بمن عليها وما

عليها عدة مرات . هل تظن إنهم سيتركون هذا المجنون يتحكم فيهم ؟ مستحيل . سيضربونه سيضربونه . ونحن إما معهم أو ضدهم . لا يوجد حل وسط . لا يوجد رمادي . أنت معهم فتنجو معهم أو ضدهم فتغرق فيمن سيغرقون . ولا يوجد من يستطيع تحمل مسئولية إغراق شعب بأكمله . هو مجنون يغرق شعبه إن أراد وشعبه يتركه يفعل ما يريد . لكننا لسنا مجانين، ولا نستطيع أن نقف في مواجهة الإعصار . وعلينا أن ننحني وأن ننبطح أرضا إن لزم الأمر حتى يمر هذا الإعصار . هل تفهمني ؟

- نعم أفهمك . أنتم لا تستطيعون الوقوف في وجه الإعصار . لكني أنا أستطيع . ماذا أملك أنا كي أفقده ؟ لا شيء . ولا يوجد من يستطيع إيذائي؛ لا أنتم ولا أمريكا ، لأني لا أهتم . أنا لست ناضجا مثلما تقول . ولكني على الأقل لست جبانا مثلكم ، ولا أتشبث بذيل الحياة الذليلة التي تتعلقون بأطرافها ولا تنالونها أبدا . أنا لي مثلما تشاء خطاي ، أنا حر، حر . وأنا أستطيع أن أقول لا لأمريكا وأن أقول لا لكم . ماذا ستأخذون مني؟ حياتي ؟ حياتي التي ستأخذونها ليست ملكي أساسا وإلا ما إستطعتم التحكم فيها هكذا . لكني في ذات اللحظة سأسترد منكم حياتي ، تلك التي أمتلكها وأستطيع السيطرة عليها ، حياتي أنا ، ملكي أنا . أسترد حريتي واحترامي لذاتي التي تحتلونها .

اليوم أقولها لكم عالية كالرصاصة التي ستقتلونني بها اخرجوا ، اخرجوا من حياتي ، اخرجوا مني ، ودعوني وحدي ، أموت في حريتي رجلا، كامل الإرادة والإنسانية ، لا يملي عليَّ خطواتي سوى ضميري ، أرى الحق حقا وأتبعه والظلم ظلما وألفظه . اذهبوا أنتم لسادتكم واتركوني سيدا على بقايا روحي . لعنة الله عليكم . أفسدتم حياتي من الخارج ، والآن تريدون

التسلل إلى داخلي لإفساد ما بقي لي فيَّ . والله لا يكون هذا أبدا . تركت لكم الشوارع والمباني لتفسدوها مثلما أردتم ، ولكنكم لن تطولوا نقاء روحي ما دمت حيا .

صمت القائد القاضي . نظر إلى أوراقه وإلى سحابات الغبار في الصحراء من حوله . ثم تمتم بصوت خفيض :

- أهذه أقوالك الأخيرة ؟

* * *

- أنا رزق عبد الله . كنت راميا بالشرطة العسكرية آنذاك . وكنت واحدًا من الثلاثة الذين كلفوا بتنفيذ حكم المحكمة وإطلاق الرصاص على الجندي فخرالدين عيسى . نحن الثلاثة من أمهر الرماة في السلاح . لا نخطئ البتة . وقد سبق لنا تنفيذ أحكام مشابهة . وجرت العادة على أن يتم حشو طبنجاتنا نحن الثلاثة من قبل القائد ، بضع طلقات حقيقية في أحد الطبنجات وفي الأخرتين «فشنك» . ونطلق ثلاث مجموعات متتالية من الطلقات . لا يمكن أن يفلت المحكوم عليه من الموت . ولكننا لم نكن نعرف من الذي نفذ الحكم فعليا . المقصود من ذلك هو راحتنا النفسية ، ولكننا لم نكن نهتم في الواقع . الموضوع كان يتم بسرعة وكأننا نعمل تدريب رماية بالإضافة لأننا لا نعرف عن المحكوم عليه سوى اسمه ، وأحيانا حتى لا نعرف اسمه .

- وما الذي حدث يوم إعدام فخرالدين ؟

- الذي حدث بالضبط أن المحكوم عليه كان مربوطا أمامنا في الساري، على بعد عشرة أمتار ، وطبعا كان معصوب العينين . صدر لنا أمر التنفيذ بعد تلاوة الحكم ، فرفعنا «الطبنجات» ونشنا . صدر لنا أمر الضرب في

نفس اللحظة التي وقعت فيها الصواريخ على القاعدة . ربما تذكر هذه المرة التي أصابت فيها صواريخ سكود العراقية الظهران . لقد أحدثت إصابات فادحة في معسكر الأمريكان وفي القاعدة بتاعتنا . صدفة غريبة! هذه كانت المرة الوحيدة التي أصابت فيها هذه الصواريخ العمياء أحداً . لما الصواريخ ضربت القاعدة أحدثت إصابات جامدة مثلما قلت لسعادتك وحدث ارتباك شديد . أنا شخصيا لم أطلق النار ، ولا زميلي الذي كان على يميني الذي انبطح على الأرض مع بداية صوت الانفجار . ولكني أذكر أني سمعت صوت إطلاق النار من زميلنا الثالث قبل صوت انفجار الصواريخ مباشرة . بعد ذلك حدث هرج ومرج شديدان وقتل جنود كثيرون والقاعدة دمر معظمها ، وطبعا لم يعرف أحد ما الذي كان يجري بالضبط . حتى الطبنجات بتاعتنا فقدت وزميلنا الثالث مات في الحادث .

في اليوم التالي كانت الأمور بدأت تستقر قليلا وبدأت جهود الإنقاذ . ساعتها لم نجد فخر الدين ، أقصد جثته . وكان هناك حفرة كبيرة مكان الساري الذي كان مربوطا إليه وحولها أنقاض ضخمة وبقايا أحد الصواريخ. طبعا لا أحد يعرف ماذا احدث بالضبط؛ ربما دفن تحت الأنقاض. لا أحد يعلم.

– ولكن الرصاصات التي أطلقها زميلك الثالث ألم تقتله ؟

– لا أحد يعلم أين كانت الطلقات الحقيقية . ربما قتلته رصاصات زميلي الثالث ،ربما قتلته الصواريخ،ربما مات تحت الأنقاض،ربما لم يقتل،لا أعرف.

* * *

– لا يا سعادة البك . ربنا لا يرضى بالظلم أبدا . وما حدث لفخر الدين ولكل العساكر كان ظلما .

اقترب مني خليل وهو جالس على فراشه . كان الفراش المعدني يئز ،

وكان الجو حارا خانقا داخل الغرفة الصاج .

– عندما اقتادوا فخرالدين لساحة التنفيذ ، كنا كلنا نكاد نموت داخل الخيام والعنابر ، وراح جماعة من العساكر تكلم القائد وتستسمحه . لكنه قال إن الحكم صدر وصدق عليه قائد القوات . أشرف فهيم راح قابل فخرالدين بتصريح من القائد وحاول إقناعه بتقديم التماس بالعفو عنه ، لكنه عاد وهو يبكي . كنا كلنا قاعدين في العنابر مثل التائهين . لم نكن نصدق ما يجري من حولنا ، وعندما سمعنا صوت الرصاص انفجرنا في البكاء ، لكن الانفجار الأقوى تلي ، وتتابعت الانفجارات ، وصار النهار ليلا والليل نهارا ، وخلنا القيامة قامت من اهتزاز الأرض تحتنا وسقوط أسقف العنابر فوقنا . هذا غضب الله . وجرى من استطاع الجري منا وسط الحجارة المتساقطة من كل صوب ، وكانت بيوت الضباط تتهاوى وأصوات سيارات الإسعاف تأتي من معسكر الأمريكان . جريت ناحية ساحة التنفيذ فشاهدت فخرالدين مقيدا في الساري وعيناه معصوبتان . كان الضرب مستمرا والسماء تمطرنا بقذائف وطوب ، وتزلزلت الأرض بنا وشاهدت بعيني فخرالدين يعلو أمامي في الهواء وحوله ضوء مسلط . ظل يعلو ويعلو حتى اختفى من أمام عيني وشعرت بخبطة قوية على رأسي . وعندما أفقت وجدت نفسي في المستشفى الملكي العسكري .

الجمعة الحزينة

«رأيت على الجسر أندلس الحب والحاسة السادسة
على دمعة يائسة
أعادت له قلبه
وقالت :
يكلفني الحب ما لا أحب
يكلفني حبه
ونام القمر على
خاتم ينكسر
وطار الحمام
وحط على الجسر والعاشقين الظلام ...
يطير الحمام
يطير الحمام

محمود درويش

اختلجت عضلات وجه فخر الدين وحرك ذراعيه في الهواء وهو يحاول أن يجد الكلمة المناسبة . كان يخشى أن يجرح إحساسها بكلمة لا يقصد معناها ، وكان هذا الحرص يمنعه من الانطلاق في الحديث كعادته .

- أنا أحتاجك يا شيرين بالقرب مني ، لا أستطيع الاستغناء عن وجودك. سميه نوعًا من الارتياح الشديد ، نوعًا من الصراحة والوضوح والشعور ، إنك أنت نفسك ، إحساس العثور على روح يمكن أن تفهمك ، وتهتم بك . هل تفهمينني ؟

خفضت شيرين عينيها وهي تهرب من سهام عينيه المتسائلة في صراحة . ما هذا الكائن الغريب ! يتصل بي في منتصف الليل ويوقظ البيت كله لكي يقول لي إنه يريد لقائي لأمر عاجل !

- ألا يمكنك الانتظار إلى يوم السبت ونتقابل في المحكمة ؟

-في المحكمة! أقول لك أمر عاجل. لو كان عليّ كنت جئت إليك الآن في بيتكم

- لا لا ، لا داعي للتهور يا صديقي . أراك غدًا في الثانية بعد الظهر .

منذ ساعة وهو يتكلم ولا يقول شيئًا . يتكلم عن العواطف وعن العلاقات الإنسانية والحب ، ولا يقول شيئًا محددًا . هل الارتباط بمثل هذا الرجل ممكن ؟ هل أحبه ؟ هل يريد الزواج مني ؟ ولكنه لم يقل لي ذلك أبدًا . هل يمكن الارتباط به مع كل جنونه هذا ؟ لا أدري . ليته لم يحدثني من الأصل. هناك أشياء كثيرة تشدني إليه وأحيانًا أشعر أني لا يمكنني الاستغناء عنه، وأحيانًا أخرى أخاف منه ومن حدته وأشعر أنه من عالم آخر . لماذا لا يحاول أن يكون أكثر تعقلًا ؟

-هل تسمعينني يا شيرين ؟

- آه آه . طبعًا أسمعك .

- يبدو من شكلك أنك لست معي إطلاقًا .

- يا سيدي قلت لك مائة مرة إني أسرح بعيني فقط ، لكن ذهني كله مركز معك . أكمل أكمل .

- ما رأيك أولاً فيما قلته ؟

هزت شيرين كتفيها وتحولت بعينيها إلى برج شيراتون الجزيرة القابع في قلب النيل .

- ماذا تريدني أن أقول ؟

- أريدك أن تقولي رأيك فيما قلت لك .

تمتمت شيرين في ضيق :

- لماذا لا نكمل حديثنا ونحن في الطريق ؟

عبر فخر الدين وشيرين أسفلت شارع الكورنيش الضيق ، مرا في صمت أمام مطعم سويس إير .

- تعرف ! أختي لها صديقة ساكنة في هذه العمارة .

- تخيلي ! لا بد أنها لا تخرج من الشقة أبدًا . على الأقل ليست في حاجة إلى الخروج للمشي على النيل ، يكفيها الجلوس في شرفة البيت لترى النيل كله تحت قدميها .

- فعلاً المنظر من الشرفة جميل ، لكن الشقة نفسها تجنن ، واسعة جدًا وأنيقة جدًا .

- دعك من الشقة هل تعرفين ما معنى شرفة على النيل؟

- طبعًا ، ولكنك لن تقضي طيلة النهار في الشرفة !

صمتا قليلاً وسارا . همس فخر الدين :

- نرجع إلى موضوعنا . ما رأيك في كلامي ؟ هل تفهمين يا شيرين.. أنا فعلاً في حاجة لأن أراك دائمًا ، لأن أتحدث إليك دائمًا .أشكو إليك وأخرج معك وأحلم معك . كأنك فتحت باب روحي إليك فسالت ولا تتجمع إلا بين يديك ، لم أعد أستطيع ألا أراك إلا وأنا على موعد لأراك . أستجمع كل ما يحدث لي كي أحكيه لك عندما أراك ، وأحتمل كل ما ألاقي كي آتيك وأضعه بين عينيك . هل تفهمينني ؟

أحمر وجه شيرين . وقفت والتفتت للطريق :

- لا بد من أن أعبر الشارع وحدي .

شارع مراد غاص بالسيارات التي تقطع نهار الجمعة في الشوارع وتسرع قبل بداية المباراة . عبرت شيرين الطريق وحدها يتبعها على مسافة قصيرة فخرالدين . لم يفلح إصرار فخرالدين خلال الشهور الثمانية الماضية في إقناعها بأن يعبرا الطريق معًا .

- لا محل للنقاش ، هذا طريق الذهاب والإياب من بيتنا ، ولن أتحمل أن يراني أحد معك في الشارع .

عند تمثال نهضة مصر التقيا ثانية :

- فخرالدين ، أنا فعلاً اتأخرت ولا بد من أعود حالاً للبيت .

- وكلامنا ؟

- نكمله فيما بعد . أنت تعرف الظروف . فعلاً يجب أن أعود الآن . سلام .

نظر إليها فخرالدين واغمقّ لون وجهه ولم يجب . ابتسمت شيرين :

- لا ، أرجوك لا تودعني بهذا الوجه . ابتسم يا رجل ! سأحاول أن أبقى معك غدًا بعد المحكمة . ابتسم من أجلي .

- كيف أبتسم إن شاء الله وأنت تذهبين دون أن نكمل حديثنا ؟

- سماح يا فخرالدين ، من أجل شيرين . لا أستطيع أن أذهب وأنت مكشر هكذا ويجب أن أذهب .

اجتهد فخرالدين في استحضار شبه ابتسامة على شفتيه فالتقطتها شيرين والتفت بسرعة للشارع . أوقفت بإشارة وانحناءة و « مهندسين ؟» أحد التاكسيات . التفت إليه وابتسمت ولوحت بأصابع كف يدها . انغلق باب السيارة عليها وفر بها مخلفًا عامودًا من دخان أبيض . تابع فخرالدين رأس شيرين وكتفيها من الزجاج الخلفي للسيارة حتى اختفت عند نهاية الطريق أمام الجامعة . عاد بضع خطوات للوراء حيث الموقف ، ووقف ينتظر الأوتوبيس

* * *

« يطير الحمام
يحط الحمام
أعدى لي الأرض كي أستريح
فإني أحبك حتى التعب ...
صباحك فاكهة للأغاني
وهذا المساء ذهب
ونحن لنا حين يدخل ظل إلى ظله في الرخام
وأشبه نفسي حين أعلق نفسي
على عنق لا يعانق غير الغمام
وأنت الهواء الذي يتعرى أمامي كدمع العنب
وأنت بداية عائلة الموج حين تشبث بالبر
حين اغترب

وإني أحبك . أنت بداية روحي وأنت الختام

يطير الحمام

يحط الحمام »

محمود درويش

« من أوراق فخرالدين »

* * *

قالت لي منار في شرود :

– كانت شيرين لماحة الفهم وذكية . ذكية القلب والنفس منتعشة الروح متفتحة . كانت كطفلة رائعة بها شقاوة وحلاوة وخفة دم . وكانت كأم مطمئنة بها حنان وسماحة وغفران لا نهائي . كانت كمراهقة في مدرسة بها تواطؤ مع زميلاتها . كانت نقية بريئة كراهبة . وجد فيها فخرالدين أرضًا مباركة يستطيع أن يحط فيها في أمان وأن يريح فوقها جناحيه المنهكين من التعب ومن الطيران بلا جدوى . واستطاع فخرالدين أن يهدأ عندها ، وأن يُخرج رأسه من ريش كتفيه وصدره ، وأن يرفع منقاره الذي كان قد نسيه ، وأن يرى الزرع النابت في أرضها ينمو شجرًا ونخيلاً وورودًا . واستطاع الطير أن يبدأ . كانت شيرين حبيبته ، واستطاع حنانها أن يجد المنفذ للخروج واحتواء هذا القادم من السماء ، واستطاعت رجفتها ورعشتها أن تجدا الجناحين الخفاقين اللذين يملآن سماءها ويظللان أرضها ، واستطاعت أن تجد الطفل الصغير الذي تسنده إلى ركبتها ليحكي لها آخر النهار عن شجنه وعن ألمه وعن حلمه ، واستطاع حلمها المشتت الضال أن يجد شكله وحدوده وأن يتماسك ويتبدى . وعبر أيام وشهور حبهما بدا الزمن وكأنه قد

بدَّل سرعاته وتباعدت ذكريات ماضية وكأنها كانت تخص أناسًا أُخر في عوالم أخرى . وهُيئ لفخر الدين أن الأرض قد استعدت أخيرًا ليهبط ويحيا فيها . « واستطاع القلب أن يهدى لنافذة تحيته الأكيدة . ها هي تناديني فاستعدي يا نفس ، ودثريني يا زوجة القلب كي لا أنطفئ مرة أخرى . كي أمر في موقعتي الأخيرة في حربي الأخيرة . زمليني بدثار من حنان قلبك واشتمالك عليَّ وامتلاكك أطراف روحي التي بعثرها التراب والأعداء ، دثريني وشدي قوس روحي باكتمالنا . إني آت إليك يا أرضي علَّني أجد الحياة فيك أخيرًا فخذيني إليك » . وكان فخر الدين سيد قلبها وقائد حلمها ونبع اطمئنانها .

صمتت منار ونظرت إليَّ . كان وجهها صافيًا وشفافًا . أشاحت بوجهها إلى النافذة . نظرت إليها . كانت عيناها مغرورقتين بالدمع .

* * *

« أنا وحبيبي صوتان في شفة واحدة

أنا لحبيبي أنا ، وحبيبي لنجمته الشاردة

وندخل في الحلم ، لكنه يتباطأ كيلا نراه

وحين ينام حبيبي أصحو لكي أحرس الحلم مما يراه

وأطرد عنه الليالي التي عبرت قبل أن نلتقي

وأختار أيامنا بيدي

كما أختار لي ورد المائدة

فنم يا حبيبي

ليصعد صوت البحار إلى ركبتي

ونم يا حبيبي

لأهبط فيك وأنقذ حلمك من شوكة حاسدة
ونم يا حبيبي
عليك ضفائر شعري ، عليك السلام
يطير الحمام
يحط الحمام »

« محمود درويش»
« قصاصة من خطاب
من شيرين إلى فخرالدين »

* * *

كانت محكمة الجيزة الابتدائية غاصة بالجمهور . الجو بارد بالخارج . أصحاب القضايا ينتظرون دورهم عند الباب الخشبي الضخم الذي يفصل القاعة عن الصالة الخارجية . حلقات من المتخاصمين حول محاميهم وأوراق مكدسة في الملفات تحت إبط الوكلاء . مر فخرالدين إلى غرفة المحامين بصعوبة وسط الزحام . أشار له علاء المحامي برأسه فأجاب الإشارة ومضى داخل الغرفة . كانت شيرين جالسة أمام المنضدة الطويلة المغطاة بالجوخ الأخضر وواضعة أوراقها أمامها . بدت خصلة شعرها من فوق الروب الأسود الفخم . رفعت رأسها فرأت فخرالدين . برقت عيناها وانبسطت ملامح وجهها . قالت له في تهكم :

- خير ؟ كسبت ؟
- الحمد لله .
- وطبعًا كالمعتاد !

ابتسم فخرالدين في تهكم هو الآخر :

- طبعًا .

- أمرك غريب جدًا .

- ولم ؟

- لأنك تستطيع بإشارة منك أن تنضم للمكتب الذي أعمل فيه وتكسب عشرة أضعاف ما تتقاضاه الآن . هذا إن كنت تتقاضى شيئًا أصلاً .

ضحك فخر الدين :

- معك حق في هذه النقطة فقط . فهذه قضية مجانية . حتى مصاريف القضية لم تستطع السيدة المسكينة أن تجمعها كلها .

- وطبعًا حضرتك دفعتها ؟

اعتدلت شيرين في جلستها ونظرت لفخر الدين :

- اسمع ، أنا أكلمك بجد . أنا لست ضد أن تأخذ قضايا مجانية من حين لآخر ، لكن مستحيل أن تكون هذه هي القاعدة !

- وما العمل إذا كان المظلومون عادة لا يملكون مالاً ليدفعوه لي ؟

- أولاً، لا يوجد أحد لا يستطيع تدبير المال اللازم للدفاع عن حقه . أكيد هؤلاء الناس يأكلون ويشربون ومن ثم يمكنهم توفير المال عند الضرورة ، ثانيًا، أنا لا أطلب منك ألا تأخذ هذه القضايا على وجه الإطلاق وإنما على الأقل يجب أن تضمن لنفسك ، ولنا إن شئت ، حدًا أدنى، وإلا كيف نعيش ؟

- نعيش مثلما أعيش الآن . هل ترين أني ميت لا سمح الله ؟

- أنا لا أهذر يا فخر الدين . نحن نحتاج لمال ، ليس من المفروض أن أقول لك أنا هذا الكلام . ولكن إذا كنا ننوي البقاء معًا بشكل أو بآخر فذلك يعني كمية لا بأس بها من المال ، بعد ذلك ، عندما نصبح معًا يمكنك أن تفعل ما تشاء. ولكن الآن يجب أن توفر هذه الكمية . وبالطريقة التي تعمل

بها لا يبدو أننا سنتمكن من ذلك أبدًا . المفروض أن تكون أكثر حرصًا مني على ذلك ، هذا إذا كنت تريدني معك طول الوقت مثلما تقول . أنا لا أطلب منك أن تتحول إلى مصاص للدماء أو أن تتخلى عن قضيتك أو عن المظلومين ، ولكن أطلب منك بعض التعقل ، وبعض الواقعية . يمكنك أن تجمع بين الأمرين ، يمكنك أن تعمل في مكان مثل مكتبنا تحصل منه على دخل كبير وفي نفس الوقت تستمر في قبول مثل هذه القضايا شبه المجانية. بل إنك ستصبح أقوى وأقدر على خدمة المظلومين عندما تكون ظروفك أحسن . على الأقل أفعل ذلك لفترة معينة تثبت فيها مكانتك وشهرتك كمحام وتحصل على دخل يمكّنك من الاعتماد على نفسك وفتح منزلك ومكتبك الخاص وبذلك تكون متوازنًا أكثر وعنصرًا فاعلاً في الحياة بثقة وقوة وليس كالغريق الذي يحاول النجاة وإنقاذ الآخرين في نفس الوقت .

صمتت شيرين لحظة ونظرت إلى فخرالدين الذي كان ساهمًا :

– عن إذنك ، يجب أن أذهب الآن للبيت .

* * *

« أراك ، فأنجو من الموت

جسمك مرفأ

بعشر زنابق بيضاء ، عشر أنامل تمضي السماء

إلى أزرق ضاع منها

وأمسك هذا البهاء الرخامي ، أمسك رائحة للحليب المخبأ

في خوختين على مرمر ، ثم أعبد من يمنح البر والبحر ملجأ

على ضفة الملح والعسل الأوليين

سأشرب خروب ليلك

ثم أنام

على حنطة تكسر الحقل ، تكسر حتى الشهيق فيصدأ

أراك فانجو من الموت . جسمك مرفأ

فكيف تشردني الأرض في الأرض

كيف ينام المنام

يطير الحمام

يحط الحمام »

محمود درويش

« من أوراق فخرالدين »

* * *

النيل يجري في هدوئه الليلي . ارتطام الماء بالحائط الحجري يُحدث صوتًا خفيفًا كالخرير . شارع أبو الفدا غارق في ظلام أضواء سيارات متباعدة تمرق على أشجار الرصيف وأزواج العشاق المتناثرين على السور الحديدي المشبع بالليل وبالنيل . عينا فخرالدين مرَّتا من الشجر إلى الشعر إلى الجبين إلى عينين متسعتين يسحبانه إلى قاع النيل . تغرق نظرته في هذا البحر المتلاطم الحنان ويستمر في الهبوط إلى عمق لا نهائي العيون . تتسع العينان وتطبقان في خفر على نظرته فلا يرى سوى حدقتين عسليتين تغمرانه بحرارة هادئة ودفء . ترتعش نظرته وتغرق أكثر وأكثر . صمت شامل وغياب . لا أحد يجسر أن يخرجه من هذا الأسر العاشق المنعشق . لمست أصابعه أطراف أناملها فارتعد جسمه كله بتيار من الأخذ . اقتربت أصابعه أكثر من حواف أصابعها والتصقت . تداخلت أصابعه في أصابعها التي ينساب من بينها أنهار من عطش الماء . اجتاحت

أصابعه أناملها وانهمرت مطرا في راحة يدها المشتعلة بالحنو الذي غمر كفيه الفارقتين المستسلمتين في حب ممعن يفيض على الكفين المتداخلين ويقطر من عمق عينيها العطشى إلى انهيار عينيه فيهما ارتواء .

– يا أيتها المقدسة ؛ حين يفتح النهار يومي ، تشق الشمس صدري وتخرج قلبي وضلوعي ، وتتركني أمضي في الدنيا مفرغ الصدر . أحتاج ملاك لي . أحتاج أن أضمك فأملأ هذا الفراغ فيَّ وأعود للحياة .

– لا أستطيع .

– يا معبودة القلب الصغير الصغيرة ؛ هل يخضع الإله لشرعه الذي سن لعبيده؟

– لا تراوغ الكلمات . لا أستطيع .

– يا واحتي الخضراء ، لا تتركيني أموت على حوافك في صحرائي القاحلة ، أرشديني إلى دربك وضميني إلى نخيلك وعيون مائك .

– لا أستطيع .

– يا وطني ؛ سفُني الضالة منذ الخليقة تبحث عن مرافئك ، لا ترديني عنك ، أريد الرسو إليك أريد الرسو .

– لا أستطيع .

– هل تتركيني إذن أذوب عشقا وأنحل شوقا وأذوي سدي؟

– ألا تفهم أنت أني لا أستطيع ؟ أرضي التي شقق العطش طينها تحلم بمائك يرويها ويغمرها ، بخفقة جناحيك في سمائها ، تحتويها ، بحطتك عليها وانضمامك . أنا الواحة التي تفجرت عيونها فواكها تشتاق لعطشك وجفاف يدك وهي تحصدها ، أنا التي تموت خضرتها لصحرائك . ولكني لا أستطيع .

* * *

«إلى أين تأخذني يا حبيبي من والدي
ومن شجري
من سريري الصغير ومن ضجري ،
من مراياي من قمري ،
من خزانة عمري ومن سهري ،
من ثيابي ومن خفري ؟
إلى أين تأخذني يا حبيبي إلى أين ؟
تشعل في أذني البراري ، تحملني موجتين
وتكسر ضلعين ، تشربني ثم توقدني ،
ثم تتركني في طريق الهواء إليك
حرام ... حرام
يطير الحمام
يحط الحمام»

محمود درويش
«من رسائل شيرين التي
عَثُرت عليها في أوراق فخرالدين»

* * *

صعد فخرالدين السلالم الرخامية الواسعة . طراوة وبرودة خفيفة تنبعث في العمارة كلها . البواب الأسمر بعمامته البيضاء يلاحقه بنظراته. الدور الثالث . وقف المصعد . دفع فخرالدين الباب الحديدي العتيق وتقدم إلى شقة 9 . تفحص اللافتة النحاسية الصغيرة المعلقة على الباب. المهندس حسن محمود . تاهت أفكار فخرالدين فجأة كأنما انمحت . تَك

المصعد تكة عالية في الصمت ثم بدأ هبوطه . حدق فخرالدين في اللافتة مرة أخرى وبلع ريقه ، مد يدا متردده إلى زر الجرس . لمسه فانبعث على الفور لحن من زقزقة العصافير المزيفة . قلبه يغوص ويكاد يختفي . انفتح الباب وظهرت فتاة مشعثة الشعر رثة الثياب . بقعة كبيرة من البلل على بطن فستانها ويداها النحيلتان بهما آثار صابون .

- المهندس حسن محمود موجود ؟

أومأت الفتاة برأسها .

- من فضلك أبلغيه أن فخرالدين عيسى يريد مقابلته .

تركته الفتاة واقفا وغابت قليلا . الشقة تبدو مظلمة من الخارج . خشب بني يكسو الجدران وزاوية بيانو أبيض تبدو في الداخل . انسحب الباب بالتدريج حتى انغلق في وجه فخرالدين . ظل واقفا لحظة في ظلام الردهة ثم انفتح الباب مرة أخرى .

- تفضل .

دخل فخرالدين . تركته الفتاة في الصالة ودخلت . ظل واقفا لحظة في الصالة ثم دخل إلى الصالون المواجه . الصالون مذهب المقاعد واللوحات وصور أفراد العائلة . صورة لشيرين وهي في المدرسة الثانوية ، ساحرة مثلما هي . مكتبة خشبية ملأى بالتحف الصغيرة . وقع خطوات في الردهة. ظهر المهندس حسن محمود بطلعته المهيبة في روب قاتم اللون. لا شبه في ملامحه من شيرين . مد المهندس حسن يده الكبيرة لفخرالدين وشد على يده . شعرات بيض نابتة في ظهر يده . جلس الرجلان في صمت ثم افتتح المهندس حسن الكلام .

- أهلا وسهلا . لقد كلمتني شيرين عنك . الحقيقة أني أفضل أن ندخل

في الموضوع مباشرة ، تفضل ، أنا أسمعك .

كح فخر الدين كي يسلك زوره ولكنه لم يتسلك . بدأ الكلام فجاء صوته غريبا ومبحوحا :

– في الواقع ، وببساطة ، أني طلبت مقابلتك لأطلب منك يد الآنسة شيرين .

تعلقت عينا الرجل بفخر الدين الذي استطرد دون أن ينظر إليه :

– أنا مثلما تعلم حضرتك ولابد ، زميلها بالمكتب وتعرفت عليها من خلال العمل وأعجبت بشخصيتها ، ولما تيقنت أنها الإنسانة التي يمكن أن تشاركني حياتي ، جئت لأقابلك لأطلب يدها .

– جميل! هذا الكلام قالته لي شيرين . لكني أريد أن أسمع منك تفاصيل.

ابتسم فخر الدين ابتسامة شاحبة وهز كتفيه :

– أكيد سعادتك تعلم أني محام ، في أول حياتي ، من عائلة ريفية ، والدي ووالدتي توفيا وأنا صغير . بقية العائلة تعيش في الريف لكن علاقتنا للأسف منقطعة منذ مدة طويلة .

صمت فخر الدين هنيهة ونظر إلى المهندس حسن . أكمل :

– أنا أحب شيرين جدا وأحترمها ، وأحترم شخصيتها ...

صمت فخر الدين . نظر المهندس حسن إليه نظرة فاحصة . قطب حاجبيه قليلا . مرت لحظة صمت قطعها متسائلا :

– ماذا عن وضعك المالي ؟

– عادي . مثل أي شاب يبدأ حياته . أعتقد أننا سنواجه بعض المصاعب المالية في البداية ، لكني أعتقد أن هذه مسألة ثانوية .

– بمعنى ؟

- بمعنى أن نمط الحياة الذي أريده لنفسي ولشيرين يحتل فيه المال أهمية ثانوية. المهم فيه هو الرضا عن النفس، عما نفعل وعن حياتنا ككل. بالإضافة إلى أن المشاكل المالية ستقع علينا نحن الاثنين ومن ثم ستوحدنا ولا تفرق بيننا، عكس المشاكل التي تنشأ من اختلاف الشخصيات والتي تكون بين الزوج والزوجة كليهما.

ابتسم المهندس حسن لأول مرة ابتسامة قصيرة ثم أومأ برأسه مجيبا:

- كلام جميل! واضح أن لك مستقبلًا في المحاماة. لكني أسألك عن وضعك المالي، عن مركزك الاجتماعي، عن وضع عائلتك مثلا، أين هم؟ ماذا يفعلون بالضبط في بلدكم؟ هل سيأتون ليضعوا يدهم في يدي أم ما هو الوضع بالضبط؟ هل عندك شقة أم لا؟ ما هو دخلك بالضبط وهل سيمكنك من فتح بيت وتحمل مسئولية زوجة وأولاد ... إلى آخره. فهمتني؟

- نعم فاهم قصدك، لكني لا أفهم علاقة هذه الأسئلة بطلبي.

مال المهندس حسن على فخرالدين برأسه ودقق النظر في وجهه وهو يهز رأسه غير فاهم:

- لا تفهم علاقة ماذا بماذا؟

عاد بظهره للوراء واستند إلى مقعده الفسيح. استطرد في تهكم:

- حضرتك ناوي تتزوج في شقة أم في الشارع؟ أعتقد أن هذا سؤال له علاقة مباشرة بطلبك!

- الواقع أني أسكن حاليا في شقة صغيرة في بين السرايات.

- بين السرايات؟!

- نعم.

- حضرتك جاي تهرج؟

ضاقت ملامح فخر الدين :

- أنا لا أرى أي تهريج في الموضوع .

قام الرجل من على مقعده وخطا خطوتين نحو باب الغرفة . استدار وهو يدق الأرض بقدمه برتابة :

- حضرتك لا ترى أي تهريج في الموضوع! شيء جميل جدا . إذن أنت قادم من الشارع لتطلب مصاهرتي ، بلا عائلة ولا أهل أي بالضبط من الشارع ، وطبعا لا تحتكم على مليم أحمر لأنك شاب تبدأ حياتك ، وستأخذ ابنتي لتعيش معك في عشة في حواري بين السرايات ، أما المال فليس نمط حياتك ولا من اهتماماتك . ومتوقع أعطيك ابنتي؟

أطرق فخر الدين لحظة ثم رفع رأسه :

- أنا لا أتوقع أن تعطيني أي شيء .

- لا أفهم!

- أي أني تعرفت على شيرين وأعجبت بها وأريد أن أكمل حياتي معها ، ونظرا لأن التقاليد تقتضي موافقتك فقد جئت لأحاول الحصول عليها . لكن من الواضح أنك حددت موقفك من قبل أن تراني وفقا لمؤشرات المال والمركز الاجتماعي . ولكن الحقيقة أن شيرين ليست قاصرا ولا ولاية لك عليها . وموافقتها هي الفاصلة لا رأيك أنت .

ضغط الرجل على فكيه بشدة واحمرت وجنتاه . قبض بيده على زاوية الكرسي وأخذ نفسا عميقا :

- طيب! أنا غير موافق . والآن تفضل اطلع بره .

* * *

- لا بد أنك جننت!

- اسمعيني يا شيرين ، فقط توقفي عن الانصياع لأحكامك المسبقة وكلميني مثلما أكلمك . أنا أحبك ، وأنت؟

- أحبك .

- وأنا أريد أن أعيش معك بقية حياتي ، وأنت؟

- أريد أن أعيش معك بقية حياتي .

- إذن ما دخل أبيك في الموضوع؟ أنت الآن عمرك 24 عاما . أي لست قاصرا منذ ثلاث سنوات . وأنت محامية ولست جاهلة ولا في احتياج لغيرك . لا نحتاج مساعدة أهلك في شيء .

- هذا كلام نظري يا فخر ، نحن لا نعيش وحدنا في الدنيا . ماذا تظن أني سأفعل؟ أهرب من البيت في الفجر وآتي إليك؟

- لا ، لا أريد منك ذلك ، لكني أريد أن تقولي للسيد والدك إنك قابلت الرجل الذي سترتبطين به ، ثم نتقابل أنا وهو للتعارف لا أكثر .

- أي فيلم هذا؟

- وما الفيلم في ذلك؟

- الفيلم أني لا أستطيع يا فخر الدين .

- يا شيرين افهميني . لا أبوك ولا أي أحد آخر ممكن يعرفني أكثر منك أن أطلبه أو يستطيع الحكم على أفضل منك . إذن لا معنى لأن أطلب الزواج منك من شخص آخر . ثم إن ذلك أسلوب غير محترم أن أذهب لشخص لا أعرفه لأطلب منه أن يعطيني ابنته كأنها جوال بطاطس!

- لا بد أنك فعلًا جننت! نحن نعيش في مجتمع يا حبيبي ، وهذا المجتمع له قوانينه وله تقاليده المفروضة على أعضائه سواء أعجبتهم أم لا . إذا

كنت تعيش وحدك ممكن تعمل ما يحلو لك ، لو كنا نعيش في بيتنا كنا فعلنا داخله ما يحلو لنا ، لكن لكي نحصل على هذا البيت لا بد من أن نمر من النفق ، لا بد من أن نخضع لقوانين المجتمع .

- أنت تعلمين جيدا أن هذا غير صحيح . وعمليا ما الذي يمنعنا من أن نذهب الآن للمأذون ونكتب كتابنا؟

- الذي يمنعنا أني لا أستطيع!

- إذن المسألة ليست مجتمع ولا قوانين وإنما مسألة أنك أنت لا تستطيعين تحدي سلطة أبيك بالرغم من علمك بمساوئها عليك .

- ربما . ولكني لا أستطيع .

صمت فخر الدين وأطرق ناظرا إلى الأرض . مستطيلات البلاط الرمادي يمتد بلا نهاية على الرصيف . عاد ضجيج السيارات مرة أخرى إلى وعيه بعد أن كان مختفيا . كوبري القصر العيني ينوء بسياراته المندفعة إلى المنيل . شاب قصير القامة في كابينة التليفون أمام مستشفى القصر العيني يتحدث في التليفون وهو مستند إلى جدار الكابينة الأزرق . وقفت أمامه ثلاث نسوة متشحات بسواد وممسكات بورقة بيضاء صغيرة ينتظرن خروجه من الكابينة .

- اسمعيني يا شيرين .

عاد فخر الدين بوجهه لشيرين التي تيبست عضلات وجهها على تعبير من الضيق .

- حتى لو وافقتك على الذهاب لمقابلة أبيك وطلب يدك منه ، من الناحية العملية والدك لن يفهمني ولن يقبلني . سوف يوجه إلى الأسئلة التي يوجهها كل أب إلى عريس ابنته . وأنا ليس لدي إجابات على هذه

الأسئلة يا شيرين. ماذا أقول له ؟ هل من الممكن أن يفهم أحلامنا وآلامنا؟ خصوصيتنا وحساسيتنا؟ الدنيا الجديدة التي نريد بناءها بنا وحولنا؟ هل من الممكن أن يتفهم والدك هذا الكلام أو حتى يرى له أي قيمة؟ أنا لست عريسا يا شيرين ، أنا حبيب وقلب وحلم وثورة وبكرة لك ولي . كيف تترجمين ذلك إلى لغة مفهومة لأهلك؟

ثم إن أباك هذا هو نصف مشاكل حياتك والذي تشكين دائما من تسلطه ومن عدم تفهمه لك . ماذا تريدين مني أن أقول له ؟ عن إذنك يا فندم سأحرر ابنتك من تسلطك؟

– يا فخرالدين ، يا حبيبي ، أنا معك في كل ما قلته . لكن يجب أن نكون واقعيين . يجب أن تفهم أني لا أستطيع نفسيا أن أفعل شيئًا من قبيل ما تطلبه مني. ممكن أتفق معك نظريا على أنه كلام منطقي . لكن لا أستطيع. هل تفهم؟ لا أستطيع تحمل الشعور بأني أخطأ ، أو حتى أن بابا ينظر إليّ على أني مخطئة . لا أستطيع تحمل نظرته هذه ولا أستطيع تحمل الشعور بالذنب حتى لو أكن مذنبة . قل إنها زيادة أدب ، سمها حساسية زائدة ، أو حتى تخلفًا ، لكن أنا هكذا، وثورتي تبدأ عندما نكون في بيت واحد ، أكون معك وليس قبل ذلك . ثم ماذا ستخسر يا أخي لو قابلته وأرحتني؟! ألا تستطيع أن تفعل شيئًا أنت غير مقتنع بصوابه من أجلي؟

* * *

وضعت منار حقيبتها أمامها على المنضدة . مالت على كوب الليمون المثلج ورشفت منه رشفة وهي تنظر في الأفق . كان نادي الشمس مشمسا في عصر ذلك اليوم من سبتمبر والجو منعش . لكنها كانت حزينة ومقطبة الجبين . نظرت في عيني فلاحظت لأول مرة اتساع عينيها وجمالهما .

اجتهدت في الابتسام وقالت :

- لا أدري ماذا أقول لك . الموضوع كان أكبر من الخلاف حول طريقة الزواج أو حول شكلياته ، فقد استمرت علاقتهما بعد ذلك بشكل عادي وقررا تأجيل مشروع الزواج لحين . وكان المهندس حسن يعلم ضمنيا أن شيرين لم تقطع علاقتها بفخرالدين ، ولكنه كان يحاول بطرقه الخاصة أن يقضي على هذه العلاقة وفي هدوء . وقد نجح طبعا مثلما تعلم حضرتك . ولكن الفضل في ذلك لا يرجع إلى جهوده بقدر ما يرجع إلى شيرين وفخرالدين نفسيهما .

تنهدت منار قليلا ونظرت إلى الناحية الأخرى . كانت الشمس تقترب من الغروب وتصبغ الجو كله بحمرة . عادت بوجهها إلي وأكملت :

- الموضوع كان أكبر من ذلك وأعمق ، كان اختلافًا حقيقيًا . وللأسف لم يكن هناك حل ممكن .

* * *

اجتازت شيرين بوابة نادي الصيد وتطلعت حولها . كان فخرالدين واقفا على ناصية الشارع المقابل . اقتربت منه وتبادلا سلاما مقتضبا . توجها في صمت باتجاه ميدان الدقي . سارا صامتين . طويلا . حتى الميدان . أكملا سيرهما في شارع التحرير . الخامسة عصرا والحركة هادئة عند ميدان الجلاء . البرد والريح أقعدا الناس في بيوتهم في هذه الجمعة الحزينة . عبرا كوبري الجلاء إلى الجزيرة . على اليسار شارع أبو الفدا . انحدرا يمينا في الشارع الضيق المؤدي إلى شيراتون الجزيرة . رصيف ضيق وبلا زوار في هذا اليوم العاصف . حتى السيارات التي كانت تركن هنا عادة تركت المكان . جلست شيرين وبجوارها فخرالدين صامتين . اجتهدت

شيرين في تصنع ابتسامة .

أومأ فخرالدين برأسه ونظر إلى شيرين في عينيها. حولت وجهها نحو شيراتون القاهرة :

- يبدو أنهم سيشيدون فندقا آخر بجواره!

شبح ابتسامة على شفتي فخرالدين ثم وقعا في الصمت ثانية. هبت ريح فجرفت أوراق الشجر الساقطة على الأرض الجافة بين الرصيف وبين النيل . أغلق فخرالدين سوستة الجاكت بينما تداخلت شيرين في بلوفرها الصوف . همست شيرين وهي ترمق فخرالدين بعين تختبره :

- يبدو أن الدنيا كلها حزينة .

- وهل هناك أحد آخر حزين؟

- أنا!

نظر إليها فخرالدين والتقت عيناهما . نظرة فخرالدين مبللة بدمع يقطر في قلبه صمتا . تراجعت عينا شيرين . نظر فخرالدين في الأرض بين قدميه ، ودق السور بظهر قدمه .

- فعلا حزينة؟

رق صوت شيرين :

- لماذا تقول ذلك؟

هز فخرالدين رأسه ونظر بعيدا ولم يجب . استطردت شيرين :

- هل ممكن تشك لحظة أني أحبك؟

- أنا ...

صمت فخرالدين . رق صوت شيرين واختنق :

- لماذا لا تريد أن تفهمني يا فخرالدين؟ أنا أحبك . أحبك . ولا أستطيع

تخيل حياتي بدونك . لا أستطيع الحياة بدونك . ألا تفهم معنى أن تكون كل خيوط حياتي معلقة بك؟ لقد قلبت حياتي كلها . وأنا غير نادمة على ذلك ، بالعكس ، سعيدة بك وبحبك .

- أنت لا تستطيعين . ببساطة شديدة ، التقليدية والعجز مترسخان بداخلك . لا تستطيعين حتى أن تتركيني أفك قيودك وآخذك.

- أنت الذي لا تستطيع أن تضحي بأي شيء من أجلي . أنت تعبد نفسك يا فخر ولا تريد أن تتزحزح قيد أنملة من أجلي .

- أنت تعلمين جيدا أني أستطيع أن أضحي بأي شيء من أجلك . أي شيء ولا يوجد في الدنيا ما أُفضله عليك . أنت تعلمين جيدا كم أحبك . لكن ما تطلبينه مني ليس تضحية . أنت تطلبين مني أن أتغير ، أتنازل عن كل شيء نبيل بداخلي ، أتنازل عما هو سبب وجودي ومبرره ، ولو فعلت ذلك لن أكون فخر الدين الذي عرفتيه وأحببتيه . سأكون شبهه فقط ، وستكونين أنت أول واحدة تشتكي من غياب هذا القديم . مستحيل! أنت تريدين مني أن أتنازل عن تفردنا وعن حلمنا نفسه . ولم ؟ من أجل مظاهر ليس لها أي مبرر ولا تؤمنين أنت نفسك بها . ولكنك لا تستطيعين الوقوف في وجهها .

- لقد تنازلت عن أشياء كثيرة ، أنا لا أطلب منك أن نسكن على النيل أو نشتري سيارة آخر موديل . أنا أطلب فقط الأشياء الأساسية . الحد الأدنى للحياة الإنسانية ، بيت! بيت يلمنا!

- هذا كلام عام جدا! بيت يجمعنا! موافق طبعا ، لكن أي بيت؟

- بيت ، بيت آدمي . لا أقول بالتكييف ولا في جاردن سيتي .

- هذا غير وارد أصلا . لا تكييف ولا جاردن سيتي . أنت تتحدثين عن عالم لا أحبه وحلم حياتي أن أغيره . هذه ليست معاييرنا يا شيرين!

- نعم ، لكن أيضًا ليست معاييرنا أن نسكن على السطح في بين السرايات .

- ما لها بين السرايات؟

- زبالة!

- هذه «الزبالة» هي الدنيا الحقيقية . هي المكان الذي عشت فيه حياتي كلها في هذا البلد . وهؤلاء الناس هم الناس الحقيقيون وهم الذين يملئون مصر كلها وليس الحرامية بتوع المهندسين وجاردن سيتي!

- أعتقد أنه لا داعي للاستفزاز والشتيمة ثم إني لم أطلب منك أن تكون منهم.

- لا ، أنت أذكى من ذلك يا شيرين . أنت أذكى من أن تطلبي مني المستحيل . أنت تطلبين أقل قليلا . في البداية أعمل في المكتب بجوار قضاياي المجانية ، ثم بعد ذلك ، أتوقف عن القضايا المجانية وأتفرغ للمكتب وقضايا الفلوس ، ولفترة فقط يا فخرالدين بعد ذلك أنت حر ، والفلوس مهمة يا فخر من أجلنا ، ثم نتطور قليلا . لا داعي للبطولة الزائفة ومهمة المحامي الدفاع عن موكله وليس الفصل في القضايا ، وطبعا كلما كان الموكل غنيًّا كان ذلك أفضل .

- أنا قلت هذا؟ هل هذه هي فكرتك عني؟ ولما أنا بهذا السوء لماذا تحبني إذن؟

- ماذا قلت إذن؟

- قلتَ المفروض تنتبه أكثر للعمل في المكتب في هذه المرحلة . لم أقل لك ارفض القضايا المجانية ، لكن أيضًا من غير المعقول أن ترفض قضايا كبيرة لمجرد أنك تظن أن أصحابها مذنبون!

- ....

- نعم ، لا تتهكم . أنت تعلم جيدا أن هذه القضايا سيأخذها محام غيرك وسيكسبها وسيكسب من ورائها . أي أنك - وأنا معك طبعا - الوحيد الخاسر في هذه اللعبة ، وبلا جدوى .

- لكني لن أكون قد اشتركت في تبرئة مجرم .

- النتيجة واحدة ، مع فارق بسيط وهو أننا خسرنا .

- أنا محام يا شيرين ولست تاجرًا .

- إذا كنا نريد الزواج سنحتاج لبعض التجارة ، ثم إن التجارة لا عيب ولا حرام .

- ولكن ليس أنا يا شيرين . ليس أنا!

- أرأيت؟ لا تستطيع أن تتزحزح عن نفسك قيد أنملة .

- هناك أشياء لا يستطيع الإنسان أن يتزحزح عنها دون أن يخسر نفسه.

- وأنا أيضًا .

- وأنت أيضًا ماذا؟ لا تستطيعين التزحزح عن الأصول والصح والمفروض؟ وعن معتقدات السيد الوالد الذي لا يحترم سوى المال؟

- بالعكس لقد تزحزحت كثيرا ، ولكن هناك حدود .

- حدود .

- نعم هناك حدود . وهل يتحتم على أن ألبس ملاءة لف وأنزل أملأ صفيحة الماء من الشارع لكي أكون ثورية ومحترمة؟ ألم تر بذمتك منظر السلم والزبالة الملقاة عليه؟ والستات القاعدة في المدخل وطشوت الغسيل؟ ما هذا؟ والمياه التي تخر عندك من السقف طول الشتاء ، والرشح على الجدران؟ وأولادنا إن شاء الله يلعبون في الشارع مع العيال المقرفة التي يمرح الذباب على وجوهها؟ أهذه هي الثورية والأحلام والدنيا الجديد؟

- هذه هي البيئة التي أعيش فيها ، وإذا كانت سيئة فدورنا أن نعمل على تغييرها وليس الهرب منها لأنها في كل مكان .

- أنت حر فيما تفعل ، أما أنا فلا أستطيع العيش في مكان كهذا .

- وما الفرق بيننا؟

- الفرق أني لا أستطيع . ارتحت؟ نعم لا أستطيع . سمني برجوازية أو متخلفة أو تقليدية . مثلما تحب . لكني لن أعيش في بيئة كهذه!

- وأنا لا أستطيع أن أفعل ما تطلبينه مني .

هبت شيرين واقفة :

- الموضوع انتهى إذن . فكر جيدا فيما قلته لك ، وإذا وصلت لنتيجة كلمني في التليفون .

عبرت شيرين السور الحجري بقدمها وابتعدت صاعدة الطريق نحو كوبري الجلاء . ريح أخرى تهب وتعصف بأوراق الشجر الساقطة على الأرض الطينية الجافة بين الشارع والنيل .

* * *

«رأيت على الجسر أندلس الحب والحاسة السادسة

على وردة يابسة

أعاد لها قلبها

وقال : يكلفني الحب ما لا أحب

يكلفني حبها

ونام القمر

على خاتم ينكسر

وطار الحمام

رأيت على الجسر أندلس الحب والحاسة السادسة
على دمعة يائسة
أعادت له قلبه
وقالت : يكلفني الحب ما لا أحب
يكلفني حبه
ونام القمر
على خاتم ينكسر
وطار الحمام
وحط على الجسر والعاشقين الظلام
يطير الحمام
يطير الحمام»

محمود درويش

* * *

قالت منار وهي شاحبة الوجه لاهثة :

– نعم مات . كانت شيرين قد تركت المكتب من فترة وسافرت إلى فرنسا مع والدها . وكان فخرالدين ما زال يأمل في أن تعود إليه . كان في حالة يرثى لها ، حالة اكتئاب كاملة ، وقد حاولت أن أساعده وأن أساعد شيرين ولكني لم أستطع. كان كل منهما على صواب بشكل من الأشكال وكنت كلما ناقشت أحدهما لا أستطيع أن أدحض منطقه ، لكن المنطقين كانا متناقضين تماما . شيرين كانت أقوى في الواقع . كانت غاضبة بشدة مما اعتبرته تخليًا عنها من جانب فخرالدين ، وقد مكنها ذلك الغضب من احتمال الانفصال ثم ساعد السفر على تأكيد قرارها بخروج فخرالدين من

حياتها . وبعد ذلك مثلما تعلم تزوجت من أحد أعضاء السفارة المصرية في باريس . كان خبر خطبتها هو الذي قضى على بقية أمل فخرالدين في عودتها . وقد مات بعد ذلك بقليل . لا أريد الدخول في تفاصيل ذلك . أنت تعرف القصة ولا شك . من الناحية الطبية اكتئاب حاد مصحوب بسوء تغذية أديا إلى هبوط في القلب ثم الوفاة . قال لي الطبيب : إنه كان يشك في أنه انتحار بتناول كمية كبيرة من الأقراص المهدئة ولكن ما يهمني هو الناحية النفسية لقد أحسست أن فخرالدين مات من قبل ذلك بفترة . مات موتا بطيئا في الفترة الأخيرة من حياته . كان في تدهور مستمر منذ بدأت مشاكله مع شيرين ، وكان تَرْكها له الحلقة الأخيرة في تدهور نفسيته . رحمه الله على قدر صلابته الخارجية كان هشا للغاية من الداخل ، ربما هشا أكثر من اللازم . عندما رأيته قبل وفاته بأسبوع لم أعرفه . كان شبحا نحيلا ومظلما ، كأنما انحل إلى شفافية مطلقة إذا جاز التعبير ، وخيل إليَّ أني أرى من خلاله . عندما أخبرته بخبر خطبة شيرين - وكان ذلك يوم جمعة فيما أذكر - شعرت كأنه تلاشى من أمامي تماما . لم يكن رد فعله عنيفا . في الحقيقة لم يكن له رد فعل . لقد نظر إلي وخيل إلي أني رأيت بريقا في عينيه للحظة ثم لا شيء . انطفأت عيناه وانطفأ هو نفسه . ولم يرد علي . ظللت واقفة حوالي عشر دقائق ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة . لم يتحرك ، لم يرمش حتى . رحمه الله ، كان موته رحمة له ولمن يحبونه .

العشاء الأخير

«أكلت من الرغيف الفذ
ما يكفي المسير
إلى نهايات الجهات
عشاؤكم ليس الأخير»

محمود درويش

- 1 -

كشفت ابتسامتها عن أسنانها البيضاء ثم عادت شفتاها وانطبقتا مرة أخرى وقالت في جدية :

- لا أعرف ماذا أقول لك . رحمه الله . لقد تأثرت جدا بالخبر وظللت فترة طويلة في حالة من الاكتئاب والعجز عن العمل بعد سماعي بهذا الخبر المشئوم.

دق جرس التليفون فوضعت يدها على السماعة وابتسمت ثانية :

- نسيت أسألك ، تشرب شاي؟

ردت على التليفون قبل أن تسمع الرد مني .

- نرجس مصطفى صباح الخير .

ظللت أتأمل المكتب . بينما انهمكت الآنسة نرجس في الحديث التليفوني. مكتبها شديد الأناقة . بجوار الباب أرفف صغيرة مكتظة بملفات سوداء مكتوب على كعوبها بماء الذهب . كتب قانون قديمة في دولاب زجاجي مغلق. حامل معلقة عليه تقارير كمبيوتر في ملفات ضخمة . أوراق متناثرة على مكتب الآنسة نرجس ودبابيس وتليفونات . كانت المحادثة ما زالت مستمرة وتبدو طويلة . تسللت خارجا إلى مكتب السكرتيرة ريثما تنتهي مكالمتها . كان مكتب السكرتيرة خاليا . جلست صامتا على المقعد المواجه لمقعدها الخالي . مرت لحظة ثم سمعت صوت دق كعب عال على السلم . دخلت سالي وهي تلهث . وضعت حقيبتها على المكتب ونظرت للساعة وهي تسوي شعرها بيدها اليسرى . نظرت إليَّ نظرة عابرة وجلست على مكتبها . أخرجت علبة سجائر وفتحت زرار قميصها العلوي وهي تَهْوِي على صدرها. تنَهدَتْ بعمق ثم أشعلت سيجارة . نظرت إليَّ ثانية وسألت :

- الأستاذ جديد معنا؟

عندما عرفت شخصيتي ومهمتي سألتني إن كان هناك جديد في الموضوع فقلت : أبدا بعض الاستقصاءات . أريد أن تحكي لي عن حياته في المكتب ، ماذا كان يفعل؟ كيف كان يتصرف في حياته اليومية هنا؟ انفعالاته ، مشاكله ، كل الأشياء العادية التي لم تذكريها في التحقيق .

قالت :

- كل ما أعرفه قلته في التحقيق . كان مجنونا بعض الشيء ، وأحيانا كان مجنونا جدا ، ولكنه كان طيبا أيضًا . لقد كنت حذرة معه منذ البداية؛ لأنه شخصية متقلبة وهوائية . كان شديد الهدوء ، والبرود أحيانا ، وكان ذلك يستفز بعضهم هنا لكنه كان يريحني أنا شخصيا ؛ لأن لدي ما يكفيني من الزعيق طوال اليوم (وأشارت إلى مكتب الآنسة نرجس) . كان ذلك أيضًا مريحا أحيانا على مستوى العمل . أذكر أنه استلم مرة قضية مستعجلة جدا بعد أن رفضها الجميع لضيق الوقت المتبقي على نظرها ، واستطاع أن يلمها وكسبها فعلا . وذلك في الحقيقة كان مبعث إعجاب الأستاذ حازم به .

صمتت سالي لحظة ثم قالت وهي تسوي قميصها بيدها :

- الحقيقة أنه كان غريبا بعض الشيء . في مرة جلس مكان حضرتك هنا صامتا حوالي نصف ساعة ، وفجأة بدأ يسألني أسئلة غريبة من قبيل لماذا اخترت العمل في المكتب هنا وماذا أريد أن أفعل في حياتي .. إلى آخره .

هزت رأسها وهي تتذكر . نظرت إلي وهي ساهمة بعض الشيء ثم قالت لي :

- تعرف؟ أحيانا كنت أتذكر هذه الأسئلة بعد ذلك وأسألها لنفسي! الله يرحمه . أكثر من تضايقوا منه في المكتب مدام سوزي . عمل معها ذات مرة في قضية لمدة ثلاثة أيام ثم أرسل لها ورقة مع الوكيل يقول لها إنه غير مستعد يبيع ضميره ويدافع عن مجرم! كان ذلك قبل موضوع قضية

المخدرات بكثير . من يومها وهي لا تطيقه .

* * *

كان إدوارد منحنيا على مكتبه بكرشه الضخم يدون ملاحظات في كارت أبيض وسماعة التليفون معلقة على كتفه الأيسر . ابتسم مشيرا لي بالجلوس ثم وضع سماعة التليفون وواصل الابتسام :

- أنا آسف جدا ، ليس لدي وقت للاستفاضة في الحديث فلدي محكمة. حضرتك زميل وعارف .

ابتسمت ابتسامة باهتة فأكمل :

- على العموم لقد قلت كل شيء في التحقيق . فقط أريد أن أضيف إضافة ، الأستاذ حازم هو المسئول . لقد قلت له من البداية إن هذا شخص مجنون رسمي وسيتسبب في مشاكل . حضرتك رجل قانون وفاهم. هذا النوع الذي يظل يتحدث في شعارات الحق والظلم أكثر مما يعمل في المحاماة نفسها ، هذا النوع مكانه ليس المحاكم . مكانه الصحافة ، الانتخابات ، يكتب شعرًا ، هو حر في نفسه لكن بعيد عنا وعن عملنا ، حضرتك عارف المحاماة . الأستاذ حازم لم يقتنع بكلامي ، إذن ماذا تريد مني أن أفعل؟ اربط الحمار مكان ما يريد صاحبه ، وقد كان . وهذه هي النتيجة!

قام إدوارد من خلف مكتبه :

- اعذرني ، يجب أن أذهب الآن للمحكمة ، تحياتي لمحمود بك .

* * *

عندما عدت للآنسة نرجس كانت قد انتهت من محادثتها التليفونية الطويلة . دخلت فابتسمت لي وطلبت من السكرتيرة عدم إزعاجنا . كانت نرجس هي الشخص الرئيسي المستهدف من زيارتي للمكتب في الواقع ،

فقد كنت على علم مسبق بمواقف وأقوال الآخرين . جلست نرجس أمامي وقالت في هدوء :

– فخر الدين عيسى كان شابا ممتازا بجميع المقاييس . وقد ارتحت له من البداية . صدقني ، لا تستمع لما قد يقوله لك البعض هنا . فخر الدين كان إنسانا نقيا إلى أبعد الحدود وربما كان ذلك السبب في المشاكل التي جرت له هنا ، كان مثاليا زيادة عن الممكن . في الواقع هو كان يحب مهنته جدا ويحترمها ، كان يحترم قيمة العمل نفسه كمحام وكان شديد التفوق فيها وهذا أيضًا كان يثير العدوات من جانب من هم أقلّ منه قدرة، خاصة ممن هم أقدم منه في المكتب والذين لم يتحملوا الثقة التي كان الأستاذ حازم وأنا نوليها له بالرغم من حداثة عهده بالمهنة وبالمكتب معا . والحقيقة أن فخر الدين كان حادا أيضًا في تصرفاته ، كان صريحا لدرجة جارحة في بعض الأوقات ، وقد كلمته كثيرا في ذلك . قلت له إن الموضوع الواحد يمكن تسويته بشكل حاد وجارح ويمكن تسويته بشكل لبق . وكان يقبل كلامي ولكنه رحمه الله كانت الحدة في طبعه .

أنا شخصيا أعتقد أن سبب هذه الحدة هو الإخلاص الشديد والمثالية. ولكن طبعا ذلك لا يبرر سلوكه.

من ناحية ثانية فإنه كانت له وجهة نظر خاصة في المحاماة وفي المكتب . كان رأيه أن المكتب مثلا يجب ألا يقبل قضايا نعرف أن أصحابها مذنبون ، طبعا هذا خلاف كلاسيكي حول دور المحامي والقاضي ولكن في نهاية الأمر ، وبغض النظر عن أن هذه وجهة نظر مثالية أو حتى خيالية أكثر منها عملية ، فهذا المكتب ملك للأستاذ حازم وهو الذي يحدد سياسته العامة وهو الذي يعين المحامين ويقيلهم ، وهو غير مسئول أمامنا . أنا مجرد مديرة تنفيذية لهذا المكتب أتحرك في ضوء الخطوط العامة التي

يحددها لي . وكان رأيي الذي قلته له هو أنه يعمل في هذا المكتب ، وعليه أن يخضع لنظمه وقواعده وأن ينفذ سياساته . فيما بعد ، عندما يكون له اسمه ومركزه ومكتبه الخاص ، وهذا شيء أكيد في نظري ، يستطيع أن يطبق ما يشاء من نظم حتى لو أراد أن يعمل بالمجان . وفي الحقيقة فإن هذه كانت طريقة لبقة لإفهامه طفولية أفكاره هذه . وهذا شيء لم يكن ليعرفه إلا بالخبرة وبالتمرس في المهنة . مع الوقت فقط كان سيدرك أن التفرقة بين المذنب والبريء بالنسبة للمحامي مسألة صعبة وغير مهمة في نفس الوقت. وأن المحامي ليس خليفة الله في الأرض ولا المسئول عن العدالة الإلهية ولكنه حلقة في نظام معقد . نحن نعيش في مجتمع متشابك ومركّب ولكلٍ منا دوره . حتى القاضي لا يستطيع أن يزعم أنه يطبق العدل في الأرض. القاضي نفسه حلقة في سلسلة ، ومدى عدالة حكمه مرتبط بالسلسلة كلها ، إن كانت الحلقات الأخرى مختلة سيكون حكمه هو أيضًا مختلا . ثم في النهاية مسألة العدل هذه نسبية . ما الذي يشكل عدلا وما الذي يشكل ظلما ومن الذي يحدد ذلك ؟ هذه فلسفة القانون والقضاء وليست المحاماة . وهذه الأسئلة تشغل بال طالب الحقوق ولكن مع الوقت ينتهي إلى استحالة القطع فيها فينساها في غمرة الحياة ويندمج في دوره كمحام . فخر الدين كان غريب الشأن . لم يكن ينسى ولا ييأس . كان كل يوم كأنه أول يوم له في المحاماة . والنتيجة تعرفها حضرتك أكثر مني .

- 2 -

شارع العهد الجديد ضيق ونصف مسفلت . تنبعث الروائح والأصوات المختلفة من المحلات على الجانبين وتنبعث النظرات المستفسرة من الوجوه الساكنة . بائع بطيخ يحتل ناصية على اليمين . هنا كان يعيش

فخرالدين . أمام بائع البطيخ محل ضيق يبيع أرغفة الكفتة ، الرغيف بخمسين قرشًا . دخلت في الشارع الضيق المتعرج إلى اليمين . محل لبيع شرائط الكاسيت يصدح بأصوات متباينة . باب عريض من الحديد الصدئ في مواجهته . دفعت الباب فأز . دخلت. بضعة سلالم عريضة ثم سلم ضيق وعال . فوق السطح ، في الطابق الخامس توجد الشقة التي عاش فيها فخرالدين الأيام الأخيرة من حياته . صر باب الشقة وهو ينفتح أمامي . لم يدخل أحد الشقة منذ إغلاق ملف التحقيق . ورفضت صاحبة المنزل أن تؤجرها . عندما أخبرتها بحقيقة مهمتي أخرجت المفتاح من صدرها وأعطته لي دون كلمة واحدة . الشقة مكونة من غرفة واحدة وصالة صغيرة بها نافذة واحدة تظهر السماء منها وقمة المنزل المجاور . حمام صغير ومطبخ محشور بين الصالة والحمام . في المطبخ ، السقف الخشبي به بقعة كبيرة من الرطوبة والرشح . تحتها بقعة على الأرض من أثر تسرب المياه . خرجت إلى الصالة ثانية . منضدة صاج ومقعد عريض على الحائط . خطوت باتجاه غرفة النوم. كل شيء في مكانه منذ آخر يوم خرج فيه فخرالدين من البيت ومثلما وصفته محاضر الشرطة . فراش منخفض على الجانب الأيمن عليه أغطيته بيضاء غير مرتبة . فوق السرير، على الحائط ، ثلاثة مُعلقَّات صغيرة عليها صورة للموناليزا ولطفلين صغيرين. على الجانب الأيسر مكتبة مكدسة فيها الكتب والشرائط . التراب يعلو كل شيء في هذا المكان المهجور . على المكتب طاقم جلدي بني اللون قديم ومشقق، قلبته على ظهره فوجدت إهداء وتوقيع شيرين حسن . نتيجة المكتب مثبتة على تاريخ الحادث .

نظرت إلى المرأة العجوز وهي واقفة عند الباب . قالت لي فجأة :

– هل قبضتم على القتلة؟

في المطبخ الصغير وجدت بوتاجاز أبيض . نافذة صغيرة أمامها قلة ماء ناشفة ، لا قطرة فيها .

- 3 -

كان عليَّ أن أقابل الأستاذ عباس فخري في دار القضاء العالي . عندما بدأت أركن سيارتي في الموقف المجاور اجتاحني شعور قديم جدا . شعور لم أخبره منذ شهور طويلة . رايت المنادي نفس المنادي الذي كنت أراه عشرين مرة في الشهر . دفعت له نفس البقشيش الذي كنت أدفعه له ونزلت من السيارة وتوجهت للسلالم العريضة . وضعت قدمي عليها . كم من الوقت مر عليَّ دون أن أدخل هذا المكان؟ صعدت السلالم ودلفت من بين الأعمدة الضخمة الشاهقة ووجدتني صغيرا جدا وغير مرئي بملفاتي الصغيرة في حقيبتي الصغيرة . كان الناس يتدافعون خارجين داخلين مثل أي يوم آخر ، وكان المحامون يجرون ويلهثون مثلما كنت أفعل. كان كل شيء مثلما كان ومثلما كنت . وكنت أظن نفسي أنا النابغة بمكتب النائب العام محور الحركة والنشاط . ذهبت فلم يتوقف شيء ولم يحدث أي شيء ، ولا أحد يعرفني ولا أحد يقف لي وأنا أمر من بين الأعمدة إلى البهو الداخلي! حتى السعاة الذين لم أكن أكاد أسمع تحيتهم في الصباح وعند رحيلي في المساء ، صرت أرقبهم من طرف عيني علَّ أتعرف على أحد منهم أو يذكرني أحد . كانوا جميعا يرقبونني في استفسار . لم يكن أحد هنا يعرفني .

كان الأستاذ عباس فخري واقفا مع عملاء له ومنهمكا في حديث طويل. وقفت بجوار العمود في انتظاره حتى أتى . خرجنا من الدار معًا وعبرنا الشارع باتجاه النقابة . كانت لافتات الدعاية الانتخابية تملأ حديقة النقابة. مقاعد الحديقة البلاستيكية البيضاء ممتلئة بأعضاء النقابة المنخرطين

في أحاديث الانتخابات . المناضد ممتلئة بأكواب شاي وليمون وعلب سجائر . جلسنا في طرف قصي بعيدا عن الزحام وجاء الشاي ساخنا. قام الأستاذ عباس فخري لتحية بعض مؤيديه واستغرق معهم في حديث صاخب. غاب نصف ساعة كاملة أكملت فيها شرب الشاي وتفقد أسماء المرشحين. عاد إليَّ وانحنى عليَّ بكرشه الضخم والسيجار المعلق دوما في فمه :

- سامحني يا أستاذ . حضرتك شايف .

اهتزت رقبته السميكة المحاصرة بالياقة البيضاء المنشاة . عدل بيده ربطة عنقه وهو يجلس على الكرسي الذي يتسع بالكاد له واستطرد :

- لقد فضلت أن نجلس في الحديقة هنا وليس في مكتبي لكي نخلق جوا غير رسمي . ما دام الحديث غير رسمي ، أليس كذلك ؟

أومأت برأسي موافقا وهو يضحك ضحكة صغيرة وينظر إليَّ . أطال النظر ثم قال فجأة :

- هل تحب أن تبدأ أنت أم أبدأ أنا ؟ أقول لك؟ أبدأ أنا . سعادتك شايف بنفسك لأي درجة الوقت ضيق . اسمع يا سيدي العزيز . قصة الأستاذ فخرالدين عيسى كانت فضيحة بكل المقاييس . فضيحة أولا للمكتب المحترم الذي كان يمثله المذكور ، وفضيحة للجامعة التي سلمته ليسانس الحقوق دون أن تُعرِّفه دور المحامي من دور النيابة العامة ، وفضيحة للنقابة التي أعطته ترخيصا بمزاولة المهنة ، وفضيحة أخيره للمجتمع كله الذي فشل في تربية أبنائه إلى هذا الحد . هذا الولد كان ينبغي محاكمته ، مثله مثل الجندي الذي يرفض تنفيذ الأوامر في ميدان المعركة! هل سمعت في حياتك عن محام يقف في محكمة الجنايات وبعد مرافعة طويلة عريضة في القانون والفلسفة وكل ما يخطر على بالك ، يطالب من هيئة المحكمة بتطبيق أقصى العقوبة على موكليه؟!! هذه كارثة! والله العظيم كارثة.

هذا معناه أن نغلق جميعا مكاتبنا ونروح بيوتنا ولا نعمل . وفي التحقيق سيادته يقول ، إنه اكتشف أن موكليه مذنبون! وما لك أنت إن كانوا مذنبين أم أبرياء؟ هل شغلك أن تقرر من المذنب ومن البريء ؟ إذن ماذا يفعل القضاة؟ يترافعون عن المتهمين؟ شيء غريب! كل إنسان في هذه الحياة له دور . دور محدد ومرسوم والمفروض ألا يخرج أحد عن دوره المرسوم وإلا أصبحت فوضى .

التقط الأستاذ عباس أنفاسه . أخرج منديله الأبيض ومسح العرق من غضون وجهه . هز رأسه في أسى . فسألته :

- وماذا حدث بعد ذلك ؟

- أبدا! أنا كان رأيي أنه مجنون . مجنون بالمعنى الطبي للكلمة ، أي لديه اختلالات عقلية ونفسية يجب تقويمها في مصحة . وإذا لم يكن مجنونًا يجب محاكمته . وكان هناك فعلا رأي في النقابة أن نحوله للقومسيون الطبي ليودعه في مصحة عقلية . لكن الرأي الذي ساد في المجلس وقتها - وربنا يسامحهم - كان الاكتفاء بفصله وإيقافه عن ممارسة المهنة . وفي رأيي فإن ذلك لم يكن إجراءً كافيا من جانب نقابة تحترم نفسها وتحترم مهنتها .

صمت الأستاذ عباس ثانية فقلت له :

- نعم أنا على علم بهذه التفاصيل ، ولكني كنت أسأل عما حدث بعد ذلك .

- أي بعد ذلك ؟ هذا كل ما حدث .

- أقصد ما حدث بعد إيقافه .

- ما أدراني أنا بما حدث بعد إيقافه؟! أنا لم أسمع عن هذا المجنون بعد ذلك أبدًا!

- وقصة محاميّ بين السرايات؟

صمت الأستاذ عباس فجأة ونظر إليَّ بحدة . كانت ملامح وجهه

متجهمة. اختلجت عضلة في رقبته ونظر في ساعته وهو يقف :
- أنا لا أعرف ما هي قصة محاميّ بين السرايات التي تتحدث عنها هذه!
ولكن قل لي، ألم يكن هذا الموضوع الكئيب قد أغلق؟ من الذي فحر فيه ثانية؟!

- 4 -

أسمر الوجه ، أسود العينين . قصير القامة ضئيل الجسم .
- أنا علي .
قالها لي كأنه يذيع سرا . ثم صمت . ظللت أقص عليه تفاصيل مهمتي ، وكان ينظر إليَّ طوال الوقت وهو يهز رأسه . سكتُ ، فظل ساكتا .
نظرت إليه . كانت حبات العرق تتسلل في بطء من جبينه إلى صفحة وجهه . لم يكن ينظر إليَّ . كان ينظر في قدمي . ظللت ساكتا . ظل صامتا . مرت لحظات . نظر إليَّ فجأة وقال في لهجة صعيدية واضحة :
- وبعدين؟
- لا شيء .
همهم وغمغم وأطرق برأسه مرتين ثم عاد للصمت .
- أريد أن تقص ما رأيت ، ما ...
- اسمع يا أستاذ! أنا لا أريد أن تضيع وقتك معي ولا أريد تكسير دماغ . ما فائدة هذا الكلام ؟
- لا أفهم .
- هم! عظيم! حضرتك بتتكلم عربي؟ أنا باكلمك بالعربي ، باسأل سؤال محدد : ما فائدة أن أقص عليك كل القصة وأحكي وأوجع دماغي؟ هل سيفيد ذلك في شيء ؟ هل ستفعل بهذه الحكايا شيئًا ؟ هل تستطيع أن تفعل أي شيء ؟

– شيء مثل ماذا؟

– مثل الله يخرب بيوتكم يا أخي ! ألم يكفكم أنكم قتلتم الرجل ؟ ماذا تريدون بعد ؟ ماذا تريدون قل لي ؟ أنا أريد أن أفهم ! هل تريدون أن تقتلوني أنا أيضًا ؟ ولم لا ؟ ممكن ! ممكن تقتلوا أي واحد ! في أي يوم يطلع في دماغ واحد منكم أنه يقتل شخص ما فيقتله . يا ليتكم قتلتوني يا شيخ معه وأرحتوني من قرفكم وقرف العيشة معكم ؟

صمت علي وأطرق ثانية . ثم استطرد بعد هنيهة . كان ساهمًا سارحًا :

– أنا والله لا أصدق ما حدث . حتى الآن لا أصدق ما حدث . وأحيانًا أقعد مع نفسي وأفكر كيف حدث ذلك . ولم ؟ ولا أستطيع أن أبلع النتيجة التي أصل إليها . دماغي ستنفجر . وأصبح يجيئني صداع غريب لا أعرف ما أصله ويبقى في رأسي طول اليوم . قل لي أنت أستاذ : لماذا قتلوه ؟ ألم يتحملوا وجوده إلى هذه الدرجة ؟ تعرف حضرتك ، فخرالدين كان معروفًا في بين السرايات كلها ، وبالذات منذ رفته من النقابة . كان قد تخلص من المكتب وقرفه وتفرغ للناس . كنت أقعد معه على القهوة التي على ناصية الشارع ، نشرب شاي ، نلعب طاولة ، وكانت الناس تأتي إليه وتسأله . كل من عنده مشكلة أو قضية كان يشرحها له بالتفصيل ويحدد له الإجراءات التي يجب أن يتخذها وكان يأخذه ثاني يوم لأي محام من المحامين الشباب المتلطعين على أبواب المحاكم ويفهمه القضية بكلّ جوانبها ، حتى أرقام المواد التي لها علاقة بالقضية كان يحددها للمحامي ، وكان أيضًا ينفق على أتعاب المحامي . لم يكن يتقاضى عن ذلك أجرًا أبدًا . لكن صاحب المشكلة كان عادة ما يرسل لصاحبة المنزل صندوق فراخ أو فاكهة أو أي شيء من هذا القبيل ، وكانت هي تتولى إعداد الطعام لفخرالدين . أحيانًا كان صاحب المشكلة يسألني وخصوصًا لو كان من خارج بين السرايات

وكنت أقول له يدفع أي مبلغ يرضيه إلى صاحب محل الكفتة الذي كان يرسل لنا العشاء على القهوة من حين لآخر .

ومع مرور الوقت اشتهر فخرالدين في الحي كله ، بل في بر الجيزة كله وكان يأتيه ناس من المنيب ومن أم المصريين ومن كفر طهرمس وصفط اللبن وإمبابة . وبدأ المحامون الشباب يأتون للقهوة للجلوس معه واستلام القضايا بدلًا من أن يذهب هو إليهم ، وتوطدت علاقتهم به ، وكنت أحضر هذه الجلسات . كانوا أكثر من عشرين محاميًا وكان فخرالدين يوزع القضايا عليهم ويحدد لهم الأتعاب وفقًا لحالة صاحب الحالة . وأصبح هؤلاء المحامون يأتون كل ليلة تقريبًا حتى لو لم يكن هناك قضايا . وكان يأتي مَن يأتي من أصحاب القضايا ، وكانوا في معظمهم غلابة . وأحيانًا كان الخصمان يأتيان معًا فيفصل بينهم فخرالدين مباشرة . وأصبح سكان الحي كلهم يعتزون به ويبجلونه ويحبونه مثلما لم يحبوا أحدًا من قبل ، وعرض عليه كثير منهم تزويجه من إحدى بناتهم لكنه كان يعتذر في أدب ، وأقسمت صاحبة المنزل الذي يسكن فيه ألا تأخذ منه مليمًا طول حياتها. وصار الطعام يأتي إليها من سكان الحي كلهم بالدور وهي تعده له . وفي مرة حاول صاحب القهوة وصاحب محل الكفتة أن يستأثرا هما الاثنان بإمداد صاحبة المنزل بالطعام لفخرالدين فثار سكان الحي وكادت تصبح خناقة وهددوا بإبلاغ فخرالدين ، فتراجع الرجلان فورًا، وأصبحت هذه العادة عرفًا أو أقوى . وصار فخرالدين يخطو أمام كل بيت فيعلو منه السلام ، ويلاعب الصغار المجتمعين أمام الباب ، ويدعوه الرجال للدخول وهو يشكرهم في أدبه الجم وتواضعه الدائم . ومن أمانته عهد إليه القادرون بتوزيع زكاة المال والفطر فكان ينفقها في مواضعها والله على ما أقول شهيد . فقد كان رحمة الله يعرف المحتاجين والمعوزين

والأرامل وطلبة العلم وكان ينفق عليهم في السر من هذه الزكاة. وذات مرة رفضت مستشفى بولاق الدكرور إدخال مريض من الحي فجمع الناس وذهبوا للمستشفى جميعًا ، فلما رأت إدارة المستشفى سكان الحي كله أمام الباب خافوا وأدخلوا المريض ، ومن يومها استقام لأهل الحي العلاج في المستشفى . رحمه الله لم تحدث أيامه ولا حادثة سرقة واحدة في الحي كله. وكانت سيرته موضع حديث الناس من البراجيل شمالاً حتى العياط جنوب الجيزة .

صمت علي . كان ما زال ينظر في قدمي . قلت :

- وموته ؟

- قال : قتله .

- وقتله ؟

- قتلوه الخونة . قتلوه الكلاب . قتلوه من قض مضاجعهم هدأة بالنا وراحتنا واطمئنان عيشتنا .

- وأين كان أهل الحي ؟

- ...

- وأين كنت أنت ؟

- أطرق علي ، ثم قال :

- في أسوان .

-5-

أخرج فخر الدين رأسه من تحت البطانية . فتح عينيه ثم أطبقهما ثانية. بقايا الضوء الذي تسلل داخل جفنيه يوخز مقلتيه . فرك جبينه بيده ثم أسند ظهره للسرير . ما الذي أيقظه مبكرًا هذا الصباح . لا يدري. شيء غريب في

جو الغرفة لا يدري ما هو . نزل مبطئًا من على السرير إلى الأرض تتحسن قدماه فردتى الشبشب . خارجًا من غرفة النوم إلى الصالة الصغيرة . أدرك فخرالدين أن هناك أمرًا غريبًا يسبح في هواء الشقة كلها . صمت غريب يطبق على المكان والزمان ويمتد ليشمل الكون كله . صمت جاثم بصدره على الهواء وعلى الأشياء . فتح الحنفية فلم تجيء المياه . بحث عن الماء في المطبخ . تفتحت حواسه والماء يجلو بقايا الحلم من ثنايا النوم في وجهه . الصمت الغريب يكسب الهواء مرارة . النافذة الوحيدة في الصالة مفتوحة على ضوء بلا شمس . ما الذي أيقظني مبكرًا هذا الصباح ؟ بقايا العشاء لا تزال على المائدة الصاج المربعة. هذا الصمت مبالغ فيه. لا صوت يأتي من الخارج ، حتى نقرات المطر الليلى توقفت ، حتى بحيرة الماء التي تكونت على السطح الخشبي توقفت عن تسريب قطراتها في المطبخ . وقف فخرالدين في الصالة يحدق في النافذة المرتفعة . لا شيء يبدو منها سوى سماء بيضاء مفممة بلون رمادي داكن وقمة المنزل المجاور . نظر فخرالدين إلى قمة المنزل المجاور وأمعن النظر . « من الذي ضغط على نومي حتى خنق لحظته العابرة فأوقفها وأخرجني من الحلم إلى النوم إلى اليقظة ؟ » نظر فخرالدين طويلًا إلى قمة المنزل المجاور ثم ارتسم على ملامحه هدوء وسلام . استدار إلى غرفة النوم فتح باب الدولاب الخشبي القديم . مد يده إلى جلبابه الأبيض وسرواله الأبيض. بحث عن جوربه الأبيض والتقطه. أكمل فخرالدين ارتداء ملابسه . حذاء كاوتشوك أبيض. أبيض شاهق، وصباح . عاد فخرالدين إلى الصالة وجال بنظره على الأشياء مودعًا : المنضدة، الكرسيين الخشبيين ، ساعة الحائط القديمة ،المقعد العريض ذي القاعدة الساقطة قليلًا ، طرف السرير البادي من الباب الموارب ، صورته وهو صبي يرعى الغنم ، النافذة وقمة المنزل المجاور فتح الباب وخرج .

ختـــــام

«سقطت قلاع قبل هذا اليوم
لكن الهواء الآن حامض»

محمود درويش

عام كامل قضيته في محاولة استقصاء ورواية أحداث مقتل فخر الدين. عام كامل . تركت خلاله عملي وأهلي ومستقبلي الذي كان يجري بين يدي وكنت أرى آخره من بدايته . عام كامل قضيته متنقلا بين البلاد التي وطأتها قدما فخر الدين أو تلك التي هفت إليها نفسه . قرى نيل مصر ومدنها . مقاه وزوايا . أجران وحقول وبيوت وشوارع . صحاري وبحار ومراكب وسجون . كل شبر مر فيه مررت خلفه . كل حائط كتب على جيره قرأته . وكل نظرة رآها استعدتها ونظرت فيها . وحاولت ترتيب كل المتناقضات التي سمعتها كي أفهم زمنه وأيامه ومقتله الذي تأكد لي مرات عدة . وبذلت في ذلك جهدا يصعب على تصوير مقداره ، إلا أنني في النهاية فهمته ، وفهمت مقصده .

والآن ، ماذا أفعل بنفسي التي تفتحت فشربت من حقيقة مقتله حتى أترعت؟ ماذا أفعل أنا الذي لم أعد مثلما كنت؟ ماذا أفعل بكل الذي دخلت فيه ورأيته فحفر قلبي وباطني ونفسي؟ وماذا أفعل بهذه الحقيقة المرة التي تأكدت لي؟

هل أغرقها في نفسي وطياتها وأقفز من فوق هذه الهوة الهائلة التي تفصلني عني أنا القديم؟

أم أترك نفسي تغرق في مرارة حزن هذا الفهم المفجع ؟

وهل تبقى في نفسي طيات تحتمل أن تطوي شيئًا من بعد ما رأيت؟

عمر فارس

نبذة عن المؤلف

- كاتب ودبلوماسي مصري ، يعمل حاليًا أستاذًا زائرًا للعلوم السياسية بالجامعة الإمريكية بالقاهرة.

- صدرت له رواية « أسفار الفراعين» (1999-2009)، ورواية « غرفة العناية المُركزة» التي رُشحت لجائزة البوكر العربية لعام 2008.